تأليف

ع.ق

جحيم الروس

قصة سيف الإسلام خطاب، أسد المقاومة الشيشانية، و قاهِر الجحافل الروسية، و أحد أمهر قادة حروب العصابات في العصر الحديث

تأليف:
ع.ق

جحيم الروس

قصة سيف الإسلام خطاب، أسد المقاومة الشيشانية، و قاهر الجحافل الروسية،
و أحد أمهر قادة حروب العصابات في العالم

1443هـ - 2022 م

شكر و اعتراف

تقيُّـدًا بقول النبي ﷺ: «مَنْ لَـمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَـمْ يَشْكُرِ اللهَ» [1].. أتوجَّهُ بالشُّكر الجزيل لأخي الشيشاني الفاضل (أ.أ) الذي دلَّني على عُمدة مصادِر هذا الكتاب؛ و الـموسوم «تجربة الأنصار العرب في الشيشان.. خواطِر و ومواقِف للقائد خطَّاب».

على أنَّ ذلك الأخ قد ألحَّ عليَّ أن أُغفِلَ ذِكرَ اسمِه كامِلاً لدواعٍ أمنيـةٍ، فجزاه الله خيـرَ الجزاء.

(١) سنن الترمذي (١٩٥٥)، و قال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

القائد خطاب في سطور

- ولد عام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م بمدينة عرعر شمال الحجاز.

- تخرَّج مِن الثانوية العامة في تخصُّصٍ عِلميٍّ عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م بمعدَّل ٩٤%.

- انخرط في نظام (CPC) التدريسي الخاص بشركة (أرامكو) البترولية ابتداءً مِن عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- ارتحل إلى أفغانستان مُجاهِدًا شهرَ شوَّال مِن عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م و هو في السابعة عشر مِن العُمُر بعد أن ترك دراسته في شركة أرامكو.

- في أفغانستان تولَّى قيادة سرية (أحُد) بمدينة لوجر، كما شارك في بعض كُبرى المعارِك على غِرار معركة خوست بين عامَيْ ١٩٨٧-١٩٨٨م.

- انتقل إلى طاجيكستان خلال عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٣م، وجاهد تحت لواء زعيم المُعارضة الطَّاجيكية المُوحَّدة عبد الله النوري ضد الرُّوس و عملائهم.

- انتقل بعدها إلى الشيشان في ربيعِ عام ١٩٩٥م و أنشأ معسكرًا تدريبيًّا خاصًّا بمنطقة (فيدنو)، و لَقِيَ الزعيم الشيشاني جوهر دودايف.

- أعدَّ في أكتوبر مِن عام ١٩٩٥م عملية خاراتشوي ضد القوات الرُّوسية و دمَّرها تدميرًا، وساهم في تحقيق نصر المقاومة الشيشانية على روسيا خلال الحرب الأولى بينهما.

- قاد عملية شاتوي (ياريش ماردي) في ١٦ أبريل ١٩٩٦م و قضى بها على ما يزيد عن ٢٢٣ روسيٍّ بين جندي و ضابط.

- كان الرجل الثالث خلال الحرب الشيشانية الثانية مِن جانب الـمُقاومة إلى جانب الزعيم أصلان مسخادوف و القائد شامل باساييف.

- تمَّ وضعُه على لائحة الـمطلوبين لدى الـمُخابرات الرُّوسية (KGB) في صائفة عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠١م.

- اغتِيلَ يوم ١٩ مارس ٢٠٠٢م عبر رسالة سمَّمها عميلان مُندسَّان في صفوف الـمُجاهِدين مِن قِبَل الـمُخابرات الرُّوسية، و كان عُمُره اثنتين و ثلاثين سنةً.

قال القائد خطاب

- «أين القائد؟!.. القائدُ هو الذي يعيشُ في الخنادِق و ليس مَن ينعمُ في الفنادِق».
- «نحنُ المُذنِبون! جلسنا في بلادنا نأكلُ و نشرب، و تركنا الشُّعوبَ المُسلمة تحت ظُلم الشيوعية عشرات السنين».
- «عجبا لبعضِ النَّاس! سلِمَ منه الملاحِدةُ و النصارى و لم يسلَم منه إخوتُه المُسلمون!».
- «الآلة العسكرية و المادة وحدها لا تُساوي شيئًا أمام قوة الإيمان و اليقين بنصرِ الله القائل: ﴿وَ لَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾».
- «الحربُ ضِدَّ الإسلامِ بدأت منذ وقتٍ طويلٍ، لكن الآن هي -ببساطة- حربٌ علنيةٌ.. بالإضافة إلى ذلك يُريدون أن يُدمِّروا الإسلامَ باستعمالِ أيدي مُسلمةٍ، ويُسمُّوننا إرهابيِّين لتبرير قتلهم.. يعرِفُ العالَمُ بالكامِل مَن هم الإرهابيُّون الحقيقيُّون، لكنَّ الجميعَ صامِتٌ لأنَّ ذلك في مصلحتهم».
- «إلى متى و نحنُ الدُّعاة نجلسُ و ننتظرُ العدوَّ، و نحن نعلمُ أنه يُجهِّز العُدَّةَ لإبادتنا حتى يغزونا و يُهلِكنا، فنقف على المَنابر نشكو هَتْكَ الأعراض و قتل الأنفس و احتلال البُلدان؟!».
- «قاتِل عدوَّك قبل أن يغزوك، فلا ننتظِرُه حتى يغزونا ثم نصيحُ كما تصيحُ النِّساءُ، بل متى ما رأينا أنه قد همَّ بنا فإن كان لنا قُدرةٌ أوقفناه حتى لا يتجرَّأ على بقية بلاد المسلمين».

▪ «يا ليت الواحِد مِنَّا يصنع أو يُساهِم في صُنع الحدث بدلاً مِن أن يكون جزءً مِن الحدث».

▪ «ماذا نفرق عن صحابة رسول الله؟! هُم بشرٌ و نحن بشرٌ نأكلُ كما يأكُلون، و نشربُ كما يشربون؛ و لكنَّهم غيَّروا مجرى التاريخ، فلابُدَّ أن نُغيِّر التاريخَ كما غيَّروا حتى نُشبههم و إن كُنَّا لسنا بمثلِهم».

▪ «إنَّ هؤلاء (يقصِد الشيشانيين) لا يعرِفُون لُغتَكم، و لا ينبغي أن يكون هذا حاجِزا بينكم و بينهم؛ بل أروهُم صِدْقَ أفعالِكم».

▪ «ثِقُوا بالله و أحْسِنوا الظنَّ بالله.. والله ثم والله أننا كما نؤمِنُ بالله؛ نؤمِنُ بالنَّصر المُبين و بالخِلافة التي وعد بها الرَّسولُ الكريمُ».

▪ «لمَّا رأيتُ أخي شامِل نزلت الدُّموعُ مِن عينيَّ؛ إذ رأيتُه و المُجاهِدون يحمِلونَه و هو بنفسية مُرتفعة و يبتسم و يضحك و يقول: الرُّوسُ أعطَوْني هديةً الآن إن شاء الله؛ سهُلَ عليَّ بعد الآن فتحُ الألغام، فلن أفتحها بالشكل الذي فتحتها، إنما أضعُ رِجلي الخشبية و أفتح الألغام للمُجاهدين فيما بعد!.. فتأثَّرتُ كثيرًا مِن ذلك و حملتُه، فقال لي مُمازِحًا: أنا أعرِفُ أنك تحمِلني لأنني جريحٌ الآن، لكني لا أحملك عندما تُجرَح».

▪ «أنا شخصيا لا أنسى فضلَ الشعب الأفغاني بعد الله ﷻ في أنه علَّمنا و جعلنا نُشارِك في القضية؛ لذا فأنا أحبُّ الشعبَ الأفغاني و أعزُّه و أتمنى أن أكون على اتصال معه و أزورَه دائما.. فهو شعبٌ له عِزَّة و أنفة، و قاتل الاتحاد السوفييتي في وقتٍ لم نكُن نحن نُصدِّقُ أو نحلمُ أن يعود الجِهادُ للأمة الإسلامية، و كانت آيةً مِن الله ﷻ؛ أفقرُ شعبٍ في العالم يطحن الاتحاد السوفييتي في عشر سنوات! و اليوم هنا في الشيشان أصغرُ شعبٍ في العالَم يطحنُ روسيا في قلب روسيا! فهذه آيةٌ مِن آيات الله».

- «و أقولُ أنَّ أكثرَ القضايا هي تحت الضوء الأخضر؛ فإذا كان هناك ضوءٌ أخضرٌ مِن الغرب فالعالَـمُ يُساعِد، و إذا لـم يوجَد ضوءٌ أخضرٌ تُرمى القضية!».
- «أخافُ أن أموتَ جُثةً لا قيمة لها بسرطانٍ أو حادِث.. و لكني أريدُ أن أموتَ شهيدًا».

الحمد لله، و الصلاة و السلام على رسول الله..

أما بعد

ذات يوم كنتُ أتأمَّلُ إحدى أشهر صُوَر القائد الهمَّام و المُجاهد المِقدام سيف الإسلام خطَّاب -رحمه الله- على هاتفي المحمول و هو يرتدي بِزَّته العسكرية و يضع على رأسه قبَّعة سوداء، و ينظر إلى ناحية ما بجانبه مع هيبةٍ عظيمةٍ تبدو منه يستشعِرُها كلُّ أحدٍ يرى تلك الصُّورةَ، وقد كان أخي الذي يصغُرُني سِنًّا ساعتئذٍ بجانبي، فأرَيتُه الصورةَ و سألتُه: «مَنْ هَذَا؟ أتَعْرِفُهُ؟!»، و كنتُ أعلم أنَّه لا يعرفه، و لكنني طمعتُ في أنْ أعرِّفَه به و ببطولاته حالما يُخبِرني بذلك..

إلا أنَّني صُعِقتُ حينما قال لي: «هَذَا شِي جِيفَارَا، أنَا أعْرِفُهُ»..!!

يا لله و يا لأجيال الأمة اليوم! ويْحَ القائمين على التعليم و التثقيف في أمَّتنا كَمْ فرَّطوا في جنْب أبنائها و نشئها! بل ويْحَ الخونة مِن بني جلدتنا الذين تعمَّدوا طمسَ تاريخ كلِّ شخصية مُخلصة في أمة الإسلام!

لقد درَّسونا حينَ صِغَرنا -و في مدارس بلادنا- سيرةَ القائد الحربي شي جيفارا، و قدَّموه لنا في ثوب البطولة و العظَمَة و هو المُلحِد الشُّيوعي، بينما تعامَوْ عن القائد المجاهِد خطَّاب، وحرموا الأجيال مِن معرفته و هو المُسلِم الموحِّد الصَّادِق!.. لقد كانت صورة خطَّاب التي أريتُها لأخي تُشبه فعلاً إحدى صور شي جيفارا المشهورة، بل إنَّ العَلَمَين يتشابهان كثيرا في ملامِح الوجه و طول الشَّعْر و البنية الجسدية، و كلاهُما كان قائدا عسكريًّا مُحارِبا لم يسبق له أن تكوَّن في أي نظام عسكري في دولته، و كِلاهُما كان يخوض ضدَّ عدوِّه حروبَ شوارِعٍ طاحِنةٍ و ما معهُ إلا

الـمُتطوِّعون مِن عموم النَّاس، و كِلاهُما سطَّر تاريـخَه في غير البلد الذي وُلِد به، و غيرها مِن أوجه التشابُه..

و لكن..!

شتَّان بين مَن يُحارب مُجاهِداً في سبيل إعلاء راية التوحيد و الإيمـان، و بين مَن يُحارب في سبيل إعلاء راية الشيوعية! شتَّان بين مَن يُحارِب لإقامة شريعة الله في الأرض، و بين مَن يُحارب لإقامة شريعة الشيوعيين الكُفرية فيها! شتَّان بين مَن كان شديدا على أعدائه رحيمًا بأصحابه و لو أخطأوا في حقِّه، و بين مَن كان شديدًا على أعدائه شديدًا على أصحابه فيقتُل منهم كُـلَّ مَن شكَّ مجرَّد الشك في إخلاصه! و إننا بهذا القول لا نبخسُ شي جيفارا بطولـتَه و ذكاءَه رغم إلحادِه و كُفره، فهو قد كان - والحقُّ يُقال- بارِعا للغاية في القتال، ذكيا في التخطيط، ذا مكر و دهاء مُعتبرَيْن، و لكننا نعيب على الـمسؤولين في الأمة وضعَه موضع القدوة بين يدي أبنائها الـمسلمين، و هذا لا يجوز شرعًا، فضلا عن كونِه دليلاً على الشعور بالنَّقص و الضعف أمام باقي الأمم التي لا تتنكَّر لعظمـائها و رموزها، بل هي دائمًـا ما تُلمِّعُهم و تُضفي عليهم شيئا مِن العظمة و القداسة، و إنَّ بعضَها إذا لم يجِد رمزًا يُمثِّلها ذا شُهرةٍ و أثرٍ في التاريخ سارعت إلى اختلاقِ رمزٍ مغمورٍ لتجعله مشهورًا و تُقدِّمه في قالب القدوة لأبنائها، و عادةً ما تنسب إليه أعمـالاً لم يعملها أو تصِفه بصفاتٍ ليست فيه!

و إنَّني أقول هذا الكلام مع إدراكي التام لحقيقة وضع الأمة الرَّاهِن في هذا الزَّمان؛ فليس معقولاً أن يأتيك الإعلامُ العربيُّ -أسيرُ الإعلام الغربي الـمُهيمِن- برمزٍ مِن رموز الجِهاد بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م ليمدحه و يُثني عليه و يُعرِّف الأمة به و أمريكا تُصِّنف هذا الرمز على قائمة الإرهاب لديها!

الثائر الشيوعي الأرجنتيني شي جيفار

المجاهد الإسلامي العربي خطاب

و لذلك فكلامي مُوجَّهٌ -بالمقام الأول- إلى الشعوب المُسلمة شرقا و غربا، عجميها و عربيها، و الذي أرجوه و أتمنَّاه مِن صميم قلبي أن تُغيِّر هذه الشُّعوب مِن حالتها المرضية التي هي عليها نحو الحالة الصحية المطلوبة، بدلاً مِن أن تُضيِّع مِن عُمُر الأمة سنوات طويلة أخرى و هي تنتظِر قيام حكومة مُسلمة قوية تَسير على الإسلام و تنصُره نصرا كامِلاً في ظل الهيمنة الغربية على العالم، و تُحكِّم شريعته تحكيمًا تامًّا غيرَ منقوص، فهذا مِمَّا هو مُستبعدٌ نِسبيا إلى حين كتابتي هذه السُّطور، و إنما الواجِب هو أن تؤدي هذه الشُّعوبُ دورَها التاريخي المنوط بها مِصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:35]، ولا شكَّ في أنَّ هذا التغيير سيستغرق سنوات طويلة، أو ربما عقدين أو ثلاثة أو أكثر، و لكنه -حتمًا- سيؤتي ثمارَه في الأخير.

و قد كنتُ مِن خلال اطِّلاعي على تاريخ المجاهدين الكِبار مِن لدن عهد النبوة إلى عهد العثمانيين في حالة مِن الدهشة و الانبهار، ونظرتُ إلى أولئك المُجاهدين نظرةَ الإجلال و الإكبار، و قد كانوا -حقاًّ- رؤوسا في الشجاعة و الإقدام، و نماذج تُضربُ بها الأمثالُ في النكاية بأعداء الإسلام، و أُسُوات يُحتذى بها في الثبات على المبادئ و تحمُّل الأوجاع و الآلام، تدفعُهُم في ذلك حَمِيَّتُهم للدِّين و العقيدة دفعًا، فنصر الله دينَه بهم، و أذلَّ أعداءه على أيديهم، و جعلهم حُجَّة على مَن تقاعس عن

الجِهاد في العصور اللاحِقة و تكاسل.. و لأنَّ زمنَنا المعاصِر قد تبدَّلت فيه مفاهيمُ طوائف كثيرة من المسلمين، و انحرفت عقائدُهم و تصوُّراتهم، و انتكست فِطرتهم، و صار أعداؤنا هم مَن يُحدِّدون لنا العدوَّ مِن الصديق، و الخصم مِن الحليف، و ليس اللهُ و رسولُه، و كأنَّنا لم نسمع قولَ الله تعالى: ﴿إِنْ تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبواْ خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٩]، فصِرنا في قبضة أعدائنا و تحت سيطرتهم، و باتوا لا يسمعون صوتا يهتف بالجِهاد و المُقاومة المَشروعة إلا و يخنقوا صاحبَه قبل أن يبلغ مسامعَ الأمة.. أقول: و لأنَّ واقِعَ المسلمين في زمننا المُعاصِر على تلك الحال اعتقدتُ أنه مِن العزيز أن يظهر منهم مَن هو على شاكِلة المُجاهِدين الكِبار الأوائل و اللاحِقين مِمَّن خلَّد التاريخُ أسماءَهم بحروفٍ مِن نور، فلقد خَفَتَ -في يوم ما قريب مضى، و بسبب المِحن التي تعصِف بأمتنا و دُوَلنا- بصيصُ الأمل الذي لطالما كان يقول لي مِن أعماق نفسي: «إنَّ الأمةَ في طريقها إلى النُّهوض.. في طريقها إلى المجد.. في طريقها إلى العِز و التمكين.. في طريقها إلى السِّيادة و الرِّفعة.. فلا تجزع و لا تتشاءم!»، فلما قرأتُ سِيَر مُجاهِدي الأمة في العقود الأخير القليلة -على غِرار خطَّاب و باساييف و عزَّام- نَشَطَ ذلك الأملُ في نفسي مِن جديد، و ردَّ إليَّ تفاؤلي بمستقبل هذه الأمة رغم واقِعها المرير، و أدركتُ أنَّ ظُهور أولئك المُجاهِدين في هذه الحِقبة لَهُو إشارةٌ حيَّةٌ رائعةٌ إلى أنَّ أمتنا مازالت حيةً ينبِضُ قلبُها بالحياة، و إنما هي مُقبِلةٌ على مزيدٍ مِن البلاء و التمحيص كي تقومَ قيامَها الكبير المنشود، و تنهض نهضتها الربانية المعهودة، فتُعيد مسيرة الحضارة و الإنسانية الحقيقية، و تقود العالَمَ إلى مرافئ العدل و المساواة ﴿وَ يَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٥١].

هذا، و قد وصلتُ بعد اطِّلاعي على سيرة القائد خطَّاب إلى أنَّه مُجاهِد مِغوار مِن طينة مُجاهدي تاريخنا الأفذاذ، و مُقاتل شديد النكاية بأعداء الأمة، ليصدُق فيه

وصفُ العزيز الجبَّار للصحابة الأبرار بأنَّهم: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ﴾[الفتح:29].. و أرى أنَّ لي الحق في أن أقول هنا: مَن سرَّه أن ينظُرَ إلى مجاهدٍ مِن مجاهدي السلف في القرون الإسلامية الأولى الفاضلة فلينظُر إلى سيف الإسلام خطَّاب!

و إنني -و ربِّي- لأجِدُني في أسَفٍ بليغٍ كلَّما استحضرتُ الدِّعاية الدولية الضَّالَّة التي توصِم مُجاهِدِي الإسلام في العقود الأخيرة بـ«الإرهاب» و «التطرُّف»، و أثرِها في تشويه رؤية شعوب الإسلام -قبل شعوب الغرب الصليبي و الشرق المُلحِد- تجاه كُلِّ مَن يرفع السِّلاح في وجه الكَفَرَة المُعتَدين على بلاد الإسلام، و الذين لا يُشكُّ في كُفرِهم بالدِّين، و لا يُرتاب في عُدوانهم على المُسلمين.. إنها -وايمُ الله- لمُصيبةٌ أنْ تُعكَس المفاهيم لدى المُسلم المُعاصِر؛ فيُصبِحَ المُجاهدُ المُدافِعُ عن حِمى الإسلام شِريرًا منبوذًا لديه، و يكون العدوُّ المُجرمُ المُحارِب لدينه و أمته خيِّرًا مقبولاً عنده، و أن يقتنِع بالدِّعاية الغربية بدلاً من أن يقتنِع بما في كِتابِ الله العظيم و حديثِ الرسولِ الأمين.. و في المقابِل انظروا إلى الأمة الرُّوسية المُلحِدة كيف أنها ترى مُجرِمَها «الإرهابيَّ» فلاديمير بوتين زعيمًا وطنيًّا مَحبوبًا، و رائدًا لها نحو تحقيق الرَّخاء الاقتصادي و النهوض الحضاري و التفوُّق العسكري، و هو الذي سفكَ دماء مئات الآلاف مِن الأبرياء المسلمين و غير المُسلمين، و واجهَ الشَّعبَ الشامي في سوريا بأعتى الأسلحة و أفتكِها و أخطرِها! فكيف -بعد هذا- للمسلم أن يرتاب مِن ذِكر أسماء إسلامية ناصِعة ضربَت أروع الأمثِلة في الأخلاق و الرحمة قبل أن تضرِبها في القِتال و القوة، و هي التي دافعَت عن دينها و عِرضها و هويتها مِن دون أن تعتدي على مَن لا يجوز الاعتداءُ عليه شرعًا، أو أن تسفِكَ دمَ أحَدٍ بغير حقٍّ و لو كان كافِرًا غيرَ مُسلم؟!

إنَّكم -يا إخوة الإسلام- ستكتشِفونَ في قادِم الصَّفحاتِ رجلاً عظيمًا عجِزَت نساءُ العصر أن يلِدْنَ مثلَه؛ في العِزَّة بالدين، و الاستعلاء بالعقيدة، و الفَتْك بمُجرمي الأرض العادين، و الدِّفاع عن الأبرياء و المظلومين، و الهِمَّة العالية في الدعوة، و

الصَّبر على تصحيحِ عقيدةِ مَن فسُدَت عقيدتُهم مِن المسلمين الأعاجِم، و تطهيرِهم مِن البِدَعِ و المُحدَثَاتِ في دينهم بالأسلوب الأمثَل.. و أمَّا عبقريتُه الحربية فإنني أجِدُ نفسي مُرغمًا على وضعِ القائد خطَّاب في صدارة عباقِرة مُجاهِدي الأمة بعد سقوط الدولة العثمانية؛ فهو مِن طينة أسد الصحراء عمر المختار، و بطل الريف المغربي عبد الكريم الخطَّابي، و النجم الشَّامي عز الدين القسَّام، و الشيخ عبد الله عزَّام، و مَن هو مثلهم، رحمهم الله جميعا.

و اللهَ تعالى أسألُه بأسمائه الحُسنى و صِفاته العُلى أن يُوفِّقني و يكتُب النجاح لهذا العمل المتواضِع، و أن تتلقَّاه الأمةُ بالقبول و الرِّضا، و أن ينتفع به الشبابُ المسلم و يزيدَهم إيمانا برسالتهم الخالِدة، و وعيا بما يحيكُه أعداءُ دينهم لهم، و إدراكا لواجِبهم في هذه الحِقبة الخانِقة مِن عُمُرها.

الفصل الأول:
من الولادة إلى ما قبل الحرب الشيشانية

- من هو سيف الإسلام خطاب
- مفاتيح شخصية خطاب
- الجهاد الأفغاني
- المحطة الأفغانية
- المحطة الطاجيكية

من هو سيف الإسلام خطاب؟

هو أبو صالِح، ثامر بن صالح بن عبد الله السويلم الجلاسي العنزي النجدي، على أنَّ هنالك من لا زال يُسميه سالِـمًا لا ثامر؛ ذاك أنَّ أهلَ الشيشان الأعاجِم الذين مكث خطَّاب بين أظهرِهِم أكثر مِن سبع سنين استبدلوا الثاءَ بالسين فنطقوا اسمَه سالِـمًا بمقتضى العُجْمة الغالِبة على لِسانهم، فعُرِف به منذ ذلك الحين، ولكنَّ أكثر الناس وقتئذ عرفوه بلقب (ابن الخطَّاب)، ثم صار (خطَّاب) على سبيل الاختصار، وهو اللَّقبُ الذي أطلَقَه على نفسِه في صِغَره تشبُّهًا و تأثُّرًا بالفاروق عمر بن الخطَّاب ﷺ، و به أيضا كان يُناديه أكثرُ أنصارِهُ في الشيشان.. و مولده بمدينة عرعر لأربعٍ بقينَ مِن مُحرم عام ١٣٨٩هـ، وِفق: الرابع عشر مِن أبريل عام ١٩٦٩م، و عرعر هي مدينة عامِرة تقع شمالي الحجاز، و منها خرج للدنيا دُعاةٌ و فُضلاءٌ كثيرون، و قد امتازَت بكونِها منطقة رعوية يكثُر فيها رعيُ الغنم وغيرها مِن البهائم، كما أنَّها تضُمُّ مساحة واسِعة مِن الرِّمال الصحراوية.. و هناك بعضُ المصادِر الثانوية تقول بأنَّ خطَّاب وُلد بأرض الأردن، و هذا غلطٌ لا صِحة له، و إنما الصحيحُ ما أثبتناه.

و قد كان عبد الله السويلم -جَدُّ خطَّاب- يُعرف بالشجاعة و الشهامة في منطقة الأحساء.. أما صالح بن عبد الله -والدُ خطَّاب- فقد وُلِد في الأحساء، و كان رجلا صالحا له من اسمه نصيب، و ديِّنا فاضِلا مُحِبًّا للعلم و العلماء، مُلتزمًا بتعاليم الدِّين الحنيف و آدابه، حريصا على إقامة بيت أسرته عليها و تربية أولاده وِفقها، فلا أغلى مِن الدين عنده و لا أهم مِن أن ينشأ أولادُه نشأة إسلامية أصيلة، بل و نجده يهتم بالاطلاع على المجلة الإسلامية، و يحرص على اقتناء الشريط الإسلامي و

تشغيله في البيت على مسامع زوجِه و أولادِه، و لم يكُن ذلك شائعا إلا لدى القليل فقط مِن الأُسَر في بلاد الحرمين، و مع ذلك فلا مكان عندها للدياثة و الانحلال عكس ما يُراد لها اليوم أن تكون عليه [٢].

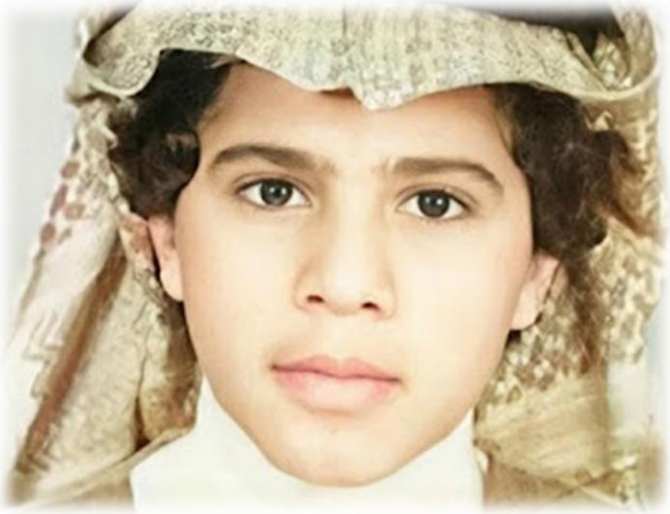

سيف الإسلام خطاب و هو ذو سبع سنوات

و قد ذُكِر عن صالح أنه كان يأخذُ أولادَه كلَّ أسبوع إلى المناطِق الجبلية حتى تشتدَّ سواعِدُهُم، و تتريَّض أبدانُهم و تتصلَّب، و تكسبَ نفوسُهم قوةً في التحمُّل و الصبر و الجلَد، و هذا يُعطينا تصوُّرا واضحا حول طبيعة والد خطَّاب المنبثقة مِن صميم العروبة الأصيلة، فكان ابنُه سيف الإسلام خطاب في شبابه مثالا رائعا عن الشاب العربي الصلب الذي لا يجدُ الجبنُ و الخنوعُ إلى نفسه سبيلا، بل لا وجود فيها إلا

(٢) أكتبُ هذه السطور للتاريخ على ما تشهده بلاد الحرمين اليوم في عهد محمد بن سلمان بن عبد العزيز الذي أحاط نفسَه ببطانة السوء، فقتل و ظلم مِن دون وجه حقٍّ، و سجن مِن العلماء و الأولياء ما اكتضَّت به سجون البلاد، و أتاح المجال الواسع للمنافقين لينفثوا سمومَهم عبر مختلف وسائل الإعلام، و والى اليهودَ و النصارى، و اجتهد مستشارُه الفاسِد تركي آل الشيخ -و تحت إشرافه- في نقضِ عُرى الدين، و نشر الانحلال و المُجون، و خلع رداء المحافظة و الالتزام عن الأسَر السعودية كما لم يجرؤ أحدٌ قبله على القيام به، على أنَّ كُلَّ ذلك مِن أمَارَات زوال الدَّولة السعودية الرَّابِعة و انتقاضها، و لله الأمرُ مِن قبل و مِن بعد!

للشجاعة و الإقدام و العِزَّة بالدين و العقيدة، و هي الصفات و الخصائص العربية التي تشرَّبها خطَّاب مِن والده و بيئته -أكثر مِن إخوته- كما تتشرَّب الإسفنجةُ الماءَ، و لعلَّ ذلك ما تُفسِّرُه لنا طبيعة مدينة عرعر التي ذكرنا قبل قليل بأنَّها منطقة ينتشر فيها رعيُ الغنم، و هذه خاصية عربية بامتياز.. و أما والدة خطَّاب فاسمُها رسمية بنت إسماعيل بن محمد المُهتدي، و هي تركية الأصل؛ هاجر أبوها مِن تركيا حين انهيار الدولة العثمانية و إعلان المجرم اليهودي كمال أتاتورك ميلاد الجمهورية التركية الحديثة بدلا عنها سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م، فلما كان مُقيما بأرض الشام في سوريا رُزِق بابنتِه رسمية مِن زوجته التركية، فترَعْرَعَتْ بها و نشأَتْ، لكننا لا نحوزُ معلومةً واحِدةً تُفيدنا بسنة ولادتها على وجه الضبط، و لعلَّ ذلك كان حوالي سنة ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م تقديرًا إذ أنَّها بعد استشهاد خطَّاب سنة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م كانت قد بلغت الثامنة و الخمسين مِن عُمُرها، و الله تعالى أعلم.

هذا؛ و قد كان لسيف الإسلام خطَّاب أربعةٌ مِن الإخوة هو خامسُهم و أصغرُهُم سِناًّ، و كلهم ذكورٌ ليس بينهم أنثى، و نحن لا نعرف أسماءَ إلا اثنين منهم، و هما: ماهر و منصور.. و جميعُهُم عُرِفوا -وسط معارفهم و أصحابِهم- بالصَّلاح و حُسن الخُلق و سلامة العقيدة و الدين، و ما ذاك إلا نِتاج التربية الإسلامية القويمة التي نشأوا عليها بين يدي والِدَيْهم؛ صالح بن عبد الله و زوجه رسمية بنت إسماعيل رحمهما اللهُ تعالى و أجزل مثوبتَهما.. و لذلك كلِّه فلا عجب أن يظهر في الأمة اليوم مَن هو في مثل بطولة و جِهاد القائد سيف الإسلام خطَّاب ما دام فيها آباء و أمَّهات في مثل صلاح صالح و رسمية؛ فإذا كانت الأمُّ الصالحة هي أساسُ صِناعة المجاهدين المُخلصين و العلماء العامِلين كما كان الحال مع كثيرٍ مِن أعلام التاريخ الإسلامي، فإنَّ الأبَ الصالِحَ لا يقِلُّ شأنًا عنها قطُّ، و كُلٌّ له دورُه الخاص.

و أما زوجُ خطَّاب فهي داغستانيةٌ تزوَّجها في الفترة الـمحصورة بين عامي ١٤١٦-١٤١٧هـ/ ١٩٩٦-١٩٩٧م أثناء وُجودِه بالشيشان، و أنجب مِنها بِنْتَيْنِ؛ الأولى اسمُها سارة و هي الأكبر سِنًّا، و الثانية اسمُها ساجِدة و هي الأصغر سِنًّا، و بينهما ولدٌ اسمُه صالح، و هو الذي تكنَّى به خطَّاب.. و كانت سارة تبلُغ مِن العُمر عند موت والدِها خمس سنوات، و ساجِدة سنة و نِصف، و صالح ثلاث سنوات.

و أما عن الـمسيرة الدِّراسية؛ فقد بدأها خطَّاب في مرحلتها الابتدائية بمسقط رأسه مدينة عرعر، و ذلك في مدرسة سُمِّيَت باسم عمر بن الخطَّاب، و كان خلال تلك الـمرحلة تلميذا مُجتهدا و متفوِّقا، و أنهى الصفَّ الرابع و عمرُه عشر سنوات، و ذلك في عام (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م). ثم بعد ذلك ارتحلت أسرتُه إلى منطقة الثقبة بالقرب مِن مدينة الدَّمام، فواصل خطَّاب دراسته في إحدى مدارِس الـمرحلة الـمتوسطة، ثم في مدرسة (الـخُـبَر) الثانوية، و حافظ على نسق الاجتهاد و التفوُّق و التصدُّر فيها.. و كان حي (الصبيخة) الذي قطن به خطَّاب و أسرتُه في منطقة الثقبة مِن أشهر أحياء هذه الـمنطقة و أكثرها احتضانا لذوي العلم و الصلاح و الالتزام، فكان خطاب يحرص على مُخالطتهم و مُجالسَتهم، و يشهد الصلوات جماعةً بمسجد الحي، إضافةً لبعض ما كان يتلقَّاه مِن العلم الشرعي و مبادئ الدين في بيته على يدي والِدَيْه، و مِن الـمُحتمل أنَّ حلقات تدريس العلم الشَّرعي كانت تُقام بمسجد حيِّه، و مِن ثمة فهو يـحضرُها و يستفيد منها، و الله أعلم.

و لازال خطَّاب يُزاوِلُ دراستَه بنجاح و تفوُّق حتى تـخرَّج مِن الثانوية العامة في تخصُّصه العلمي سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، و كان معدَّل تخرُّجه ٩٤٪، و هو معدَّلٌ مُـمتاز يضعه في صدارة الـمُتفوِّقين! و لكنَّنا سنقف قليلاً هنا لنتعرَّف على ما كان يحلم به

خطَّاب و يطمحُ إليه قبل حصوله على ذلك المعدَّل، خصوصا و أنَّه لم يكُن يومئذ يتعدَّى السادسة عشر مِن عُمره.

ففي النِّصف الثاني مِن القرن الميلادي العشرين شهِدَ العالَمُ هيمنةً أمريكيةً منفردةً عليه سياسيا و عسكريا و علميا و ثقافيا، في مقابل تفكُّك الأمة الإسلامية بعد سقوط الدولة العثمانية بعقود قليلة، و كذلك تراجُع الاتحاد السوفييتي و اقترابه مِن التفكُّك و الانهيار بعد أن كان المُنافِس الأقوى و الأوحد للولايات المتحدة الأمريكية.. فكان مِن مظاهر الهيمنة العالمية لهذه الأخيرة أن صارت جامعاتُها الوِجهة الأولى و المفضَّلة لطُلاب العلوم المادية مِن مختلف بلاد المعمورة بعد إنهائهم مرحلة الثانوية العامَّة، و مِن ضمنها بلاد الحرمين؛ فكان طُلابُها يحلمون بإكمال دراساتهم في أمريكا و يطمحون إلى نيل الشهادة من جامعاتها، و مِن ضِمن أولئك نجد الشاب اليافع سيف الإسلام خطاب صاحب الذكاء المتوقِّد و الفِطنة العالية، و قد كان -على غِرار أترابه و لِداته في مجتمعه- يحلمُ بالوظيفة السَّامِقة و الرَّاتب الرَّفيع كونَه صاحب معدلَّ التخرُّج الممتاز الذي أتاح له يومئذ دخولَ شركة أرامكو البترولية المشهورة بمنطقة الظَّهران شرقي بلاد الحرمين كما كان يتمنَّى، و ذلك في نظام تدريسي كان يُعرف مختصَرا بـ(CPC)، أي نظام الابتعاث السَّريع (College Preparatory Program)؛ و هو نظامٌ يسمح للدَّارِس تحت مظلَّته أن يُبتَعث إلى أمريكا و يُكمل دراسَته فيها.. و قد صنع خطَّاب بعد دخوله ذلك النِّظام التَّميُّزَ إذ نال إعجاب أساتذته و زملائه في الفصل، و حاز تقديرَهم له، و فوق ذلك كان يستلم راتِبا شهريا قدرُهُ ٢٥٠٠ ريال سعودي، و هو راتبٌ كبيرٌ يومئذ.

جاء في موقِع (مفكِّرة الإسلام) الالكتروني أنَّ مِن أحلام خطَّاب التي كان يُحدِّث بها أقرانَه أن يكون لديه قصرٌ مساحتُه ٣٥٠٠ متر مربَّع، يحوي مِظلَّةً تتَّسِع لخمس

سيَّارات إحداها سيَّارة سوبربان للعائلة، و سيَّارة جِمس أحمر له شخصيًّا يمرح عليها في الصحاري و البراري!.. و كان يحلم أن يكون لديه عشرون قطعة أرض فيُسكِن فيها والدَاه و إخوتَه، غداؤهم واحد و عشاؤهم واحد، يُمازِحهم و يُلاعبهم و يشكو إليهم.. و كان يحلم بحافلة يجتمع هو و إخوتُه في الرُّكوب عليها؛ فهو يُريدُهم في حِلِّهم و تِرحالهم بيتا واحِدا.

سيف الإسلام خطاب عندما كان شابا في السابعة عشر من عمره

لقد كان الشاب خطَّاب يحلم بأن يصير واحدا مِن أعمدة شركة أرامكو بعد أن يُتِمَّ دراسَته و يُكمِلها؛ فيُشار إليه بالبنان، و يذيع صيتُه، و يكون اسمُه على كلِّ لسان في كلِّ حديث.

نعم.. تلك الأحلام و الأمنيات و الطُّموحات لم يكُن خطَّاب ليملَّ مِن تكرارها على مسامع أقرانه و هو لم يتعدَّى ساعتئذ الثامنة عشر مِن عُمره، بل إنَّه كان شديد الحرص على تحقيقها، قويَّ اليقين بحصولها، كيف لا و هو صاحبُ المسيرة الدراسية التي دام نجاحُهُ فيها و تفوُّقُه و تميُّزُه؟! كيف لا و هو أصغرُ إخوته و أحبّهم و

أقربهم إلى والدَيه اللَّذَين لم يدَّخِرا شيئا ذا قيمة -مادية كانت أم معنوية- في سبيل نجاح ابنِهما خطَّاب و تحقيق أمنياته؟!

و لكن!.. سيُفاجَأ القارِئ لسيرة سيف الإسلام بأنَّ كلَّ أحلامه و أمنياته و طموحاته تلك ذهبت أدراج الرِّياح في لحظة واحدة، و انقشعت انقِشاعَ السَّحاب، فأصبحَت كأنْ لم تُكُن بالأمس شيئا، ليس لأنَّ خطَّاب لم يستطِع تحقيقها و عجز عن بلوغها..كلا!.. بل لأنَّه تركها كلَّها لله تعالى و ما عاد حريصا على تحقيقها و هو الذي كان القادِر على ذلك و المستحِق له!

أي و الله! فإنَّه لم يكد يمرُّ نصفُ عام على دخوله نظام التدريس في شركة أرامكو حتى قرَّر خطَّاب عدم الاستمرار فيها، و ما ذكرته بعضُ المصادر بأنَّه ذهب إلى أمريكا ليس صحيحا، فهو -كما علِمنا- لم يُكمِل دراسته في أرامكو، و مِن ثَم لم يكُن مِمَّن ابتُعِثوا إلى أمريكا.. أما سببُ عدم استمراره في ذلك النظام ذلك فهو قيامُ الجهاد في أفغانستان منذ سنة ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م و انفتاحُ باب التطوُّع أمام كلِّ المسلمين عربًا و عجمًا، فاعتزم خطَّاب الالتحاق بصفوف المجاهِدين في بلاد الأفغان، و كأنَّه امتثل لقول رسول الله ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئاً للهِ عَزَّ وَ جَلَّ إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»(٣).

و لكن.. ما الذي حصل في أفغانستان؟! و ما موقف الدولة السعودية مِن ذلك؟! و كيف جرى انتقالُ خطَّاب إلى أرض الجهاد؟!

ذلك ما سنكتشفه لاحِقاً بإذن الله، و لكن دعونا الآن نتعرَّف على معالِم شخصية خطَّاب و أبرز مكوِّناتِها، و على بعض أخلاقِه و شمائله.

(٣) مسند الإمام أحمد (٢١٩٩٦)، مجمع الزوائد (١٠/ ٢٩٦)، و انظر: السلسلة الضعيفة (١/ ٦٢).

مفاتيح شخصية خطاب

لقد حَبَا اللهُ تعالى عبدَه سيفَ الإسلام خطَّاب بجملة مِن الصِّفات الماتِعة و الخصائص الرائعة، و أوهبَه قدراً كبيراً مِن المؤهِّلات الجليلة و المواصفات الأصيلة التي لو توزَّعَت على عدد مِن الرجال و تفرَّقت لكوَّنت منهم جماعةً متكاملةً تصلح أن تقودَ دولةً بكامِل قِطاعاتِها و مؤسَّساتِها، بل أن تقودَ أمَّة بكلِّ عناصِرها المتنوعة و أعراقِها المختلفة و أقطارِها المتباعِدة، فكيف و قد اجتمعت كُلُّها في شخصية واحدة، هي شخصية خطَّاب!.. و إضافةً لذلك فقد أوتي هذا البطل أخلاقاً كريمة و خِصالاً حميدةً تُرجِمت إلى أفعال و مواقف تاريخية باهِرة، و جعلت منه مظهراً للإنسانية النبيلة الرَّاقية في أصفى معانيها و أسمى جوانبها.

كان خطَّاب مِن العظماء الذين اجتمعت فيهم رِقَّةُ الطَّبع مع صلابته، و رهافةُ الحِسِّ مع صرامته، و لينُ القلب مع شجاعته، و ذلك بشكل مِثالي متوازِن إلى حدٍّ كبيرٍ، و هو أمرٌ قد يبدو للبعض -للوهلة الأولى- تناقُضاً لا يستقيم و تضادًّا لا يستَتِم، و لكنه في الحقيقة على العكس مِنه، بل هو سابقُ الحدوث مع بعضِ مشاهير الإسلام على غِرار سيِّدنا الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، و بيانُ ذلك أنَّ الصلابة و الصرامة و الشِّدة تكون مع الحق و الباطل؛ فلا هوادة في الأول و لا لين، و لا مهادنة مع الثاني و لا موادعة، بينما تكون الرِقة و اللين و الرحمة الغامِرة فيما لا يكون فيه مواجهةٌ بين الحق و الباطِل.. و من المواقِف الذي نرويها عن رِقَّة قلب خطَّاب و رهافة نفسه أنَّه خرج في أحد الأيام قاصِداً ركوبَ سيَّارته و هو ذو بِضعة عشر عاماً، و تزامن ذلك مع

وجود قطة بجانب مُحرِّك السيارة بحيث أنَّ خطَّاب لو أدار مفتاح تشغيلها و انشغلت لثانية واحدة فقط مِن الزمن لقُضِيَ على القِطة بشكل مُريع، و هذا الذي حدث تماماً للأسف، فما هو إلا اكتشف خطَّاب الأمر حتى انصعق و تفجَّرت لدموع مِن عينيه كالشَّلال باكِياً، و حملَه إلى المنزل أخواهُ منصور و ماهِر بعد إذ كاد أن يُغمَى عليه لِهولِ الموقف. و كان الفتى خطَّاب يُحبُّ مداعبة الأطفال في أيام دراسته الثانوية بحملِهِ إياهم على ظهره و صدره، و كان يقول لهم: «ارْكَبُوا ظَهْرِي وَ اضْرِبُوا رَأْسِي!» في مشهدٍ رائع ينمُّ عن إنسانية حقيقية في مثل ذلك العُمر، إنسانية لا كإنسانية الغربيين المُزيَّفة!.. و في المقابِل أمامنا موقفٌ آخر تظهر لنا منه شِدَّة خطَّاب في الحق و صلابته؛ فقد كان يوما مِن أيام دراسته في نظام شركة أرامكو راكِباً السيارة مع أحد أصحابِه، و كان صاحبُه هذا هو السائق، فبينما هما يسيران إذ أبصرا شاباً تُحيطُ به جماعةٌ شيعيَّةٍ تتكوَّنُ مِن خمسة شباب عُرِفوا بالطَّيش و الغطرسة و الظُّلم، و كانوا قد أعدُّوا العُدَّة لضربه و الاعتداء عليه بالعِصيِّ الغِلاظ، و هنا طلب خطَّاب مِن صاحبه السائق أن يتوقَّف فوراً عن السير كي ينصُرَا ذلك الشاب المستضعف و يُعينَاه، فقال له صاحِبُه: «دَعْهُمْ! نَحْنُ لَا نُرِيدُ المَشَاكِلَ»، فأقسَم عليه خطَّاب ثم نزل وحدَه ليَنصُرَ الشاب مِصداقا لقوله ﷺ: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» [٤]، فيما رفض صاحبُه النزولَ اتِّقاءً للمشاكِل حسبَ زعمِه، وما هو إلا أن رأت جماعةُ الأشرار خطَّاباً قادِماً نحوها حتى استعدَّت له ثم بادرتهُ بالضرب، و كانوا كُلَّما ازدادت شِدَّتُهم في ضربه ازدادَ هو صبراً و ثباتاً، و لم يزَل الطرفان كذلك حتى انتهت المعمعة! و قد علَّق صاحِبُ خطَّاب الذي رفض النزول و المواجهة قائلا: «لَمْ أُصدِّقْ مَا رَأَيْتُ؛ كان فِعلاً بَطَلاً، و خَرَجَ مِنْ هَذا القِتالِ وَ قَدْ أَثْخَنُوهُ و أَثْخنَهُمْ، رغْمَ

(٤) صحيح البخاري (٢٤٤٣، ٦٩٥٢).

توحُّدِه و انفِرَادِه»! و حدث أيضاً داخل الفصل الدراسي الذي يدرس تحتَه خطَّاب بنفس الشركة أنْ حصل نِزاعٌ بين طالِب سُنِّي و آخر شيعي، فاستغاث الشِّيعيُّ بأصحابِه مِن الشيعة الذين كانوا مِن الكثرة بمكان، و قد أدخلَهم الـحُرَّاسُ الذين كان بعضُهم مِن الشيعة أيضا، فاجتمعَ منهم أكثر مِن ٢٠٠ شيعي، بينما كان أصحابُ الشاب السُّني في قِّلَة قليلة جداً حتى خشوا الغلَبَة و الهزيمة، و هنا سمِع الجميعُ صوتًا عاليًا صدر مِن الخلف عن شاب يقول: «لَا تَدَعُوهُمْ! وَ اللهِ لَنْ أترُكَهُمْ أبَداً»، فلما التفتوا إلى الخلف إذا ذلك الشاب هو سيف الإسلام خطَّاب الذي استعدَّ للعراك! فما هي إلا لحظات حتى التحمَ الطَّرفان، و حَمِيَ وطيسُ الـمعمعة الصغيرة، و إذا كُنا لا نعلم نهايتها فإنَّ الذي نعلمُه يقينا هو أنَّ اسمَ خطَّاب ذاع صيتُه بعدها و اشتهر، و هابَهُ الناسُ و رهبُوهُ على صِغَر سِنِّه، فسُبحان مَن رزق هذا الفتى كُرهَ الظُّلم نُصرة الـمظلومين و الشِّدة في الحق.

و مِن جهة أخرى كان خطَّاب يتمتَّع بروح الأخُوة و التضامُن مع إخوانه في الدين و لو كان مِن أقاصي الـمعمورة، فهو يُدرك أنَّ عقيدة الإسلام السماوية تعلو على كُلِّ الروابِط الوضعية الأرضية مِن قَبَلية و جنسية و قومية و إقليمية و غيرها، و الـمسلم الذي يسكُن في أقصى الأرض أقرب إلى قلب الـمرء مِن الكافِر و لو كان جاراً له، و قد تمسَّك خطَّاب بهذه العقيدة و جسَّدها على أرض الواقِع خلال مسيرته الجِهادية في أفغانستان و طاجيكستان و الشيشان، و اعتبرَ الـمسلمين هنالِك إخواناً له في الدين و لو اختلفَ معهم في الـمنهج أو في جانِب مِن العقيدة؛ لهم ما له و عليهم ما عليه، و هم الذين لم يكونوا عَرباً مثلَه، و إنما كانوا أعاجِم! بل و نجدُه قد تعلَّم اللغة الإنجليزية و الروسية و البشتوية، و هذه الأخيرة هي التي كان يتكلَّم بها الـمُجاهِدون الأفغان، أما الروسية فقد كان كثيرٌ مِن أهل الشيشان يتحدَّثون بها بشكل رسمي، و لا شكَّ في

أنَّ مقصودَه و غايتَه مِن إتقانَه لذينك اللغتين هو كسرُ حاجِز الاختلاف اللغوي بينه و بين إخوانه أولئك، خصوصاً القادة و الأمراء مِنهم، فيسهُل للجميع فَهمُ بعضِهم البعض دون عوائق.. و مِن المواقِف الجميلة التي تُثبِتُ لنا ما وصفنا به سيفَ الإسلام مِن الروح الأخوية و التَّضامُن مع أهل المِلَّة ما ذكرهُ أخوه منصور؛ أنَّ خطَّاباً -و هو في فترة فُتوته- انطلقَ يوما بسيَّارتِه، و في الطريق الذي يُجانبه المطارَ شاهدَ رجلاً مُسلِمًا سودانيًّا يرفع يديه طلباً للمساعدة، فأوقفَ خطَّاب السيَّارةَ و نزل منها مُتَّجِهاً صوب الرجل، و تبيَّن له أنَّ للرجل سيَّارةً أصابها عُطلٌ تزامُناً مع سفره الوشيك على الطائرة بعدها بقليل، و هنا قال له خطَّاب: «دَعْ سيَّارَتَك وَ سَافِرْ، وَ أَنَا سَأَسْحَبُهَا»، فوافق الرَّجل رغم خوفِه على سيَّارته لكونه يجهلُ حالَ خطَّاب، و ليس بينهما سابِقُ معرفة قَط، و بعد أن سافرَ الرَّجل راح خطَّاب يسحب سيَّارته المُعطَّلة، ثم اقترض مالاً و أصلحها مِن دون أن يعلم أحد البتة، فلما حَضَر الرَّجل السوداني مجدَّداً تفاجأ باستصلاح سيَّارته فِعلاً، ثم تفاجأ مرَّة أخرى لمَّا رفض خطَّاب المالَ الذي أصرَّ الأول على أن يدفعه له، و قال له خطَّاب صائحاً: «نَحْنُ لا نُرِيدُ المَالَ!»، فغادَر الرَّجل و وجهُهُ يتهلَّل فرحاً و سُروراً! و إنَّ ذلك -وايمُ الله- لموقِفٌ عظيمٌ ينِمُّ عن أمانة خطَّاب مِن جهة، و عن ثِقة الرجل السُّوداني بخطَّاب رغم أنه لم تكُن له معرفةٌ سابقة به مِن جهة أخرى، فتأمَّل هذا يا رعاك الله! و قد قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَ مَنْ فرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُربَةً فرَّجَ اللهُ عَنْهُ كُربَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ»(٥).

وقد كان خطَّاب جوادًا سخياً مِعطاءً لا يستأثِر بشيءٍ أبدا، بل هو دائم الإنفاق و البذل حتى عُرِف بين أسرته و أصحابِه بـ(صاحِب الجيب الخالي)، فكان أخوه ماهِر

(٥) صحيح البخاري (٢٤٤٢)، صحيح مسلم (٢٥٨٠).

يحرِصُ على أن لا يُعطيه شيئاً لأنَّه كان يبذُلُه على الفور و لا يحتفِظ به لنفسه.. يقول عنه ماهِر: «عَاهَدْتُ نَفْسِي أنْ لا أعْطِيهِ شَيْئاً لأنَّنَا لَوْ أعْطَينَاهُ سيُنفِقُها على النَّاسِ كَرَماً، وَ لَكِنَّ اللهَ أعطاهُ أسلوباً في الإقناعِ فيأتِيني فيُكَلِّمُني قليلاً حتَّى يأخُذَ مَا لدَيَّ، فإذا خَرَجَ صِحتُ: لقد سَحَرَنِي و أخذَ مَالِي! لَقَدْ كانَ خطَّابُ صَاحِبَ كَلِماتٍ حُلْوةٍ و عَذْبةٍ فلم نسْتَطِعْ أنْ نَرُدَّ له طَلَباً»، و هذا وحدَه كافٍ كي يُحبَّ الناسُ خطَّاباً الحُبَّ الجمَّ.

هذا؛ و إنَّ قولَ ماهِر عن أخيه الأصغر: «لَكِنَّ اللهَ أعطاهُ أسلوباً في الإقناعِ» يُفسِّرُ لنا نجاح خطَّاب في مهمَّته الدعوية خلال مسيرتِه الجِهادية التي سنتعرَّف عليها لاحِقا، حيث سرعان ما يقتنِع الناسُ في بلاد الأفغان و الشيشان و غيرها بآرائه و أُطروحاتِه، و يلتزمونَ أوامِرَه بحذافيرها، و نحن نعلم أنَّ القُدرة على الإقناع خاصية فريدة لا يحوزُها إلا القليلُ مِن الدُّعاة، بل هي سِلاحٌ مُهِمٌّ قد يحلُّ مَحلَّ السِّلاح القِتالي في بعض الأحايين، و قد قال أحدُ أصحابِ خطَّاب المجاهدين: «لَوْ قَالَ خَطَّابُ عَنْ كَأْسِ اللَّبنِ إنَّه ماءٌ لصَدَّقتُه!».

و مِن جوانِب شخصية خطَّاب حِسُّه الفُكاهي و مُزاحُه مع إخوانِه وزملائه كصورةٍ مِن صور تواضُعِه، و هذا ما لا نجدُ له أثراً في سِيَر كثيرٍ مِن قادة الحرب غير المسلمين الذين كان التَّعامُل عندهم مع مَن دونهم مِن الجنود و غيرِهم محصوراً بين القسوة و التكبُّر و الاستعلاء، أما بطلُنا المتواضِع خطَّاب فقد كان بالعكس مِن ذلك، و مما يُروى في ذلك أنَّه كان يطلبُ مِن أحد زملائه المجاهدين قائلا: «خُذْ هَذَا الشَّيْءَ الوَاقِعَ عَلَى الأرضِ»، فإذا أنزلَ رأسَه صبَّ عليه الشامبو! فكان يُخيَّل لأصحابه أنَّ شخصَه مُغايرٌ تماما لشخصِ ذلك الذي يقف في ميدان القِتال و يقوم بتصفية الجنود الروس و قتْلهم بكلِّ برودة دم! و هذا الذي نذكُرُه هو مِصداقُ قول الله

تعالى واصِفاً صحابة نبيِّه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:29]، قال الحافِظ العلامة ابن كثير في تفسيره: «وَ هَذِهِ صِفَةُ المؤمِنِينَ؛ أَنْ يَكُونَ أحدُهُم شَديدًا عَنيفًا على الكُفَّار، رَحيمًا برًّا بالأخيار، غَضوبًا عبُوسًا في وجه الكافِرِ، ضَحُوكًا بشُوشًا في وجهِ أخيهِ المُؤمِنِ»، و قال في موضِع آخَر: «إنَّ المُؤمِنَ الكامِلَ هُوَ الَّذي يَكُونُ رَفيقاً لأخِيهِ المؤمِنِ، غَليظاً على عَدوِّهِ الكَافِرِ».

و فوق كُلِّ ما سبق؛ كان سيفُ الإسلام رجلاً مؤمِنًا خشوعًا يتأثَّر بالقرآن و الحديث النبوي أعظم تأثُّر، و يضعهما موضعَ التقديس و التعظيم و الإجلال كما ينبغي، و يعمل بمقتضاهُما ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فكان عامِلاً بما يعلم رحمه الله، يضيق به ضميرُه إن أخطأ في جنب الله تعالى أو في مَن دونه مِن عِباده المؤمنين، نحسبُه كذلك و لا نُزكيه على الله، و لأجل هذا فلا غرابَة في أن يهابَه الأعداء و يخشونَه، و يُحبَّه الأصدقاء و يُوقِّرونه، و تظهر عليه تلك الهيبة العظيمة التي يستشعِرُها كلُّ مَن يقرأ سيرتَه، ناهيك عمَّن يُجالسه و يجتمع به، ناهيك عمَّن يُعاديه و يُقاتلُه! .. و إننا نجدُه في مقاطعه المرئية التي حرِص -رحمه الله و قدَّس روحَه- على تسجيلها دائم الذِّكر لله تعالى؛ شُكرًا و حمدًا، توكُّلاً و استعانةً، استعاذةً و تسليمًا، فلا تكاد تخلو عبارةٌ مِن كلامه مِن ذِكر اسم الله تعالى فيها، و هذا عينُ التوحيد و الاعتقاد الصحيح.

كذلك كان خطَّاب ذا بِضاعةٍ علمية شرعية لا بأس بها استطاع اكتسابها خلال مسيرته الجِهادية، خصوصا في بلاد الشيشان التي قضى فيها سبعَ سنين مُحارِباً و قائداً و مُعلِّماً و مُربِّياً، و كان حريصاً على العمل بما يتعلَّم و تجسيده فوق الميدان على أصحِّ سبيل دون إفراط و لا تفريط، و بلا غلوٍّ و لا تقصير، و هو الذي كان يُدرِكُ جيدا -قبل غيرِه- أنَّ واقِع المسلمين في هذا العصر يشهد لأول مرة فصلاً عظيماً

للإسلام عن الحياة السياسية و العسكرية و الاقتصادية و الثقافية في أكثر دول الأمة، فكان رحمه الله حريصاً على الوصل بين الشريعة و كافة شؤون الحياة.. على أنَّ ذلك لا يعني أنَّ الرجل كان يجتهد و ينفردُ بالتطبيق حسب فهمه، و إنما كان دائم الاستشارة بعلماء الأمة في بلاد الحرمين و الرجوع إليهم؛ على غِرار الشيخ الفقيه حمَّود العقلا بالدرجة الأعلى، و الشيخين العلَّامتين ابن عثيمين و ابن باز و سِواهم بدرجة أدنى، و أثناء مُكوثه في الشيشان كان و أصحابُه قد جعلوا لهم الشيخَ (أبا عمر السَّيف الخالِدي) مُفتيًا شرعيًّا لا يتجاوَزونَه أبدًا، و كلُّ ما سبَقَ هو مِصداقُ قول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

و غيرها الكثير مِن جوانب شخصية سيف الإسلام التي سنرى بعضَها الآخر لاحِقاً مع توالي الموضوعات بإذن الله تعالى.

إنَّ القائد خطَّاب الذي دكَّ قِلاع الروس و أقضَّ مضاجِعَ قُوادِهِم، هو نفسُه خطَّاب الذي انهار باكِياً كالطِّفل حتى كاد أن يُغمى عليه حينما تسبَّب مِن غير قصدٍ في موت قِطة كانت محشورة داخل محرِّك سيارته، فشغَّله فماتت بعد أن تناثرت أشلاؤها!.. و خطَّاب الذي كان يُضرب به المثل في النِّكاية بالمقاتلين الروس و القسوة عليهم، هو نفسه خطّاب الذي كان يُمازِح إخوانَه المجاهدين، و ينبسط معهم، و تنفرجُ أساريرُه إثر نوادِرهم و طرائفهم.. و خطَّاب الذي عُرِف عنه الجَلَد و رباطة الجأش و البسالة و الصَّبر على المكارِه و الثبات في المواقف العسيرة، هو نفسه خطَّاب الذي ذرفت عيناه الدمعَ لـمَّا اتَّصلت به والدتُه و سمع صوتها بعد سنين طويلة مِن افتراقه عنها!

فما أشبهكَ أيُّها القائد خطَّاب بالرَّاشِد ابنِ الخطَّاب الذي كان مزيجاً بين الغِلظة و الرِقة، و بين الصلابة و اللين، و بين الحزم و التسامُح! و ما أصدقَ تشبُّهَك به في الصفات و الجوهر قبل الاسم و المظهر!

قال الشاعر:

فَتشبَّهُوا إنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إنَّ التَّشَبُّهَ بِالكِرامِ فَلَاحُ

الجهاد الأفغاني

إنَّه لَينبغي لنا -قبل الحديث عن مسيرة خطَّاب في بلاد الأفغان- أن نعقب على قصَّة الجهاد الأفغاني[٦] الـمُعاصِر مِن أوَّلها؛ ذاك أنَّ أفضل سبيل لفهم قضية ما هو التعرُّفُ على أوَّل ابتدائها، فالطبيب لا يُمكنه معالجة الـمريضِ و القضاء على الدَّاء الذي أصابَه إلا إذا عرف تاريخ هذا الداء و مراحل تطوُّرِه و سبب إصابة الـمريض به، و الكيميائي لابُدَّ له إنْ أراد مُعاينة مادَّة ما أنْ يدرس تاريـخها و تحوُّلـها مِن حال إلى آخر، و عالِـم الاجتمـاع لن يستطيعَ دراسة مشكلات مجتمعٍ ما إلا بالعودة إلى جذوره و التعرُّف على مصدر مشكلاته تلك.

و نحن هنا سنُحاول جاهدين التعرُّف على قصة الجهاد الأفغاني الـمشهور الطويل بإيجاز و اختصار قدر الإمكان، و هي القصة التي اختلط فيها الحابِل بالنابل، و الحق بالباطِل في هذه السِّنين الخدَّاعات!

ففي عام ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م تـملَّكَ شابٌّ اسمُه محمد ظاهر شاه بلادَ أفغانستان و لم يكُن قد تجاوز ساعتئذٍ عامَه التاسع عشر، و كان مقبولاً لدى عامة الشعب، مُـحبَّبًا إليهم، إلا أنَّه كان هنالك اتِّصالٌ بينه و بين كِبار مسؤولي الولايات المتحدة الأمريكية، و ما هي إلا بضعة عقود مِن السنين حتى أقنعه أولئك الشياطين الأمريكان بضرورة

---

(٦) قال العلامة الفقيه ابن عثيمين رحمه الله بعد قيام الغزو السوفييتي لأفغانستان: «إنَّ الـجِهادَ في أفغانِسْتانِ يُعتبَرُ مِن الـجِهَادِ في سَبِيلِ الله، فَـمَنْ جَاهَدَ فِيهِ فَقَدْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله، وَ مَن بَذَلَ الـمَـالَ فِيهِ فقَدْ بَذَلَهُ فِي سَبِيلِ الله.. وَ أمَّا مَنْ زَعَمَ أنَّه لَيْسَ جِهَادًا إسْلامِيًّا فَلْيَتَحَمَّلْ هَذِهِ الدَّعْوى وَ هَذَهِ الفِرْيَةَ، أخشَى أنْ يَكُونَ مِـمَّنْ صَدَّ عَنْ سَبِيلِ الله!». مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٢٨،٣٢٩). و يُـنظر ضرورةً: (٢٥/ ٣٣١).

عمل ثورةٍ ثقافية شامِلة في بلاده للتخلُّص مِما سمَّوه (بقايا العهود الظلامية) التي مرَّ بها الأفغان، مع إجراء إصلاحات عديدة أغلبُها يخُصُّ الاقتصاد؛ و الحقُّ أنَّ تلك الثورة الثقافية ليست سوى ثورة علمانية يُراد بها مِن الشعب الأفغاني أن ينسلخ عن دينه و هويته و ثقافته الإسلامية، و بقايا العهود الظلامية تلك ليست سِوى مظاهِر الثقافة الإسلامية المنبثقة مِن صميم الدين الإسلامي!.. و قد نزل محمد ظاهر -فِعلا- تحت مطالبات الأمريكان له بالإقدام على تلك الثورة مطلع خمسينيات القرن العشرين الميلادي، و مِن أسوأ المواقِف التي سُجِّلت عنه في ذلك أنَّه عقد يوماً مؤتمرًا شعبيًّا، و حمل بيدَيْه حجابَ امرأة مسلمة و داسَ عليه بقدمه، و قال بلغة حماسية متكلفة: «الآنْ انْتَهَى عَهْدُ الظَّلَامِ إلَى الأبَدِ!».. فيا لِسفاهته!

ثم جعل الملكُ محمد ظاهر ابنَ عمِّه محمد داود على رأس رئاسة الحكومة سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م، و أضيفَت إليه وزارتا الدفاع و الخارجية، و محمد داود هذا رجلٌ علمانيٌّ له ميولٌ نحو الشيوعية بحكم علاقته الوطيدة بكثيرٍ مِن رموز ذلك المذهب الكُفري في أفغانستان؛ مثل نور محمد تراقي، و حفيظ الله أمين، و بابراك كارمل، مع أنَّ شيوعيته أضعفُ و أليَنُ مِن شيوعية هؤلاء، هذا أوَّلا، و ثانيا فإنَّ رفْضَ الولايات المتحدة الأمريكية تقديم مساعدات عسكرية و اقتصادية لمحمد داود إذ طلبَها، و اشتراطَها انضمام أفغانستان للمعسكر الغربي الرأسمالي الذي كان يتزعَّمُه الأمريكان؛ دفَعَا محمد داود إلى أن يتَّجه نحو الاتحاد السوفييتي زعيم المعسكر الشرقي الاشتراكي الذي قبِلَ طلبَه على الفور، فنجح السوفييت في استمالته إليهم!.. و قد استمرَّ داود على رأس الحكومة عقدًا كامِلاً، و لكن مِن أهم ما يهُمُّنا عنه هنا هو أنَّ الحركة الإسلامية في البلاد قد جوبِهَت مِن قِبَله، و انحسرت في عهده انحسارًا كبيرًا، و في مُقابل ذلك لقِيت الحركة الشيوعية دعمًا و تأييدًا واسِعَيْن مِن الاتحاد

السوفييتي، خصوصا بعد نشأة حزب الشعب الديمقراطي الشيوعي سنة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م برئاسة محمد تراقي و عضوية كارمل و حفيظ الله أمين و غيرهما، ثم انقسم هذا الحزب سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م إثر حدوث صراع بين أعضائه إلى قسمين: حزب الشعب (خَلْق)، و حزب الراية (بِرْشام).. و قد كان لابُدَّ أن يقع الصِّدام بين الاتجاهين الإسلامي و الشيوعي!

فما الذي حصل؟!

الذي حصل باختصار هو أنَّ مجموعة مِن الطلاب و الأساتذة الإسلاميين كوَّنوا جمعيةً لهم سمَّوها (جمعية الشباب المسلم)، و كان هذا عام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، و هي حزبٌ سياسيٌّ و دعويٌّ في آنٍ واحد، ثم تغيَّر الاسم بعد ذلك ليكون (الجمعية الإسلامية)، ثم انتهى إلى أن يكون (الحزب الإسلامي). و أما عن أبرز أعضاء ذلك الحزب فنجدُ غلام محمد نيازي؛ و كان أستاذا في كلية الشريعة بجامعة كابل ابتداءً مِن سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ثم عميدًا لها منذ عام ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، و ربما يصِحُّ لنا أن نُلقِّبه بـ(أبو الحركة الإسلامية الأفغانية) حيث كان له الفضل -بعد الله- في إنشاء جيلٍ مِن الأساتذة و الطلبة المسلمين على وعيٍّ كبير بخطورة الفِكر الشيوعي الدَّاهِم، و على استعداد تام لِتصدِّيه و مواجهتِه. و كذلك نجدُ برهانَ الدين رباني، عبد رب الرسول سيَّاف، و قلب الدين حكمتيار؛ و هم أشهر الطلبة الذين اتصل بهم البروفيسور محمد نيازي و كوَّن منهم جماعتَه و حزبَه.

و المهمُّ هو أنَّ أعضاء ذلك الحزب الإسلامي اختاروا برهان الدين ربَّاني رئيسا له، و قصدوا بذلك إخفاء غلام محمد نيازي عن الأضواء كي تكون له إدارة شؤون الحزب مِن وراء الستار، و ما كان برهان الدين -على التحقيق- إلا واجِهةً له.. و لكن حدث في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م حادِثٌ خطيرٌ غيَّر مجرى الواقِع في أفغانستان؛ ذاك أنَّه

بعد تجدُّد استلام محمد داود مقاليد الحكم سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م إثر الإطاحة بابن عمِّه الـملك محمد ظاهر شاه و قَتْله بالتعاون مع الروس السوفييت، لم يكُن سالفو الذِّكر هؤلاء راضينَ عن سياسته تجاه التيار الإسلامي الصاعِد الذي توجَّسوا منه خوفًا و رُعبًا، و رأوا في فشله في القضاء على ذلك التيار و سحقِه دافِعا للانقلاب عليه و الإطاحة به، فهنا أعدُّوا العُـدَّة للقيام بذلك عبر أحد عملائهم الكُثُر في أفغانستان سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٨م، و لكن قبل أن نواصل السرد وجب الإشارة إلى أنَّ قوة الإسلاميين خلال فترة حُكم محمد داود الثانية كانت تتنامى يوما بعد يوم، حتى أنَّهم حاولوا الانقلاب على داود غير ما مرة بقيادة حكمتيار دون أن يُفلحوا في ذلك، و أمرُ التخطيط للانقلاب فقط يكفي كي يُبيِّن لنا حجم قوة الإسلاميين أولئك!.. الـمهم بعدها أنَّ الروس رأوا حتمية تنفيذ ما خطَّطوا له، فاتَّصلوا بعميلهم الشيوعي محمد تراقي الذي كان مستشارا لـمحمد داود، و أشاروا إليهم بضرورة أن يقود الانقلاب عليه، فحصل ذلك فعلا في شهر آفريل ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٨م و تم قتل محمد داود و جميعَ أفراد أسرته، بل و سقط مِن المسلمين الأبرياء نتيجة ذلك الانقلاب في يوم واحد ما يربو عن ١٥،٠٠٠ مسلم، فإنا لله و إنا إليه راجِعون.. ثم أصدر تراقي عِدة قوانين تتعارض مع الإسلام و مبادئه، و تتفق مع الشيوعية و مبادئها، و هنا وقف علمـاء أفغانستان وقفةَ رجلٍ واحدٍ، و أفتوا بكُفر تراقي و وجوب الجهاد لإسقاطِه، و إذا كنا نعلم ثِقَـل وزن أوامِر العلمـاء عند عموم الشعب الأفغاني الـمسلم سهُل علينا توقُّع النتيجة!

لقد وثب الأفغان وثبة الأسود حينمـا رأوا دينَهم يُـحارب و مقدَّساتهم تُنتهَك، و كان ردُّ فِعلهم عظيمًـا تجاه خطوات تراقي الشيوعي الذي واجه ذلك الرد بردٍّ عنيف و وحشي راح ضحيَّته عشرات الآلاف مِن الـمسلمين عبر أكثر محافظات البلاد؛ و

منها محافظة هرات التي شهدت وقوع مذبحةٍ رهيبةٍ يوم ١٦ ربيع الآخر ١٣٩٩هـ الـمُوافق ١٥ مارس ١٩٧٩م سقط فيها أكثر مِن ٣٥,٠٠٠ مِن الـمدنيين و العسكريين الـمؤيدين للمجاهدين، و قد وصل عدد الضحايا مِن الشعب الأفغاني في عهد الـمجرم تراقي إلى ٢٠٠,٠٠٠ شهيدٍ! نحسبهُم كذلك و اللهُ حسيبُهم.. ثم إنَّ انقلابا آخر حدث و أسقط تراقي، و هذا على يد رفيقه و صاحِبه حفيظ الله أمين، و كان هذا الأخير وزير تراقي للخارجية و الدفاع معًا، و رئيس البوليس السري الشيوعي، فتولى أمين السلطة بعد قتل تراقي، و لكن لم تكُن مدة حُكمِ أمين تصل إلى ثلاثة أشهر فقط حتى تعرَّض لِـمثل الذي تعرَّض له سلفُه تراقي، و مِن قبله محمد داود... الانقلاب!

فلقد كان الـمُنقلِب على حفيظ الله أمين هذه الـمرة هو بابراك كارمل؛ عميل السوفييت الشيوعي، و زعيم حزب الراية (برشام) و هو القسم الثاني للحزب الشيوعي، و وقع الانقلابُ مباشرةً بعد الغزو السوفييتي لأفغانستان أوائل صفر مِن عام ١٤٠٠هـ/ ديسمبر ١٩٧٩م، و رغم أنَّ أمين أدرك نوايا الروس للإطاحة به غير أنَّ تحرُّكَه كان متأخِّرًا للغاية، و تم إعدامُه و إعلان بابراك بنفسه أنه أصبح الرئيس الجديد للحزب الشيوعي الحاكِم، أي الحزب الديمقراطي.. فتأمَّلوا هذا الـمصير الـموحَّد لعملاء السوفييت الخائنين!

خريطة أفغانستان

و في ثامِن شهر صفر مِن عام ١٤٠٠هـ الـموافِق ٢٧/ ١٢/ ١٩٧٩م زحفت جيوش الاتحاد السوفييتي لغزو أفغانستان مِن جنوبه، و زعم بأنَّ مجيئه للبلاد تمَّ بدعوى مِن الحكومة الشيوعية العميلة لـمنع التدخُّل الباكستاني-الإيراني فيها، و ما هذا إلا زَعْمٌ باطِلٌ تُفنِّـدُه جرائمُ السوفييت ضد الشعب الأفغاني الـمسلم، و أما بابراك فإنَّ حُكمَه لم يدُم إلا سنوات قليلة حتى تـمَّت إقالتُه و تعيين رجل شيوعيٍّ اسمه نجيب الله مكانَه، و هو صاحِب تاريخ إجرامي أسود ضد الأبرياء.. و مباشرةً بعد الاجتياح السوفييتي للبلاد الأفغانية أُعلِنَ رسميًّا عن قيام الجهاد الأفغاني العظيم ضد السوفييت الـملاحدة، و مِن العجيب أنَّ الدُّعاة الأفغان حينما كانوا يُنادون بادئ الأمر أنْ حيَّ على الجهاد ضد الشيوعيين قبل الاجتياح السوفييتي لم يكُن يُلبِّي نداءَهم إلا النزر اليسير مِن الرجال و الشباب، فلما وقع الاجتياح تدفَّقت سيول الـمجاهدين و الـمتطوِّعين مِن داخل البلاد و خارجها دفقًا عظيمًا!

لقد كان واقِعُ الأحداث على الساحة الأفغانية بعد الغزو السوفييتي واضِحا وضوح الشمس في رابعة النَّهار؛ فهذه بلادٌ مسلمةٌ تتعرَّض لغزوٍ وحشيٍّ يقودُه ملاحدة كُفَّار يجحدون وجودَ الخالِق سبحانه و تعالى أساسًا، و هم يسعون في الأرض فسادًا، و يُحاربون الإسلام و أهلَه و شرْعَه، و أضحى الـمسلمون الأفغان في مرمى الـمدافع و الدبابات و الرشاشات السوفييتية الفتَّاكة، و الكُفار -على سبيل العموم- لا يرقُبون في مؤمن إلاًّ و لا ذِمَّةً، فما بالُك بالـملاحدة منهم!.. بل و قد تحالفت مع السوفييت ضدَّ الـمسلمين الأفغان دولٌ و كياناتٌ مِن الـمعسكر الاشتراكي الشرقي بالـمال و الرجال و العتاد، و لذلك وجب ساعتئذٍ رفعُ راية الجهاد و قتال الـملحدين

العادين و أعوانِهم، قال العلمـاء: «إنَّ الجِهَادَ لِتَحْرِيرِ أَرْضِ الإِسْلَامِ مِـمَّنْ يَغْزُوهَا وَ يَـحْتلُّها مِن أعدَاءِ الإِسْلَامِ وَاجِبٌ مُحَتَّمٌ و فَريضةٌ مُقدَّسَةٌ عَلَى أَهْلِ البِلَاد الـمَغْزُوَّة أَوَّلاً، ثُمَّ عَلَى الـمُسْلِمِينَ مِنْ حَوْلِـهِمْ إِذَا عَجَزُوا عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ حَتَّى يَشْمُلَ الـمُسْلِمِينَ كَافَّةً» (٧)، و قال الشيخ عبد العزيز الطريفي: «إِذَا دَهَمَ العَـدُوُّ بَلدًا وَجَبَ عَلَى أَهْلِهَا الدَّفعُ عَنْ حِماهُمْ؛ كُـلٌّ بِمَـا يَسْتَـطِيعُهُ» (٨)، فإذا لم يكُن بمقدور أهلُ تلك البلد صدُّ عدوان العدو العادي وجب على الـمسلمين القريبين منهم في شرقا و غربا معاونتُهم و مؤازرتُهم بالقدر الـمُستطاع؛ معاونتُهم بالأنفس و الأسلحة و الأموال في الـمقام الأول، ثم غير ذلك مِن وسائل الإعانة و الـمُؤازرة الـمشروعة.

إنَّ قصة الجهاد الأفغاني ضد الاتحاد السوفييتي لم تجد إلى الآن مَن يؤرِّخ لها تأريـخًا مفصَّلاً كامِلاً، و يُزيل الغموضَ الحاصِل حولها، و يُدوِّن الروائع التي حملتها تلك القصة بين ثناياها؛ و مِن ضمنها الكرامات الباهِرة التي حصلت للمجاهدين الأفغان في خضمِّ مقاومتهم للملاحدة، و التي وثَّق بعضَها الـمجاهدُ الكبير عبد الله عزَّام في كتابه (آيات الرحمان في جهاد الأفغان)، فكانت بمجموعها دليلاً قاطِعًا على صحة ذلك الجهاد و ربَّانيته، و أنَّ القضية الأفغانية هي مثل أخواتها الفلسطينية و الشيشانية و البوسنية و الكاشميرية و التركستانية و سِواها في وضوحُ الحق و الباطل فيها، و وُجوب نُصرتها و دعم الـمجاهدين فيها ضد قِوى الكفر و الطغيان، ذلك مع أنَّ القضية الفلسطينية كانت و لازالت هي الـمِحور دائمًا حيث أنَّ الشيخ عبد الله عزَّام لـمَّا كان يسأل الـمُجاهدين الأفغان عما وراء الجهاد في أفغانستان، و ماذا بعد

(٧) لا يجوز السكوت؛ مقال لأبي محمد سعيد مسعود هرماس، الجلفة-الجزائر، في ذي الحجة ١٤٢٧هـ، الموافق ١١ جانفي ٢٠٠٧م.

(٨) التفسير و البيان لسور القرآن، للشيخ العلامة عبد العزيز الطريفي (١/ ٥١٢).

نصركم فيها؟ كان معظمُهم يُجيبُ قائلا: «لابُدَّ مِنَ السَّيْرِ إلى قِبلتِنَا الأولَى؛ بَيْتُ الـمَقدِسِ»[٩]!.. و لعلَّ مِن أخطر الإشكاليات التي اعترضت في الـماضي -و ما زالت تعترِض- بعضَ النَّاظِرين إلى قضية الجهاد الأفغاني؛ ما كانت عليه شرائحُ واسِعة مِن الشعب الأفغاني مِن التعلُّق ببعض الـمظاهر الشركية الـمُنافية لصحيح التوحيد، و التي أظهرها كثيرٌ مِن الـمجاهدين الأفغان (و لم يكُن مِن ضمنهم قادتُـهُم؛ فهؤلاء القادَة كانوا -للأمانة- على تـمكُّنٍ مِن العلم الشرعي، و على اعتقادٍ صحيحٍ لا تشوبُه شائبةٌ)؛ مثل تعليق التمـائم على الصدور مما ليس فيه وجودٌ لآية قرآنية أو حديث نبوي أو دعاء مأثور، و إضفاء شيء مِن التقديس على الأولياء، و تعظيم قبورهم، و بناء الـمساجِد عليها أحيانًا، و هي كُلُّها مظاهر شركية منهيٌّ عنها، فكان يُقال: كيف لنا أن نُسمِّي الأفغان مجاهدين، و نصِفَ جهادَهم بالإسلامي و هم على ذلك الانحراف العقدي؟!.. و لكنَّ أكثر مَن اسودَّت رؤيتهم للجهاد الأفغاني و تساءلوا ذلك السؤال لم يتساءلوا في مقابله هذه الأسئلة:

لو أنَّنا طعنَّا في أولئك الـمجاهدين الذين يتعرَّضون لغزو سوفييتي يقودُه كُفَّارٌ ملحدون مجرمون، و شدَّدنا استنكار الانحراف العقدي الذي وقع فيه كثيرٌ منهم، أفلا يكون ذلك عونًا للكفار الـملاحدة عليهم؟!

ألا يكون ذلك إضعافًا لهم و تشتيتًا لتركيزهم و خذلانًا لهم في الوقت الذي ينتظرون فيه نُصرةً مِن إخوانهم الـمسلمين؟!

أوَليس ذلك معناه أن يُمكَّن للملاحدة الشيوعيين لنشر إلحادهم و حرق الـمسلمين الأفغان بالنار، و ارتكاب الـمجازر و الإبادات بحقِّهم؟!

(٩) ينظر: آيات الرحمان في جهاد الأفغان، للشيخ الـمجاهد عبد الله عزام، ص ١٤، الطبعة الخامسة.

أفإسلامٌ يشوبُه بعض الانحراف العقدي خيرٌ أم الكُفر الإلحادي الصارخ الذي لا يعترف بربٍّ و لا رسولٍ و لا شرعٍ سماويٍّ؟!

إنَّ النظر إلى المجاهدين الأفغان و جهادهم ضدَّ أعتى قِوى الطغيان العالمي المتمثِّل في الدُّب الروسي بتلك النظرة السوداوية الفاسدة لَأَمْرٌ يرفضُه الدين و العقل، و حاصِلُ الأمر أنَّ الانحراف العقدي للشعب الأفغاني لا يُعالَج بالطَّعن و اللمز، بل الأولى حينئذٍ أن يقف كلُّ المسلمون معهم في وجه الاحتلال السوفييتي الغاشم، فإذا رأى الأفغانُ انضمامَ إخوانهم العرب و غيرهم إليهم شعروا بروح الأخوة و ارتفعت معنوياتُهم و أدركوا أنَّهم لم يجيئوا إلا لنصرتهم و معاونتهم في سبيل الله، و مِن ثَم فإذا وجدوا منهم النُّصح و التعليم في جانب العقيدة و غيرها قبِلوا ذلك دون أن يُسيئوا الظنَّ بهم (و إن كان مِن المشهور عنهم التعصُّب لما هُم عليه)، و هذا الذي حدث بفضل الله عندما انتقل إلى بلاد الأفغان عددٌ كبيرٌ مِن العلماء و الدُّعاة و المجاهدين العرب الذين اجتهدوا في تعليم الأفغان العقيدة الصحيحة مع وقوفهم إلى جانبهم في وجه ملاحدة السوفييت الشيوعيين، و ما أصدق القائد سيف الإسلام خطَّاب حينما قال في معرض حديثه عن نصرة الشعوب المسلمة الأعجمية: «الأمةُ الإسْلَامِيَّةُ اليَوْمَ تَقَطَّعَتْ وَ مَاتتْ وَ ضَاعَ فِيهَا دِينُ اللهِ وَ الشَّرِيعَة وَ ضَاعَ فِيهَا كُلُّ شَيءٍ، ثَمَّ نَأْتِي نَحْنُ لِنَقُولَ: هَلْ هَذَا فَاهِم الدِّينَ؟ وَ هَلْ هَذَا عِنْدَه عَقِيدَة أوْ لَيْسَ عِنْدَه؟. كَيْفَ يَكُونُ عِنْدَه عَقِيدَة؟ و مِن أينَ لِهَؤُلاءِ النَّاسِ عَقِيدَةُ وَ نَحْنُ تَرَكْنَاهُم أكثرَ مِن ٢٠٠ أو ٣٠٠ سَنَةِ وَ انْطَحَنُوا تَحْتَ الشُّيُوعِية ٧٠ سَنَة؟ أيُّ عَقِيدَةٍ نَسْأَلُ عَنْها نَحْنُ هُنَا؟. فَلَوْ قُلنَا: هُؤُلاءِ لَيْسَ عِنْدَهُم عَقِيدةٌ وَ هَؤُلاءِ صُوفِيَّةٌ؛ فَنحْنُ الظَّالِمُونَ في هَذا الأمرِ، نَحْنُ هنا نَعِيشُ وَ نأكُلُ و نَشْربُ ثم نَأْتي وَ نُطالِبُ هَؤُلاءِ النَّاسِ بالعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ وَ بِفَهْمِ الشَّرِيعَة و دِينِ الله! لا يُمكِن هَذا.. الظُّلمُ و

اللَّومُ عَلَيْنا نَحْنُ؛ نَحْنُ أبنَاءُ التَّوْحِيد و دِينِ الله ﷻ، نَحْنُ مِـمَّن نَفْهَمُ دِينَ الله في الجزِيرَةِ و في العَالَـمِ الإسْلامِي و العَرَبِـي، نَحْنُ الَّذِينَ يَـجِبُ عَلَيْنا تَبلِيغُ الرِّسَالةِ و الدَّعْوَة بأن نُشَارِكَ النَّاسَ هُمومَهُم وَ نَخُوضَ مَعَهُم وَ نَعِيشَ مَعَهُم حَتَّى نُعالِجَ هَذِهِ الأُمُورَ».

و مهمـا يكُن مِن أمر؛ فقد دخل السوفييت أفغانستان غازين مُعتدين أواخر العقد السابع مِن القرن النصراني العشرين، و قتلوا و هجَّروا في سنوات غزوِهِم الأولى مِن أهل الإسلام مئاتَ الألوف؛ شيبًا و شبابًا، نساءً و أطفالا، شيوخا و عجائزَ، بل حتى البهائم لم تسلم مِن إرهاب الروس و وحشيتهم، و لكنَّ راية الجهاد قد علت و ارتفعت، و شهِد عددُ الـمُجاهدين في السنوات الأولى مِن الغزو السوفييتي ازديادًا كبيرًا رغم كثرة القتلى مِن الشعب الأفغاني و الـمُهَجَّرين إلى دول الجوار بسبب وطأة الحرب، حتى زاد عددُ أولئك الـمُهجَّرين إلى عام ١٩٨٢م فقط عن ثلاثة ملايين إنسان!.. و إنَّ مِن الأمور التي ساهمت في ترجيح كفة ميزان القوة لصالح الـمجاهدين الأفغان تركُ الكثيرين مِن رجالات الحكومة الشيوعية الأفغانية العمل معها و انضمـامهم لكتائب المجاهدين، و قد كانوا جنودًا و ضُبَّاطاً و قادةً عسكريين! و لقد فوجئت أممُ العالم أجمع -و على رأسها الاتحاد السوفييتي- بالإحصائيات التي أعلن عنها معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن سنة ١٩٨٦م حول الحرب الأفغانية-السوفييتية في السنوات الخمس الأولى منها، و أكَّد ذلك الـمعهد مقتل ٢٥,٠٠٠ جندي سوفييتي خلال تلك السنوات فقط.. بل إنَّ الخسائر الـمـالية اليومية للسوفييت في أفغانستان بلغت ٢٥٠ مليون دولار، إضافةً إلى ١٠٠ مليون أخرى مساعدةً لحكومتهم العميلة، و هذا عدا الخسائر الكبيرة في الطائرات و الدبابات و مختلف أنواع العتاد العسكري!

و بالنسبة للمجاهدين الأفغان، مقاتلين و دُعاةً و عاملين نشِطين؛ فإنَّ مِن أهم مَن برزوا على ساحة الجهاد الأفغاني في مطلع الثمانينات:

عبد رب الرسول سيَّاف، قلب الدين حكمت يار، برهان الدين ربَّاني، القاضي محمد أمين، جلال الدين حقاني، نصر الله منصور، حبيب الرحمان المهندس،جيلاني عزيز الله، حبيب خان شاتول، عبد الرب خان، عزيز الله لودين، محمد صديق سلجوقي، ذبيح الله، محمد ياسر، جميل الرحمان، و غيرهم الكثير.. و لم يكُن كلُّهم ضمن حِزبٍ واحدٍ، بل العجيب أنَّهم كانوا مِن عِدة أحزاب و تكتُّلات إسلامية و وطنية مختلفةُ المشارِب، و منها: الحزب الإسلامي، الاتحاد الإسلامي لتحرير أفغانستان، حركة الثورة الإسلامية، جبهة التحرير الوطنية الإسلامية لأفغانستان، الكتلة الوطنية. و الأعجب أنَّ الجهادَ ضد الملاحدة الشيوعيين هو الذي وحَّد صفوفَهم، و لـمَّ شملَهم، و جمع شتاتَهم، و جعلهم فريقًا واحِدًا يُقدِّم الشَّرع الإسلامي على كلِّ رأي، و يُحكِّمه في كلِّ شيء تقريبًا، و يُجسِّد مبدأ الشورى أتمَّ تجسيد، و كُلُّ مَن كان كذلك وعدهُ الله تعالى بأن ينصره على أعدائه و يُمكِّن له في الأرض حسبَ مبلغِ اجتهادِه و عملِه.

هذا، و قد شهِدت كثيرٌ مِن دول الإسلام -العربية منها و الأعجمية- حالة استنفار لنجدة المجاهدين في أفغانستان و دعمهم إما بالرجال، و إما بالأموال، و إما بهما معًا، على تفاوُتٍ بينها في حجم ذلك الدعم، و لكنَّنا الآن سنُركِّز حديثَنا على دولة واحِدة فقط مِن تلك الدول، و هي السعودية التي خرج منها بطلُنا المجاهد سيف الإسلام خطَّاب!

فبعد وقوع الغزو السوفييتي لأفغانستان سنة ١٤٠٠هـ سنوات قليلة أعلن الملكُ السعودي فهد بن عبد العزيز -سامحه الله- دعمَه لحركة الجهاد في تلك البلاد، و مِن

صور ذلك الدعم تقديم ٨٠٠ مليون دولار لباكستان تعزيزا لدورها في مناصرة الـمُجاهدين الأفغان، و منها زيادةُ ريال سعودي واحِد على سِعر تذاكر كل مباراة مِن مباريات كرة القدم داخل البلاد، و مِنها فـتْـحُ بابَ التطوُّع أمام الشباب الـمسلم السعودي للذهاب إليها و الانضمـام للمجاهدين الأفغان، و منها قيام الخطوط الجوية السعودية بإعلان خصم قدرُهُ ٧٥% تسهيلا لعملية انتقال الـمجاهدين الـمتطوِّعين، بل و كان أمير الرياض الشاب يومئذ سلمـان بن عبد العزيز -و هو ملك السعودية إلى حين كتابة هذه السطور- يترأَّسُ هيئة جمع التبرعات و استقبالها بالرياض قبل توجيهِها لأفغانستان.. و على الصَّعيد الشرعي فإنَّ كِبار علمـاء بلاد الحرمَيْن يومئذ على غِرار العلامة الفقيه ابن عثيمين و العلامة ابن باز -رحمهُمَـا اللهُ تعالى- أفتَـوْا بصِحة الجهاد الأفغاني و تأييد الـمشاركة فيه؛ و قد قال ابنُ باز ما نصُّـهُ:

«الجِهادُ في الأفغَانِ مِنْ أفضلِ الجِهادِ، و هُوَ جِهادٌ شَرعيٌّ، جِهادٌ في سَبيل الله، جِهادٌ لأخبث دولةٍ و أكْـفَرِ دولةٍ و هي الدولةُ الشيوعيةُ، فينبغي للمسلمين أن يدعموا هذا الجِهاد و أن يُساعِدوا الـمُجاهِدين بالنفس و الـمـال، ولاسيَّمـا الدول الإسلامية و الأغنياء و الأثرياء، يجب أن يدعموا هذا الجِهادَ و أن يُساعدوا الـمجاهدين، و يجبُ على مَن تيسَّر له أن يُجاهد بنفسه، أنْ يُشارك في هذا الخير العظيم؛ لأنَّه عملٌ صالِحٌ و جِهادٌ لأخبثِ دولةٍ و أكفرِ دولةٍ، و فيه حمايةٌ لبلاد المسلمين و صيانةٌ لبلاد المسلمين و مساعدةٌ للمظلومين و الـمنكوبين مِن إخواننا الأفغان الـمجاهِدين و الـمُهاجِرين منهم».اهـ

و لكن.. إذا كان مِن حقِّ الأجيال اللاحقة علينا أن نُقدِّم لها الحقائق كامِلةً كمـا هي دون أدنى تزييف أو تزوير مِن منطلق الأمانة العلمية و التاريخية؛ فإنَّ ذلك يدفعنا للقول بأنَّ سياسة الدولة السعودية لدعم الـمجاهدين الأفغان في حربهم ضد

الشيوعيين -بِغضِّ النظر عن كونها صائبةً مِن الناحية الشرعية و لا شك- كانت -قبل ذلك- بإيعازٍ و توجيهٍ مِن الولايات المتحدة الأمريكية يومئذٍ، و هي التي كانت -و لا زالت إلى حين كتابة هذه السُّطور- تؤثِّر في السياسات السُّعودية تأثيرًا خطيرًا، و إذا كُنَّا نُدرك ما كان بين السوفييت و الأمريكان مِن العداوة الشديدة و الصِّراع المحتدم منذ نهاية الحرب العامة الثانية، اتَّضحَ لنا موقِفُ أمريكا مِن الحرب الأفغانية و تأييدها للمُجاهدين ضد السوفييت؛ لا حُبًّا في الجهاد و المجاهدين طبعًا، و لكن لأنَّ ذلك يُساهِم في تقويض أركان عدوها السوفييتي و إضعافه و إنهاكِه، و مِن ثم انهيارِه و زوالِه، و بالتالي تنفردُ أمريكا بالزعامة السياسية و العسكرية و الاقتصادية عالميًّا، و هذا هو الذي حصل بعدئذٍ بالفعل!.. و إذا كان ذلك الدَّعم قد حصل عن طريق فتح الأمريكان أراضيها أمام بعض المجاهدين المتطوِّعين و البسطاء لتدريبهم، و شيدَّت مِن أجل ذلك معسكرات عِدة على غِرار معسكر بروكلن Broklyn؛ فإنَّ دعمها للمُجاهدين بالسِّلاح لم يكُن بالمجَّان كما يظُن أكثرُ النَّاس، بل كان الأمريكان يقبِضون ثمن كُلِّ سِلاح يتوجَّه إلى أفغانستان كما يذكُر الشيخ عبد الله عزَّام! و هنا ينكشِفُ زَعْمُ الزَّاعِمين بأنَّ الدعم الأمريكي كان هو السبب الرئيس في انتصار المجاهدين الأفغان على السوفييت؛ فهذا زَعْمٌ باطِلٌ يُضَخَّم فيه دورُ أمريكا و يُقَزَّم فيه دورُ المجاهدين، الأفغان منهم و العرب، و الحقيقة الناصِعة التي لا مرية فيها أنَّ الدعم الأمريكي لأولئك المجاهدين لا يعدو أن يكون تعزيزًا طفيفًا جِدًّا لتفوُّقهم الرباني على السوفييت منذ بداية الغزو، خصوصًا و أنَّه -أي ذلك الدَّعم- لم يحصُل إلا ابتداءً مِن سنة ١٩٨٥م، أي بعد قيام الصراع الأفغاني-السوفييتي بأكثر مِن أربع سنوات، ثم لو قُدِّر أنَّ أمريكا لم تُقدِم على أي خطوة قط تجاه ذلك الصراع لم

يكُن ذلك ليُغيِّر مِن واقع الأمر الشيءَ الكثير، و لكنَّه التزوير الذي دائما ما يشوبُ صفحات التاريخ! و الله تعالى أعلم.

المحطة الأفغانية

كان سيفُ الإسلام خطاب -رحمه الله- يبلُغ مِن العُمُر عشرة أعوامٍ و بِضعة أشهرٍ شمسية لـمَّـا اجتاح الشيوعيون أرضَ أفغانستان، أي عند تخرُّجِـه مِن الصف الرابع الابتدائي سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ولا ريب في أنَّ أخبار ذلك الاجتياح كانت تبلُغ مسامِع هذا الفتى، و أنَّه كان يتأثَّر بها و بأخبار الـمُجاهدين، و يعجبُ مِن قصص صمودِهم في وجه الدبابة السوفييتية و مقاومتهم الصلبة لوحشية الروس الـملاحدة، فلعلَّ ذلك أوَّلُ ما ولَّد في مكامِن نفس هذا الفتى حُبَّ الـجِهاد، و خطَّ على سويداء قلبه الـميلَ إلى تجسيد دور البطولة ضد الأعداء و الدفاع عن الدِّين و العِرض و الـحِمى.

و مع توالي الشهور كان صدى القضية الأفغانية يزداد عبر العالم الإسلامي، و تتناولُه بالحديث مختلفُ وسائل الإعلام مِن فضائيات و إذاعات و جرائد بصفة شبه دائمة، و ارتفع وعيُ شباب الأمة الإسلامية و إدراكُه لحقيقة ما يجري على أرض أحفاد محمود الغزنوي، و أنَّ الـمعركة بين الأفغان و الشيوعيين هي معركةٌ حول العقيدة و الدين قبل أن تكون حول الأرض و الثروات.. و في الخليج تركَّز الدعمُ الإسلامي للقضية الأفغانية و كـبُـرَ، فشُكِّلت اللِّجان التضامُنية و الهيئات الإغاثية، و سهَّلت بعضُ الحكومات -و على رأسها حكومتا السعودية و الكويت- عمليات السفر أمام الرَّاغِبين في إعانة الأفغان مِن دُعاةٍ و أطباء و مهندسين و مُـجاهدين [١٠]، و أُسِّـسَت الـمستشفيات و الـمدارس و الـمعاهد لصالح القضية الأفغانية و العامِلين لها بمختلف أصنافِهم.. و مِن جهة أخرى انتشرت مؤلفاتُ الشيخ الـمجاهِد عبد الله عزَّام -رحمه الله- و إصداراتُه

(١٠) و كُـلُّ مَن سبق ذِكرهم مجاهدون إذا أخذنا بمعنى الجهاد الواسِع في الشرع.

الإعلامية انتشارَ النار في الهشيم بين الشباب المسلم عموما، و الخليجي منه خصوصا، و كتابُه الجميل (آيات الرحمان في جهاد الأفغان) الذي أصدره عام ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م و أُعيدت طباعتُه مرات عديدة في ظرف وجيز، شاهِدٌ على تلك الصَّحوة الجِهادية المباركة، فكأنَّه بذلك قدَّم صورةً مختصرةً عن أحوال الشعب الأفغاني و المجاهدين و مقاومتهم الشرسة للإرهاب الروسي الغاشِم، فجُيِّشت مشاعرُ الشباب العربي و التهب حماسُهُم لنُصرة إخوانهم الأفغان و مؤازرتهم في وجه الشيوعيين، و مِن أوامِر النبي ﷺ: «نَصْرُ المَظْلُومَ» (١١).. و لقد كان الشاب ثامر سويلم صاحِب السبع عشرة سنةً مِن أولئك الشباب الذين حدَّثتهُم أنفسُهم بالذهاب إلى أفغانستان.

شيخ المجاهدين عبد الله عزام

فما أن انقضى شهرُ رمضان مِن عام ١٤٠٨هـ (ماي ١٩٨٨م) حتى عزم خطَّاب على الذهاب إلى أرض الجهاد الأفغاني التي كانت تشهدُ يومئذٍ تراجُعا سوفييتيا كبيرا أمام

(١١) صحيح البخاري (٢٤٤٥)، صحيح مسلم (٢٠٦٦).

كتائب المجاهدين؛ فترك دراستَه بشركة أرامكو و ضحَّى بما قد يُلحِقُه برَكب الأثرياء و النافِذين، و راح يربِطُ علاقاته بالنَّاشِطين و العامِلين لصالح القضية الأفغانية، و لـمَّا انطلق مُسافِرًا أخذ معه شهادتين شخصيتين للتعريف بهويته، و كانت الوِجهة هي باكستان لأنه لم يكُن بين السعودية و أفغانستان رحلات مباشرة.. و بقي خطَّاب في باكستان شهرين لا نعرف عن أخباره فيها خلالهما شيئا، ثم عاد إلى السعودية لأداء مناسك الحج، فلما حلَّت سنة ١٤٠٩هـ عاد خطَّاب إلى باكستان و منها إلى أفغانستان و قد أكمل مِن العُمر عامَه السَّابع عشر، لتبدأ مسيرته الجهادية العظيمة ضد الشيوعيين مِن هناك.. و هنا نستحضِر كلام الشيخ ابن عثيمين حينما قال: «وَ إنِّي لأُحَيِّي الرُّوحَ الطَّيِبةَ التي كَانَتْ مِنْ بَعْضِ الشَّبَابِ فِي مَا يتَعَلَّقُ بأَفْغَانِسْتَان، فَإنَّ مِنَ الشَّبَابِ مَن لَدَيْهِ الـجُرْأةُ و الإقدَامُ العَظِيمُ، حَتَّى إنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ: أنا أرِيدُ أنْ تُفتِيني بأنَّ الجِهادَ فَرْضٌ عيِّنٌ حتَّى لا تَـحْرِمَني مِنَ الشَّهَادَةِ في سَبِيلِ اللهِ! هَذا وَ هُوَ شَابٌّ في مُقتبَلِ الـعُمُرِ و مُقتبَل الشَّبَابِ، وَ هَذا يدُلُّ عَلَى نِـيَّةٍ صَادِقَةٍ»(١٢).

و نذكُر مِن أبرز الـمواقِع الحربية الأفغانية التي شارك فيها خطَّاب:

- **معركة خوست في ديسمبر ١٩٨٧-جانفي ١٩٨٨م:** وخوست هي الـمدينة الثانية في ولاية بكيتا بعد عاصمتها كرديز، و هي قريبة مِن الحدود الباكستانية، و قد أطبق الـمجاهِدون -و في مقدِّمتهم خطَّاب- الحصارَ على ٤٠,٠٠٠ شيوعي كانوا متواجدين بالـمدينة، و أحاطوا بجمعِهم إحاطة السِّوار بالـمِعصم، فجهِد الشيوعيون مِن ضيق الحصار، و تضوَّروا جوعا و عطشا، و عانوا مِن شِدَّة البرودة، و فشت فيهم الأوبئة و الأمراض، كُـلُّ ذلك و هم مُستمرون في قتال الـمجاهِدين و مُستميتون، و على فكِّ الـحِصار مُصِرُّون، و لكنَّ الله أبى إلا أن ينصُر الـمجاهدين حيث لم يصمُد

(١٢) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٥١٩).

الشيوعيون و قرَّروا الانسحاب مِن مدينة خوست، و ذلك في الواحد و العشرين مِن جانفي ١٩٨٨م.

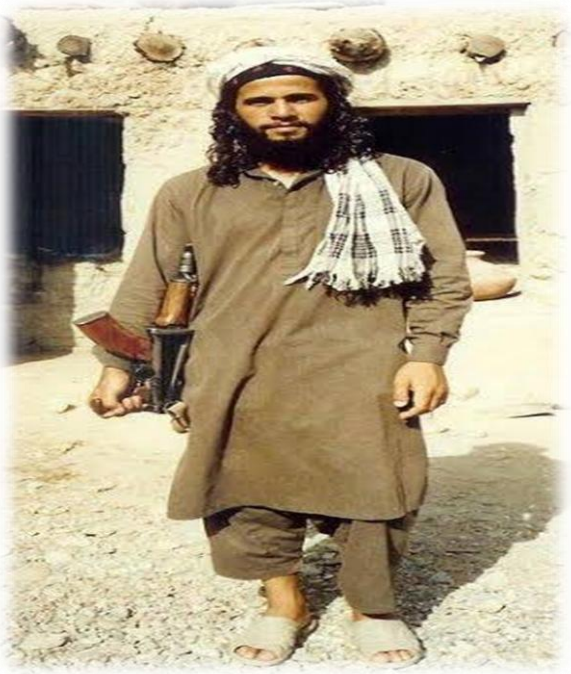

خطاب خلال تواجده في أفغانستان

خطاب مع بعض المجاهدين في أفغانستان

- **معركة جلال آباد في مارس ١٩٨٩م:** و جلال آباد هي عاصمة ولاية ننكرهار الواقِعة شرقي أفغانستان، و منذ سقوط منطقة طورخم الحدودية بيد المجاهدين في ديسمبر ١٩٨٨م و المجاهدون يتقدَّمون في الولاية شيئا فشيئا، حتى لم يعُد للسوفييت وجودٌ إلا في بعض مناطِق ننكرهار، و مِنها جلال آباد التي دارت حولها معركةٌ كبيرة ضارية، و مضى الهجومُ بقوة يُشارك فيه ما يزيد عن ٣٠٠ مجاهدٍ فيهم سيفُ الإسلام خطَّاب، و رغم ما أبداه الشيوعيون مِن مقاومة شرسة غيرَ أنَّهم لم يُفلِحوا في الصمود أمام المجاهدين و خسروا معركتهم في جلال آباد منتصف عام ١٩٨٩م.

- **معركة فتح كابل في جوان ١٩٨٩م:** و كابُل هي عاصمة أفغانستان، و سُقوطُ جلال أباد القريبة منها مِن شأنه أن يُسهِّل كثيرًا عملية إسقاطها، أي إسقاط العاصمة كابُل!

و هذا الذي وُفِّق إليه الـمجاهدونَ فعلا حينما شنُّوا ضرباتٍ موجعة على الـمدينة، و قصفوا مطارَها بثلاثين صاروخًا، فارتعب الشيوعيون و زُلزِلَت قلوبُهم زِلزالا شديدًا، و لم يزَل الـمُجاهدون يزحفون فاتِحين مِن مديرية إلى أخرى حتى استطاعوا السيطرة على ما يربو عن ٧٠% مِن العاصِمة كابُل، و قد كانت معركة الفتح مِن أضخم الـمعارِك و أحماها وطيسًا و أكبرها أثرًا.

هذا؛ و الذاكرة التاريخية تروي أنَّ سيفَ الإسلام خطَّاب شارك في كثيرٍ مِن العمليات العسكرية الأفغانية -الكبرى منها و الصُّغرى- ضد السوفييت و حكومتها الشيوعية العميلة منذ التحاقِه بصفوف الـمُجاهدين، و هو الشاب الشجاع الباسِل الذي لا يخافُ إلا ربَّه، و لا يشتدُّ إلا على أعدائه، و مما نورِدُه مِن أخباره في أفغانستان ما حكاهُ أحدُ أصحابِه إذ قال:

«خِلَالَ إحْدَى العَمليَّاتِ كُنَّا نَجلسُ في حُجْرةٍ في الخطِّ الخلفيِّ، كان الوقتُ ليلاً، و كان القتالُ في الخطوط الأمامية شديدًا. بعدها بِعِدَّةِ دقائقٍ دخل خطَّابٌ علينا الـحُجْرَةَ و كان وجْهُـهُ شاحِبًا، و مع ذلك فقد كان يتصرَّفُ تصرُّفًا طبيعيًّا.. دخل الـحُجةَ ماشِيًا بِبُطءٍ ثمَّ جلسَ في النَّاحية الأخرى مِن الغُرفَةِ بجانِبنَا، و كانَ هادئًا لا يتكلَّمُ على غيرِ عادَتِهِ، فأحسَّ الإخوةُ أنَّ هناكَ شيئًا غيرَ طبيعيٍّ على الرُّغم مِن أنَّه لم ينبَسْ ببنت شَفَة [١٣]، و لم يُظهِر أيَّ حركةٍ توحي بأيِّ شيءٍ مِن الألَـمِ، فسألناه إذا كانت به إصابة؟ فردَّ أنَّه قد أُصِيبَ إصابةً بسيطةً أثناء وُجُودِه في الخطوطِ الأمامية لجبهة الـقِتال، و أنَّها ليست إصابةً خطيرةً، فاقتربَ منه أحدُ الإخوةِ لِيَرى إصابتَه، فرفض خطَّابٌ أن يُرِيَه شَيْئًا قائلاً له أنَّها ليسَت خَطيرةً، فأصرَّ هذا الأخ على رؤية إصابتِه و لَـمِسَ ملابِسَه بيده ناحيةَ البطنِ، فوجَد الـملابِسَ غارِقةً في الدِّماء، و النَّزيفُ لا يزال

(١٣) أي لم يتكلَّم مطلقًا.

مُستمِرًّا بِشدَّة، فأسرعنا و نادَيْنا سيَّارةً و نقلناه إلى أقربِ مُستشفًى.. في الوقت نفسِه كان خطَّاب يُردِّدُ طِوال الوقت أنَّ إصابتَه لا تستدعي كُلَّ هذا الاهتمامِ و أنّها بسيطةٌ».

و مِن هذه القصة نرى قوة صبرِ خطَّاب على إصابته و تحمُّله للألم الناتِج عنها لدرجة أنه دخل على مجلس أصحابِه مِن دون أن يُحرِّك شفتيه أو يُصدِر صوتًا يوحي بتعرُّضه لِمكروهٍ ما!.. ثم نرى تقليلَه مِن شأن تلك الإصابة بشيءٍ مِن التكلُّف، و لكنَّ العجيبَ الخطيرَ في أمر هذه الإصابة أنَّها حصلت بطلقٍ ناري في بطنه بواسطة مدفعٍ رشَّاشٍ ثقيلٍ مِن عيار ١٢,٧ مم، و نحن نعلم أنَّ طلقات هذا العِيار يُستهدف بها اختراقُ الأجسام الفولاذية و الدروع، بل و وصفها أحدُ الخبراء بأنَّها لو أصابَت إنسانًا فإنَّها تُحوِّل اللحمَ البشري إلى عجينٍ مِن اللَّحم و الدَّم!!.. فسبحان الذي نجَّا عبدَه خطَّاب مِن الموت الوشيك.

و مِن القصة نرى -أيضا- أهم الصِّفات القيادية لدى خطَّاب جلِيَّةً حيث كان متواجِدا بالخطوط الأمامية للمجاهدين الأفغان في وجه الآلة العسكرية الروسية الفتَّاكة، و هذا هو دورُ القائد الحقيقي في الظروف القتالية الشديدة؛ أن يتقدَّم أصحابَه فيها لا أن يتخلَّف و يكون وراءهم، و ما أحسن قولَ العلَّامة البشير الإبراهيمي:

لا نرتضي إمَامَنا فِي الصَّفِّ ما لَمْ يُكُنْ أمَامَنَا فِي الصَّفِّ

و المقصودُ هنا أنَّ الجماعة المُسلمة لا تقبلُ بمَن يؤمُّها في الصلاة إن لم يكُن يقودُها في الجهاد، و قد كان خطَّاب مُتحلِّيا بتلك الصفة الضرورية، و هو الذي قال لشباب الشيشان الذين كانوا يتدرَّبونَ على يدَيْه ابتداءً مِن عام ١٩٩٥م: «إذَا لَمْ تَجِدُونَا أمَامَكُم فِي العَمَلِيَّاتِ فَارْمُونَا بالرَّصَاصِ أوْ قُولُوا مَا تُرِيدُونَ»!

و لا زال خطَّاب يُجاهِد مع إخوانه ضد الاتحاد السوفييتي و حكومته الأفغانية العميلة حتى أعلن السوفييت بدءَ انسحابِهِم رسميا مِن البلاد سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، و مع ذلك مكث خطَّاب فيها حوالي ثلاث سنوات أخرى لقيَ خلالها مؤسس القاعِدة أسامة بن لادن، و نحنُ لا نعرف شيئا عن طبيعة هذا اللقاء و لا تفاصيلَه، و لعلَّ خطَّابا كان مدرِّبا في معسكر (مأسدة الأنصار) الذي أقامه بن لادن لتدريب المجاهدين و إعدادهم عسكريا [١٤].. و مِن جانب آخر سبق لخطَّاب أن تولى قيادةَ سريةٍ حربيةٍ سُمِّيت بـ(سرية أحُد) في مدينة لوجر الأفغانية، فأظهر براعة فائقة و حنكة كبيرة، ثم رأى المُجاهدون الأفغان بعدئذ في هذا القائد و هذه السرية نموذجا يُحتذى به و مثلاً يُسار على دربِه في التنظيم و المهارة العسكرية، و نستطيع هنا القول بأنَّ تلك هي بداية بزوغ نجم سيف الإسلام في صورة القائد الذي تتوفر فيه أبرزُ الصفات القيادية الحربية المطلوبة.

و المُهمُّ أنَّ خطَّابا بقي في بلاد الأفغان حتى قامت الحرب في طاجيكستان سنة ١٩٩٢م بين الطاجيك و الروس.. فقد بدا أنَّ الروسَ بلغوا ذروة الجنون بعد اندحارهم المُخزي مِن أفغانستان على يد المُجاهِدين الأفغان و العرب!

فما قصة الحرب الروسية-الطاجيكية يا تُرى؟ و ما دورُ خطَّاب فيها؟

لِنُتابِع..

(١٤) أو ربما في معسكر (صدى) التابع لمكتب الخدمات الذي كان يُشرفُ عليه الشيخُ المُجاهد عبد الله عزَّام رحمه الله.

المحطة الطاجيكية

كان كثيرٌ مِن السِّياسيين و الـمُحللين يتوقَّعون أنَّ الصِّدام مع الأفغان في بلادهم سيكون بداية النهاية للاتحاد السوفييتي، فقد قال شاليذي: «سَتَكُونُ أفغَانِسْتَانُ الخطْوةَ الأولَى لِسُقُوطِ الإمبرَاطُورِيَّةِ الرُّوسِيةِ»، و قال الرئيس الفرنسي ميتران: «إنَّ أفْغَانِسْتَان كالسَّرَطَانِ فِي جَسَدِ الاتِّحادِ السُّوفْييتي».. و قد صُدِّق ذلك التوقُّع و تـحقَّق على أرض الواقع فِعلا؛ فلقد أدرك السوفييت -بعد غزوِهم أفغانستان- أنَّ هذا الغزوَ كان خطأ جسيمـا يصعُبُ تدارُكُه، و لم يرَوا مـخرجا لهم مِن هذه الورطة إلا الانسحاب و إنهاء الحرب، و شرعوا في تنفيذ هذا الانسحاب رسميًّا في النِّصف الثاني مِن سنة ١٩٨٩م، و غادر آخرُ جنديٍّ سوفييتي أفغانستان شهر سنة ١٩٩٢م، أي أنَّ الانسحاب استغرق ثلاث سنوات كاملة.

و لكن فلنقف قليلا عند سنة ١٩٩١م..

ففي هذه السنة تفكَّكَ الاتحادُ السوفييتي، و تفكَّكَ معه الـمعسكر الشرقي الشيوعي الذي يتزعَّمُه، و راحت أكثرُ الدُّول التي كانت منضوية تحت لواء الاتحاد تُعلن استقلالها عنه، و طفِقَت تجتهد لترسيم هذا الاستقلال، و مِن تلك الدُّول نذكُر: جمهورية طاجيكستان.. فطاجيكستان دولةٌ مسلمةٌ شمِلتها حركةُ الفتح الإسلامي منذ عهد الخليفة الراشِد عثمان بن عفان بعد الانتهاء مِن فتح بلاد فارس بالكامل، و تعزَّز الإسلامُ فيها في زمن الدولة العثمـانية كثيرًا، و إنَّ ما يفوق ٩٨% مِن الشعب الطاجيكي اليوم مسلمٌ، و غالبيته على السُّنة و لله الحمد، و هو -للعلم- مِن أصلٍ فارسي (إيراني)، و لغتُه كذلك.. و لكن مِن الضروري الآن أن نعرِفَ -على سبيل

الإيجاز- أسباب و جُذور الحرب التي اشتعل أُوارُها عام ١٩٩٢م بين طاجيكستان المسلمة و روسيا الشيوعية الـمُلحدة؛ فقد كانت منطقة طاجيكستان جزءً مِن إمارة بُخارى (أو: خانية بُخارى) ابتداءً مِن الـمائة الثالثة عشر للهجرة، و كانت هذه الإمارة الـمسلمة في مواجهة مستمرة مع الإمبراطورية الروسية أدَّت إلى ضُعفها، و لكن مع نهاية القرن الهجري الثالث عشر (بداية القرن العشرين الـميلادي) خفَّت وطأةُ الهجمـات الروسية عليها و قصُر النفوذ الروسي في داخِلها نسبيًّا، و لـما قامت الثورة الشيوعية في روسيا عام ١٩١٧م و رُفِع لواؤها الشيوعي الإلحادي تغيَّر الوضع فعادت إمارة بُخارى لتكون في مرمى الـمدفعية الروسية مُجددا، و لكن هذه الـمرة أشد و أنكى مِن سابقتها، فنجح الشيوعيون للأسف في السيطرة عليها و ضمِّها لدولتهم.. و إلى جانب إمارة بُخارى نجد إمارة خوارِزم و إمارة فرغانة، و هذه الإمارات الثلاثة هي جزءٌ كبيرٌ مـما يُسمى (تركستان الغربية) بعد وُقوعِ جميعها تحت سيطرة الشيوعيين الروس، و أما (تركستان الشرقية) فيستولي عليها الشيوعيون الصينيون منذ سنة ١٩٤٩م و إلى اليوم، نسأل الله أن يُخلِّصَ أهلَها الـمسلمين مِن شرِّ الصين و يُيسِّر لهم الاستقلال عنها، إنه وليُّ ذلك و مولاه.

هذا؛ و قد أجرى الاتحاد السوفييتي تقسيمـات سياسية على خريطة تركستان الغربية تتماشى و أهدافه في الـمنطقة (و منها إزالة اسم تركستان كونَه روح الوِحدة عند سُكانها الـمسلمين، سواءٌ على أساس الدين أو العِرق)، فأنشأ خمسَ جمهوريات إتحادية منحَ بعضَها حقَّ الاستقلال الذاتي، و هذه الجمهوريات هي: كازاخستان، أوزبكستان، تركمـانستان، قيرغيزستان، وطاجيكستان، و بقي الاتحادُ يُسيطر عليها سيطرةً شِبه تامة، و يُسخِّر شبابها الـمسلم لـخِدمة أجِنداته و الـمشاركة في حروبه، و خاصة خلال الحرب العامَّة الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥م. و لكن مع بدء شيخوخة الاتحاد

السوفييتي ثم انهياره بعد غزوِ أفغانستان راحت تلك الجمهوريات الخمس و غيرها تسعى لافتكاك استقلالِها عنه.. و لقد كانت طاجيكستان قبل ذلك تحت حُكم الحزب الشيوعي الطاجيكي منذ ما بعد الحرب العامة الثانية، و كان آخر رؤساء طاجيكستان منه هو العميل الشيوعي علي رحمان نابيف قبل وقوع الحرب على حكومته، فلما مرَّت بضعة شهور بعد حلول عام ١٩٩١م بدأت الأوضاع السياسية في البلاد تتكهرب، و راحت الـمُعارضة الطاجيكية الموحَّدة التي كان يقودُها الإسلامي سعيد عبد الله النوري ترفع مِن حجم مطالِبها للدَّرجة التي خشي الرُّوس فيها على مصالحهم و نفوذهم في البلاد، فلمَّا حلَّ العام الموالي، أي ١٩٩٢م، وصلت الأوضاع إلى مرحلة النِّزاع الـمُسلَّح بين الـمُعارضة و الحكومة العميلة، و مِن وراء هذه الحكومة روسيا، و كان ابتداءً مِن شهر يونيو مِن العام الـمذكور.

لقد انتهى الجهادُ الأفغاني الآن بعد انسحاب الروس كُليًّا سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، و اعتقدَ الكثيرون استقرارَ الحالِ نسبيًّا، و أنَّ التوتُّر العالـمي الذي أحدثتهُ الـمعارِك الطاحنة بين الأفغان و الروس بدءً مِن سنة ١٩٧٩م قد آن أوانُ زوالِه، و أنَّ هُمومَ الأمة الإسلامية ستقِلُّ في تلك الفترة التي كانت الكثيرُ مِن دُولِها تشهدُ أخنق الأزمات السياسية و أشدَّها (مثلما كان حاصِلا في فلسطين و الجزائر)، و لكن يبدو أنَّ ذلك كان ضربًا مِن ضروب الوهم و الانخداع! ففي نفس العام الذي انسحب فيه الروس مِن بلاد الأفغان راجَت أخبارٌ تتحدث عن التهابِ الأوضاع في بلاد الطاجيك، و كان خُبثاء الروس -كالعادة- هم الـمُتسببون فيها، و مِن ثم أضحَوا أحدَ طرفَيِ الصراع منها جريًا وراء مصالِحهم و نفوذهم.. و في أفغانستان لما بلغت تلك الأخبارُ

مسامِعَ القائد خطَّاب علِمَ أنَّ مصائبَ الشيوعيين لم تنتهِ، و أنَّ شُرورَهم لم تنقضِ، فعقد العزمَ على حزم الأمتِعة و اللحاقِ بإخوانه الطاجيك كما التحقَ مِن قبلُ بإخوانه الأفغان، فلا فرقَ عنده بين أولئك و هؤلاء مادام الكُلُّ مِن أهل الإسلام و المِلة مهما بلغت بهم الأخطاءُ العقدية و السلوكية (دونما إقرارٍ لهذه الأخطاء ولا شك)، و خصوصًا أنَّ الطاغوت الروسي الشيوعي الذي كان يُجرِمُ في أفغانستان هو نفسُه الذي أجرمَ بعدها في طاجيكستان، ثم في الشيشان و داغستان و غيرها، فتأمَّل وضوحَ الرؤيا لدى خطَّاب -رحمه الله- و إدراكه لفقه الأولويات!

و لنا أن نتساءل: كَم عددُ الذين ساروا مع القائد خطَّاب مِن بلاد الأفغان إلى بلاد الطاجيك؟

ألف رجل؟!.. ألفان؟!.. خمسة آلاف؟!.. عشرة آلاف؟!

كلا! فالعجيب أنَّ الذين رافقوا القائدَ إلى طاجيكستان كانوا ثمانية رِجالٍ هو تاسِعُهُم.. و فقط!

و سبحان الله.. فبالمَنطق النَّظري فإنَّ الواحِد مِنا سيظُن أنَّ جُهودَ هؤلاء التِّسعة لن تزيد عن أن تكونَ دعمًا متواضِعًا و بسيطًا جِدًّا للمُجاهِدين الطاجيك ضد الجيش الروسي العرمرم بآلاته الضخمة و أسلحته الفتَّاكة، و لكنَّ الذي فعله أولئك التِّسعة تحت قيادة خطَّاب كان أكبر مِن ذلك و أعظم بكثير، و رغم أننا لا نعرِفُ مِن أخبار خطَّاب ومجموعته في طاجيكستان سوى اليسير، إلا أنَّ هذا اليسيرَ مِنها سيكونُ كافِيًا -إن شاء الله- لكي نستدِلَّ به على ما قُلناه، مع أنَّ الذي يعرِفُ شخصية خطَّاب و سيرته في الشيشان لا يحتاج لكثيرِ أدلَّةٍ كي يُدرِك ما يُمكن أن يفعله ذلك البطل في ساحات الوغى الطاجيكية التي مكث فيها قرابة العامَيْن!

فالـمُهم أنَّه قبل مُغادرة خطَّاب أرضَ الأفغان كان قد تذكَّرَ أوَّلَ مجيئه إليها و معاناة بعضِ الـمُجاهدين العرب في جانب الإعداد و التجهيز، و كيف أنَّ ذلك سبَّب لإخوانهم الأفغان بعضَ المشاكِل، فكانوا عِبئا عليهم أكثر مِن كونِهم مُناصرين لهم! و هذا ما يُعبِّر عنه خطَّاب رحمه الله بقوله: «الـنُّصْرَةُ في الحقيقةِ هِيَ أنْ تَـأتِي مُسْتعِدًّا جَاهِزًا لِكَيْ تَـخُوضَ الـمَعرَكَـةَ فِي أيِّ مَكَانٍ، سَوَاءٌ كُنتَ تَعْرِفُ الـمِنْطَقَةَ أو لا تعرفُهَا، و سَوَاءٌ كُنتَ تعرفُ فيهَا أحَـدًا أو لا، يَعني تأتي كَامِلًا جاهِزًا، تَعرِفُ استخدامَ السِّلاحِ، و تعرفُ الأمورَ العسكريَّةَ كُلَّها.. أمَّا أنْ يَأتيَ الإخْوَةُ الأنصَارُ الَّذينَ جَاؤُوا لنُصرة النَّاسِ و تقدِيمِ العَونِ؛ فيأتونَ و يَكُونونَ حِملاً و عِبئًا، و يطلُبونَ الـمُساعدةَ مِن النَّاسِ الذين جاؤوا لِنُصرتِـهِمْ.. فحَقِيقةً هذه ليسَتْ نُصرةً، بل هَذِهِ زِيادَةُ أعْبَاءٍ.. أقولُ: يجبُ أن يَكُونَ الإخوةُ الـمُقبِلون عَلَى أيِّ عَمَلٍ مُسْتَعِدِّينَ جَاهِزِينَ، وَ لَا يَطْلُبونَ مِن أحَدٍ شَيْئًا»[١٥].

و كذلك يذكُر بعضًا مِن تلك الـمشاكِل قائلا: «كُنَّا إذا استُشهِدَ أخٌ أو سَقَطَ في حقل الأفغان نطلُـبُ مِن الأفغان أن يأتوا ليُساعِدوا هذا الأخ، فلم نـكُن مُستعِدِّينَ أن نَنْقُـلَ جَرحانا و ننقُلَ قتلانا و نُرتِّبَ الأمور بأنفُسِنا.. و كان لو نُفِّذت عمليَّةٌ و قُتِـلَ فيها مثلاً ٣٠-٤٠ أخًا -و كانت تحصُلُ كثيرًا- نقولُ: كيفَ قُـتِلَ ثلاثون شخصًا؟! و نُلقي اللَّوْمَ على القَائِد الفُلَاني أو عَلَى الـمَجْمُوعَة الفُلانية، و نَقُولُ: هَذَا لـم يُغطِّ عَلَيْنا بالـمِدْفِعية، و هَذَا هُوَ الذِي ضَرَبَنا، وَ هَذَا هُوَ الَّذِي نسِيَنَا، و هَذا لَـمْ يُرسِلْ سيَّارةً.. مَشَاكِلُ لَا حَدَّ لَـهَا!».

(١٥) و قد نبَّه العلامة الفقيه ابن عثيمين -رحمه الله تعالى- إلى ضرورة توفُّر النفقة و السلاح و غير ذلك لدى الـمجاهِدين الـمُلتحقين بإخوانهم في الشيشان، و إلا فإنَّ ذلك سيجعلُهم عِبئًا على مُجاهدي البلاد. يُنظر: مجموع فتاوى و رسائل الشيخ محمد بن صالح عثيمين (٢٥/ ٣٣٥).

و مهما يكُن؛ فقد زحفَ التِّسعةُ شمالاً ابتداءً مِن سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٣م و اجتازوا الحدودَ الأفغانية-الطاجيكية، ثم اعترضَهُم النَّهرُ الواقِعُ على طول تلك الحُدود؛ و هو نهرُ جيحون الطويل الذي يجري حوالي ٢٥٢٥ كلم، فكان هذا النَّهرُ حاجِزا صعباً بينهم و بين الضفة الأخرى للعبور إليها، فوصفه خطَّاب بأنَّه وحشٌ جارِفٌ، و قال أنَّ محاولة العبورِ هذه في حدِّ ذاتِها جهاد! و لكنَّ التسعةَ استطاعوا لِقاءَ قائدين مُجاهدَيْن طاجيكيَّيْن يُقال لأحدهما (عبد الصمد ملَّا قربان)، و كان يُتقِنُ الكلامَ باللغة العربية، فاستطاعوا -بفضل الله- ثم بفضل هذين المُجاهدَيْن الطَّاجيكيَّيْن أن يُرتِّبوا عبورَهم النَّهرَ بنجاح مِن دون كبيرِ أضرار.. و يروي خطَّاب شيئًا مِن الصعوبات التي واجهها و أصحابُه الثمانية لدى انتقالهم مِن أفغانستان إلى طاجيكستان؛ فيذكُر أنَّ السيارات كانت تُقلُّهم إلى مكانٍ مُعيَّنٍ، ثم يسيرون مِن هذا المكانِ و ما معهم إلا الحمير و البِغال، فيظلُّون في مسيرِهِم ذاك ثلاثةً أو أربعة أيَّامٍ حتى وصولهم إلى النَّهر، و يذكُر مِثالا آخر على تلك الصعوبات و هو أنَّهم كانوا ينقُلونَ صاروخًا مِن نوع كتيوشا BM مِن القاعِدة في أفغانستان إلى ما قبلَ الحدود بألفَين (و لعلَها كانت بعُملة الروبية الباكستانية)، و مِن هناك ينقلونه على الحمير أو البِغال إلى ما قبل النَّهر بستة آلافٍ، و لِعبور النَّهر يدفعون ألفًا، و بعد النَّهر يحمِلُه الحمَّالُ الأفغاني على ظهره إلى موقع الجبهة بستة آلافٍ أخرى، و هنا يُعبِّر خطَّاب عن ذلك قائلًا: «فالصَّارُوخُ قيمَتُهُ خَمْسَةُ آلافٍ، ثمَّ أضِفْ إليهَا تَكلِفَةَ النَّقْلِ ١٥ ألفًا حتَّى نَسْتَطِيع أنْ نضَعَ صَارُوخًا واحِدًا في السِّلاحِ ثم نُطلِقُه، فتكلِفَةُ نقل الصَّارُوخِ تبلُغُ أضْعَافَ قيمةِ الصَّارُوخِ ثَلاثةَ أو أربعةَ أضعافٍ!!». و هنا نُدرِك طرفًا مِن المسؤولية الكبيرة و الصعبة التي كان يتحمَّلُها خطَّاب و أصحابُه في مسيرتهم الجهادية، و لكنَّها الهِمَمُ السامية و العزائمُ الفولاذية!

و بعد عبورِهِم اجتهد القائدُ في ربْطِ الاتصال المُباشر بزعيم المُعارضة الطاجيكية عبد الله نوري، فلمَّا وُفِّق لذلك ذكرَ له أنَّه و أصحابُه خاضوا تجرِبةً جِهاديةً بسيطةً قبل ذلك في أفغانستان، و أنَّهم قدِموا إلى طاجيكستان لتقديم العونِ في مجال العمليات العسكرية و الجِهاد، أو كما عبَّر خطَّاب رحمه الله، فتلقَّاهم عبدُ الله بصدرٍ رحِبٍ و سهَّل لهم الانخراط في القضية، و لكن مع ذلك كان خطَّاب حريصًا غايةَ الحِرص على تجنُّب أدنى أسباب الفشل و الاختلاف، و أن تجري الأمورُ على أتمِّ تنظيمٍ و أدقِّ استراتيجية، و قال لبعض القادة الطَّاجيك: «وَ الله لا نَسْألُكُم مَالاً، و لا نَسْألُكُم سِلاحًا، و لا نَسْألُكُم شيئًا.. وَ نَحْنُ جِئْنا لِنُقدِّمَ لكُم المَعُونَةَ، و فَقَط نطلُبُ شَيئًا واحِدًا؛ نَحْتاجُ مُجاهِدِينَ مِمَّن تعرِفونَهم و مِمَّن تُزكُّونَهم حتَّى نُعلِّمَهُم و نُدرِّبَهم و نُجهِّزَهُم بكلِّ شَيءٍ، وَ بَعْدَ أنْ يتجهَّزَ هَؤلاء النَّاسِ نَدخُلُ و نَخوضُ معهُم المَعَارِكَ و نَكُونَ أمامَهُم».

ثم قال لهم: «نَحْنُ جِئْنا و كُلُّ شيءٍ مِن عِنْدِنا، فإن نَجَحْنَا و عمِلْنَا عَمَلِيَّات طيِّبة فهو -إن شاء الله- للإسلام ثم لكُمْ، و إن لَمْ يَكُنْ لَمْ نَكُنْ أضْرَرْناكُم بِشَيءٍ و لا أنقصْنَا مِن عِنْدِكُم شَيْئًا».

و بالفعل؛ فقد وَردَ إلى القائد خطَّاب بعدئذٍ عددٌ مِن المُجاهدين الطاجيك الشباب و غيرِهم ليتدرَّبوا على يديه، و وصل عددُهم في المرحلة الأولى إلى ١٠٠ أو ١٢٠ شخصا على الأكثر، ثم ازدادَ توافُد الآخرين مع توالي الأيام حتى وصل إلى ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ كما يذكُر خطَّاب بنفسِه، و كُلُّهم جاؤوا للتدريب و الاستعداد روحيًّا و بدنيًّا على السَّواء.. و ثمَّة أمرٌ مُهمٌّ لا ينبغي أن نغفل عنه؛ و هو أنَّ قِمَمَ الجِبال الطاجيكية التي كانت تكسوها الثلوجُ كانت هي المكانَ الذي استقرَّ فيه المُجاهدون غالِبًا، و مِن ضِمنهم خطَّاب و رفاقُه، و قد كان الجوُّ فيها بالِغ البرودَة

(أرقام كثيرة تحت درجة الصِّفر الحرارية!)، فهذا مِن شأنه أن يُبيِّنُ لنا حجمَ مُعاناتهم و قدْرَ الصعوبة التي كانت تُواجِههم، زيادةً على وحشية العدو الروسي الـمُلحد في قتالِهم و التعامُل معهم!.. و مِن جهة أخرى يبدو أنَّ الـمَشروع الـجِهادي للقائد سيف الإسلام لم يُعجِب الـمُنافِقين و غُلاة الصوفية الطاجيك (و قد كان التصوُّف مُنتشرا جدًّا في بلاد القوقاز و ما جاورها شرقًا)، فراح بعضُهُم يسعَى للتشويش و التضييق عليه عَـبَثًا، و مِن ذلك أنَّ بعضَ القياديين حاولَ التدخُّل في شؤون مُعسكر خطَّاب بتعيين أميرٍ عسكريٍّ اسمُه (رضوان) وصفه خطَّاب بأنَّه مِن أخبث ما رأى مِن الناس، و قال مُتحدِّثًا عنه: «وَضَعُوهُ أميرًا عَسكَرِيًّا، و حَاوَلَ أنْ يَتَدخَّلَ في أمْرِنَا؛ فَقُلنَا لَهُ: لَا تَقْتَرِبْ مِنَ الـمَنطِقَةِ التي نَحْنُ فِيهَا، و أمْرُنا مُرتبِطٌ مبَاشَرَةً مَعَ الأميرِ!.. وَ انْتَهى الأمْـرُ».

هذا؛ و لقد فَـقَـدَ القائدُ خطَّاب أصبُعَيْن مِن أصابِع يده الـيُمنى حين انفجرت قنبلةٌ يدويَّـةٌ و هو يحمِلُها، فأُصيب إصابةً بالِغةً لم يكُن هنالك بُـدٌّ مِن قطع ذينك الأصبعين لتحسين الوضع، و مِن أجل ذلك نصحَه رِفاقُه بالعودة إلى مدينة بيشاور الأفغانية لتلقِّي العلاج، و لكنَّه رفض ذلك و أصرَّ على مُداواة إصابته بوضع عسل الـنَّحل عليها و ربْطِ الـجُـرح، و قال: «إنَّ هَذَا سَوْفَ يُعالِـجُ هَذِهِ الإصَابَـةَ، و ليسَ هنالِكَ حَاجَةٌ للذَّهَابِ إلَـى بِيشَاورْ».. و ظلَّ ذلك الرباط ملفوفًا على موضِعِ أصبعَيْه المقطوعَيْن حتى استشهِد سنة ٢٠٠٢م، و نستطيع أن نُشاهِده ذلك في العديد مِن صُوَرِه و مقاطِعه المرئية الـمُسجَّلة، رحمه الله برحمته الواسِعة.

و مع الأسف؛ فإنَّه إلى هنا تنقطِعُ الأخبارُ الوارِدة حول دوْرِ القائد خطَّاب في الـجِهاد الطاجيكي ضد الروس الـملاحِدة بعد أن إنشائه مُعسكَرَه التدريبي الخاص ذاكَ و إشرافِهِ على تدريب الشَّباب أولئك و إعدادِهِم مِن خلالِه، مع أنَّـنا على يقينٍ تامٍّ

بأنَّ له أثـرًا طيِّبًـا و بلاءً حسنًا ضد الـملاحِدة، و هذا هو عهدُ الأمَّـةِ بِـه.. و مِن الـمُرجَّح أنَّ انعدام تلك الأخبار عنه مردُّه إلى أحد الأسباب الثلاث التالية:

- قِلَّةُ الـمُجاهِدين العرب الذي انتقلوا إلى بلاد الطاجيك في تلك الفترة لإعانة إخوانهم و مؤازرتهم، و مما يدُلُّ على ذلك أنَّ خطَّاب ذكر أثناء حديثه عن القضية الطاجيكية بأنَّ «وُصُولَ أهْلِ الخيْرِ كَانَ فِيهِ صُعُوبَـةٌ». و مِن جانِبٍ آخر نحنُ نعلم أنَّه ليس بالضرورة أنْ يكونوا كلهم مُقاتِلين، بل مِن المحتمَل أن يكون مِن ضِمنهم الإعلاميون و الأطباء و الـمُهندسون و غيرهم كما كان الحالُ في الجهاد الأفغاني.. فلربما انحصرت تلك القِلَّةُ على الـمُقاتلين منهم فقط الذين اشتغلوا بالمهام القِتالية فقط.

- و إذا كانت تلك القِلَّة قد انحصرت في الـمقاتِلين فقط فهذا لا يعني أنَّه لم يكُن بمقدورِهِم القيامُ بالعمل الإعلامي مِن كتابةٍ و تدوينٍ و تسجيلٍ صوتيٍّ و مرئيٍّ، خصوصًا أولئك الذين كانوا تحت قيادة خطَّاب الذي شاهدنا حِرصَه الشديد على توفير كلِّ الوسائل التي تُعينه على جهادِه و تُسهِّل له مُهمَّته؛ و منها وسائلُ النقل و الـمواصلات و الاتصال، و لكن مع هذا فلعلَّ الفرصةَ لَـم تتوفَّر أمامهم لِصعوبة الأوضاع داخل طاجيكستان و الأجواء الـمُكهرَبة فيها، أو لِضيق الوقت عليهم و عدم استطاعتهم إيجاد الوقت الكافِي للقيام باحتياجاتهم الشخصية الضرورية، فضلًا عما هو أدنى مِنها ضرورةً، فالحربُ -و لا شك- كانت على أشُدِّها!

- و أما ثالِثُ الأسباب الـمُرَجَّحة فهو استشهادُ أغلب أولئك الـمُجاهدين العرب في طاجيكستان قبل أن يتمكَّنوا مِن تدوين أخبارِهم و توثيقِها؛ و هذا هو السَّبب الأرجح عندنا.

و الله تعالى أعلم.

على أنَّ هنالك أمران في الجِهاد الطاجيكي نختِمُ بالإشارة إليهما هذا المبحث؛ فالأمر الأوَّل هو ما أشار إليه القائد خطَّاب -رحمه الله- بأنَّ القضية الطَّاجيكية التي استمرّت ٥ سنوات لم يكُن لها اهتمامٌ لدى عامَّة المسلمين مثل ما كان لأفغانستان قبلها و الشيشان بعدها، و أنَّها ظُلِمَت كثيرًا رغم كونها مِن أصعب القضايا التي مرَّت على المُسلمين؛ و هذه إشارةٌ صائبةٌ لأنَّ القضية فِعلاً قد أحاط بها واسِعُ الغُموضِ في ذلك الحين لعِدة أسبابٍ مُرجَّحة؛ مِنها سخونة الأحداث و تسارُعها في أفغانستان التي ظلَّت تحتلُّ صدارةَ الاهتمام في الاستوديوهات الإعلامية و الجرائد و المجلات الإخبارية بعد انسحاب الروس خارجها.. و منها سعيُ الرُّوس الحثيث لحصار المسلمين الطَّاجيك إعلاميًّا كي لا يكون لقضيَّتِهم نفسُ الصَّدى الذي كان لأفغانستان مِن قبل، و مِن ثم يسهُل على الملاحِدة التلاعُب بالحقائق و تزييفُها و تصديرُ ما يُوافِق منها رؤيتَهم للعالم.. و منها قِصَر مُدَّة القضية مقارنةً بالقضية الأفغانية أو الشيشانية إذ أنَّها لم تتعدَّ الخمس سنوات بينما أربَت مُدَّةُ نظيرتَيْها الأفغانية و الشيشانية عن العشر سنوات (و هذا السبب مُستبعدٌ قليلا).. و مِنها تقاعُس الأنظمة العربية عن نُصرة الطاجيك و تقصيرِهم الفادِح في النهوضِ بقضيتِهم العادِلة التي لا يخفى فيها موضِعُ الحقِّ مِن موضِع الباطِل، و غير ذلك مِن الأسباب.

أما الأمر الثاني فهو الذي أشار إله خطَّاب -أيضًا- حينما أوضحَ مشهدًا مِن مشاهِد المُجاهدين الذي قدِموا لنُصرة إخوانِهم الطاجيك؛ فبعد أن عابَ على الطَّاجيك نزعتَهم القومية قائلاً: «لَمْ أرَ شَعبًا فيهِ مِنَ القَوْمِيَّةِ و الكَلَامِ عَلَى بعضِهِم البَعض مِثلمَا رأيتُ في طَاجِيكسْتَان؛ فَهَذَا مِن مَدِينَةِ بَانِج.. وَ هَذَا مِن مَدِينةِ كُولاب.. وَ هَذَا مِن الوِلايةِ الفُلانِيةِ»، راح -رحمه الله- يعيبُ على بعضِ أولئك المُجاهِدين الأنصار انتقادَهم للطاجيك بسبب بعض المشاكِل التي حصلت بين

هؤلاء و هؤلاء حتى قالوا: «هَؤُلاءِ الطَّاجِيك لَيْسَ عِنْدَهُم أُناسٌ يُريدُونَ الـقِتَالَ!»، فعابَ خطَّابٌ ذلك عليهم لأنَّهم بدَلَ أنْ يُناصِروا و يدعموا القضِيةَ خرجوا بِفكرةٍ سيِّئةٍ و نقلوا عن القضية غيرَ ما كان مِن الـمطلوب أن يُنقَل، ثم وصفَ الطاجيك بأنَّهم أُناسٌ مساكين لم يخوضوا تجرُبةً مِن قبلُ كما أولئك الأنصار، فما كان لبعض هؤلاء الأنصار أن يقولوا عنهم ما قالوه.. فما أروعَ عدلَه و إنصافَه و انتصارَه للحق رحمه الله!

و بعد.. فهذا ما في جُعبتنا مِن أخبار القائد الـمُجاهد سيف الإسلام خطَّاب في طاجيكستان منذ انتقالِه إليها سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٣م.

و لكن ما هي الـمحطَّة التالية له يا تُرى؟!

إنها الشيشان يا سادة!!

الفصل الثاني:
الحرب الشيشانية الأولى

- بداية القصة
- الطريق إلى الشيشان
- معسكر فيدنو
- بين الزعيم و القائد
- عملية خاراتشوي
- عملية سرجنيورت
- عملية شاتوي
- نهاية الحرب الأولى

بداية القصة

ذكرنا في ما سبق أنَّ غَزْوَ السوفييت الشيوعيين لأفغانستان آخر سنة ١٩٧٩م كان بداية النِّهاية لإمبراطوريتهم ذات الأطراف المُترامِية، فلم تكَدْ تأتي سنة ١٩٩١م حتى بلغوا غايةَ الضُّعف الذي أدَّى إلى ثوران البلدان التي ضمَّتها الإمبراطورية تلك عليها، و راحت كلُّ واحِدةٍ من تلك البلدان تسعى لتحقيق الاستقلالِ عنها و الخلاصِ مِن براثن نظامها الشيوعي، و هنا رفع الرُّوسُ درجة الإرهاب و الوحشية إلى أقصاها، و ظهروا بمظهَر الدُّب الروسي الذي ليس في قلبه مِثقال ذرَّة مِن رحمة، و لم يكُونوا قد ظهروا بهذا المَظهر قبلئذٍ إلا خلال الحربين العالمَّتَيْن و حرب أفغانستان.. و لقد كان الاستقلالُ عن الإمبراطورية الروسية مُضمَرًا في وجدان كلِّ مسلم شيشاني، و راسِخًا في ذِهنِه منذ اليوم الذي تفتَّحَت فيه مدارِكُه و نضَجَ وعيُهُ، و إنَّه مَعلومٌ ما تُكِنُّه طبيعةُ الإنسان الشِّيشاني المسلم مِن بُغضِ أعداء الإسلام، و كُرهِ الظُّلم و الضِّيم، و إباءِ الذُّلِّ و المهانة و العبودية لغير الله، و عِشقِ الحُرِّية و الموتِ دونَها إن لَزِمَ الحالُ، و إنَّ قومًا مُسلِمين -هذه صِفاتُهم- أحرى أن يقهرَ اللهُ بهم كُلَّ طاغِيةٍ ظالِمٍ و جبَّارٍ عنيدٍ، و أن يُعِزَّهُم في الأرض و يجعلَهم أسيادًا على غيرهم إن بقوا على عهدِه و وعدِه تعالى، و لن يُخلِفَ اللهُ عهدَه و وعدَه!

و الواقِع هو أنَّ مسيرةَ الجِهاد الشيشاني ضد الدُّب الرُّوسي المُلحِد طويلةٌ شاقَّةٌ حيث استمرَّت مِن ١٩٩٤م إلى ٢٠٠٩م، فكانت الحرب الشيشانية الأولى بين ١٤١٥-١٤١٧هـ/ ١٩٩٤-١٩٩٦م، و الثانية بين ١٤٢٠-١٤٣٠هـ/ ١٩٩٩-٢٠٠٩م، أي أكثر مِن اثنتي عشرة سنةً مِن المعارِك الطَّاحِنة و الأحداث السَّاخِنة! و لذلك ستكون رحلتُنا

معها موجزةً -غاية الإيـجاز- انتهاءً إلى استشهاد القائد الباسِل سيف الإسلام خطَّاب في ربيع عام ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، و اللهُ الـمُوفِّقُ.

إنَّه ليس مِن ضُروب الـمُبالَغة إذا قلنا بأنَّ الفترة الأولى للجِهاد الشيشاني يُختَزَلُ معناها في رجُلٍ واحِدٍ فذٍّ كان له الأثرُ البالِغ و البصمةُ الخالِدة، و تحت رُكْنِ هذا الرَّجُل الباذِخ كان عُظماءُ القضية الشيشانية يُسطِّرون ملاحِمَهم، و يُسجِّلون فُصولَ بطولاتِهم بحروفٍ مِن نور صحيفة التاريخ الإسلامي الحديث؛ و خصوصا مِنهم القائد خطَّاب و القائد شامِل باساييف [١٦]، و هذان الأخيران -على التحقيق- كانا ذِراعَيْ ذلك الرَّجُل عسكريًّا!

ذلك الرَّجُل كان مِحورَ الـمُشكِلة الشيشانية لدى العدو الرُّوسي بين ١٤١١-١٤١٧هـ/ ١٩٩١-١٩٩٦م؛ و مِن ثَمَّ فقد كان الـمَطلوبَ رقم واحِد عندهم، و كانت رقبتُه هي الـمُستهدَفة قبل رِقاب بقية القادة الـمُجاهدين في الشيشان!

ذلك الرَّجل هو القائد العسكري القدير، و الـمُجاهد الإسلامي الكبير، و الرئيس الأول لِجمهورية الشيشان الـمُستقلة، جوهر دوداييف رحمه الله تعالى و غفر له!

فمَن هو؟!

وُلد جوهرٌ -رحمه الله- في الشيشان لثمانٍ بقين مِن ربيع الآخر عام ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م، و تربَّى في كنف عائلته الـمُسلمة الـمؤلَّفة مِن سبعة أفراد، و بعد وِلادته بشهر واحد هُجِّر مع نِصفِ مليونٍ مِن إخوانه الشيشانيين إلى كازاخستان و سيبيريا على يد الـمُجرم السوفييتي الشيوعي جوزيف ستالين سنة ١٩٥٦م.. و في

(١٦) سنتعرَّف بعد قليل -بالتفصيل- على القائد الكبير باساييف هذا إن شاء الله.

شبابِه كان جوهر يطمحُ إلى أن يكون عسكريًّا بارِزًا في الجيش السوفييتي و يحتلَّ مرتبةً سامِقة في العسكرية، و بعد عودته مِن المَنفى -و الذي قضى فيه ثلاث عشرة سنة مِن عُمُره- شَرَع في تجسيد هذا الطُّموح فانتسبَّ في البداية إلى الحِزب الشيوعي و عمره ثلاثٌ و عشرون عامًا سنة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ثم انضمَّ إلى الأكاديمية العسكرية (غاغارين) المُخصَّصة للنُّخبة سنة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٤م، ثم تخرَّج مِنها و أضحى أوَّلَ جنرال شيشاني في الجيش السوفييتي، و على المَيدان شارك جوهر دوداييف في الحرب الأفغانية طيَّارا في صفوف الجيش السوفييتي!.. و لكن في سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م شهِدَ موقِفُ جوهرٍ تجاه السَّاسة الرُّوس و سياساتهم تحوُّلا و تغيُّرًا، أو دعنا نقُل -على الصَّحيح- بأنَّ جوهرًا وجد الفُرصة لإظهار شخصيته الحقيقيَّة و الإفصاحِ عن توجُّهاته و قناعاته السياسية المُضادة لنظيراتها لدى القادة الرُّوس، فما الذي حصل؟!

عُيِّنَ دوداييف رئيسًا لوِحدة القصف الاستراتيجي السوفييتية في منطقة (تارون) بجمهورية إستونيا البلطيقية سنة ١٩٨٩م، و كان الإستونيُّون يُطالِبون بالاستقلال عن الاتِّحاد السوفييتي كباقي الشُّعوب البلقانية و القوقازية، و لكن وقَعَ أنَّ بعضَ الاستقلاليين الإستونيين طلبوا مِن جوهر رفْعَ عَلَمَ بِلادِهم فوق القاعِدة العسكرية التي كان القائدَ لها، و العجيب أنَّ جوهرًا كان مُتضامِنًا و مُتعاطِفًا معهم في قضيتهم، فقام -فِعلاً- برفع عَلم إستونيا بكلِّ شجاعةٍ و رباطة جأش!.. و بعدها استقال جوهر مِن قيادة وِحدة القصف الاستراتيجي في إستونيا و عاد إلى بلده الشيشان في منتصف عام ١٤١١هـ/ يناير ١٩٩١م ليبدأ مسيرتَه النِّضالية و الجِهادية ضد الرُّوس.. و الحقُّ أنَّ الشعب الشيشاني لم يكُن يعرِف رجُلاً اسمُه جوهر دوداييف إلا بعد أن ظهرَ في مجلِس الشعب الشيشاني مُطالِبا بالاستقلال، ثم زادَت شُهرته عندما أسَّسَ المؤتمرَ القومي

الشيشاني العام في شعبان ١٤١١هـ/ مارس ١٩٩١م و تزعَّمه، و هو المؤتمر الذي تمَّ التصويت فيه بعد ستة أشهر مِن تأسيسِهِ على إقالة الحكومة الشيوعية العميلة الأخيرة في البلاد، و التي كان يرأسُها يومئذٍ الشيوعيُّ ذوكوزافجايف، و الغريبُ أنَّ تلك الإقالة لهذه الحكومة كانت مؤيَّدةً مِن الكرملين و مِن الرئيس بوريس يلتسن[١٧] ذاته. و في ربيع الآخِر مِن نفس العام/ ٢٧ أكتوبر جرت انتخابات رِئاسية اعتُرِف بها دوليًّا و تأكَّدت نزاهتُها، فشارك فيها ما يزيد نسبتُه عن ٨٠% مِن الشعب الشيشاني، و تمَّ انتخاب جوهر دوداييف رئيسًا للبلاد بنسبة تصويت بلغت ٨٥% مِن مجموع الأصوات، و غداة انتخابِه أقسم اليمين على القرآن الكريم بدلا عن الدستور الروسي، و ذلك إمعانًا في مبدأ الاستقلال عن روسيا الاتحادية!

و أعلن جوهرٌ عن هذا الاستقلال رسميًّا في الرابع و العشرين من ربيع الآخر ١٤١٢هـ/ الفاتِح نوفمبر ١٩٩١م خلال المؤتمر القومي الشيشاني برئاسته، و بعدها شرع -رحمه الله- في اتِّخاذ إجراءات الاستقلال الفعلي الأساسية في المرحلة الأولى على النحو التالي:

- إجراء انتخابات برلمانية انبثق منها البرلمان الشيشاني.
- خلق حكومة شيشانية أوَّلية.
- وضع أوَّل دستور للبلاد.
- تأسيس معهد الدولة للدراسات الإسلامية بالعاصمة غروزني.

---

[١٧] و هو الذي خلفَ الرئيسَ غورباتشوف في شهر أوت ١٩٩١م على حُكم الاتحاد السوفييتي المُتهالِك، و غورباتشوف هو صاحِبُ سياسة الانفتاح و المُشرِف على المُعاهدة التي تقتضي منحَ المزيد مِن الحرية و الاستقلال لصالِح الجمهوريات السوفييتية (و لكنَّ هذا المُعاهدة لم تتم لأسبابٍ غامِضةٍ).. و بعدها تسبَّب يلتسن في انحلال الاتحاد السوفييتي رسميًّا شهر ديسمبر و انفرد بحُكم روسيا الاتحادية، ثم قاد الحربَ ضد جوهر دوداييف و رِفاقِه المُجاهِدين في الشيشان كما سنرى بعد قليل.

- فتح الـمركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة.
- إرسال وفود دبلوماسية للتعريف بالقضية الشيشانية لدى الدول العربية و الإسلامية.
- إنشاء العلم الشيشاني وِفق الألوان الثلاثة (الأحمر، الأبيض، الأخضر)، و شعارُه: صورة الذئب الوحيد.
- وضع النشيد الوطني الشيشاني الذي جاء فيه القَسمُ على تقديم أثمن ما لدى الشيشانيين لتحقيق الاستقلال.

على أنَّ ذلك الاستقلال -زيادةً على كونِه حقًّا شرعيًّا للشيشانيين مِن منطلق العقيدة و الدين و الثقافة- كان مَشروعًا مكفولاً بنصِّ الدستور السوفييتي ذاته الذي جاء في البند الثالِث منه ما نصُّه: «إذا خَرَجَتْ إحْدَى الجمْهُورِيَّاتِ مِنْ قَوَامِ الاتِّحادِ السُّوفْييتِي فَإنَّه يَحُقُّ -بالتَّالي- للجُمْهُورِيَّاتِ الأخْرَى الَّتِي تَدْخُلُ في نِطاقِ الجمهورِيَّة الـمُنفَصْلةِ أنْ تَنْفصِلَ هِيَ الأخْرَى وَ تَسْتَقِلَّ»!

بل إنَّ الرئيس الروسي بوريس يلتسِن نفسه كان قد أطلق شِعارًا أشار به إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي قائلاً: «خُذوا قدْرَ ما تَسْتَطِيعُونَ مِنَ السِّيادَةِ»!!.

و مِن ثَم فقد اعتمد جوهر دوداييف على حقِّ شعبِه الشرعي الدستوري في سبيل الاستقلال عن الاتحاد، و فوق ذلك امتنع الشيشانيون -على غير العادة- عن الـمُشاركة في الانتخابات البرلمانية ثم الرئاسية في روسيا، و عن الـمُشاركة في الاستفتاء على الدستور الروسي في رجب ١٤١٤هـ/ ديسمبر ١٩٩٣م.

و بعدها انتقل جوهر إلى الـمرحلة الثانية مِن إجراءات تفعيل الاستقلال عن روسيا و الاستعداد للحرب الـمُحتملة جدًّا مع الروس، فقام بـ:

- الاستيلاء على مستودعات السِّلاح الضَّخمة الـموجودة في الشيشان.

- مُحاصرة الحاميات العسكرية الرُّوسية بالـمُسلَّحين الشيشان الذين كانوا يُهاجِمون بأساليب مُبتكرة تحت قيادة القائد الـمُجاهد الكبير شامل باساييف.
- حظر إخراج السِّلاح مِن جمهورية الشيشان الـمستقلة.
- تشكيل الكتيبة الإسلامية للدفاع عن الشيشان و فتح الباب أمام الرَّاغِبين في التطوُّع مِن الشيشان و خارجها لنُصرة القضية.
- تجهيز كافة الأسلحة و الـمُعدات العسكرية بما فيها صواريخ "SS22" التي تستطيع حَـمْل ثلاثة رؤوس نووية!
- تدريب ١٥٠٠٠ شيشاني على السِّلاح و فنون القتال.
- ترحيل النساء و الأطفال و الشيوخ إلى الجِبال بعيدا عن العاصِمة.
- إخفاء كل وثائق الدولة الشيشانية على اختلاف مستوياتِها.
- تهريب رصيد الدولة مِن الذهب إلى أماكن مجهولة.

و قد أرغمَت هذه القرارات الحاسِمة روسيا على سحْب عسكريِّيها مِن الشيشان الذين تركوا وراءهم جميع أسلحتهم الثقيلة منها و الخفيفة، و ذلك في محرم ١٤١٣هـ/ يوليو مِن سنة ١٩٩٢م.. و قد كانت تلك القرارات التي أجراها الرئيس الشيشاني جوهر دوداييف بشجاعةٍ و عِزَّة نفسٍ كافيةً كي تجعل ردَّ فِعل روسيا قويًّا و عنيفًا ضدَّه، و لكنَّ الذي حدثَ غيرُ ذلك؛ فقد كانت الأوضاع الداخلية لروسيا الاتحادية على غير ما يُرام، و تكاثرت الـمشاكِلُ و الـخِلافاتُ بين الأقطاب السياسية داخل البلاد، فلم يكُن باستطاعة الرئيس يلتسن إلا فـرْضُ حالة الطوارئ و إرسال قوة عسكرية على طائرةٍ منع مِن هبوطِها الآلاف مِن الشيشانيين الذين احتشدوا داخل مطار عاصِمتهم غروزوني بإشارة مِن جوهر، و بالتالي فقد كان ردُّ فِعلِ روسيا

ضعيفًا بارِدًا أدَّى لاستفحال أمر جوهر وتَـمَكُّنِه و توطيد أركانِه، و ساهمَ في ذلك ما تـمتَّع به -رحمه الله- مِن الفطنة و الذكاء و الشجاعة، و حُسن استغلال الفُرَص الـمُتاحة لصالِـحِه، و كأنَّنا برحمة الله و تيسيره و كرمِه بجانب جوهر دوداييف و هو يُجاهِد ضد أعتى القِوى العالـمية و أكفَرِها و أجرَمِها!

و هكذا بقي جوهرٌ يبني دولَته و يؤسِّس مؤسَّساتِها و يُطوِّر قُدُراتها في ظلِّ انشغال الروسي بشؤونهم الدَّاخلية و استغراقهم فيها، و لكَّن ذلك لم يمنعهم مِن فرض حِصارٍ اقتصاديٍّ و اجتماعيٍّ على الشيشان، و حاوَلت ثني جوهر عن تقوية جيشه بمنع ورود السِّلاح إليه، و كانت أخطر و أكبر ما قامت به روسيا هو أنَّها موَّلت الخلايا الشيوعية الـمُعارِضة بقيادة (عمر افتورخانوف) في الشيشان و سلَّحتها بالأسلحة الثقيلة لتُطيح بجوهر، فقام الـمُعارِضون بمحاولة السيطرة على العاصمة غروزني بالدبابات و الـمِروحيات في نوفمبر مِن عام ١٩٩٤م، و بعدما أوشكوا على دخول قصر الرئاسة و الإطاحة الـفِعلية بجوهر تصدَّت لهم قُـوَّاتُه الـمُدرَّبة و دارت بين الطرفين معاركٌ عنيفةٌ، فالتهبت غروزني و تكهربت أجواؤها، و ما هي إلا ساعاتٌ قليلةٌ حتى انتصر جوهر دوداييف و رِفاقُه الأبطال على قوات الـمُعارضة الشيوعية العميلة، فانهزمت هذه الأخيرة شرَّ انهزامٍ و أفدَحَه بعدما سقط منها أكثر مِن ٢٠٠ فرد بين قتيلٍ و جريحٍ، و لله الحمدُ و الـمِنَّة.

و بانهزام قِوى الـمُعارضة الشيشانية العميلة سقطت الورقةُ الأخيرة [١٨] بيد روسيا و رئيسها بوريس يلتسن أملاً في تنحية الزعيم الإسلامي الـمُجاهد جوهر دوداييف، و إنَّ الـمَرءَ ليستشعِر حقًّا خيبةَ الأمل الكبيرة التي علَت الشيوعيين الرُّوس بعدما

---

[١٨] و كان جوهر قبل ذلك بشهورٍ قليلةٍ قد تعرَّضَ لـمُحاولتَيْ اغتيالٍ آثِمتَيْن فاشِلتَيْنِ؛ الأولى بإطلاق النار عليه في ساحة (تياتر النايا)، و الثانية بمحاولة إسقاط طائرته، و لكنَّ اللهَ أنجاه مِنهما و كتب له عُمُرًا أطولَ.

تلقَّوا نبأ سحق جوهر لعملائهم، و الغيظ الذي ملأ قلوبهم تجاه أهل الإسلام في الشيشان.

و في هذه اللحظة رأى الرئيسُ الروسي يلتسِن و أصحابُه حتمية التدخُّل العسكري الـمُباشِر في الشيشان ضد الزعيم الـمُجاهد جوهر دوداييف، و كان ذلك رسميا عند فجر يوم الأحد ٨ رجب ١٤١٥هـ/ ١١ ديسمبر ١٩٩٤م.. و في أفغانستان كان القائدُ العربيُّ البطل سيف الإسلام خطَّاب يترقَّبُ الأحداثَ السَّاخِنة الواقِعة في الشيشان بكثبٍ، قبل أن يُقرِّر -رحمه الله- بعدها بشهور قليلة أنَّ الوقتَ قد حان كي ينتقل إلى هناك!

فلنُتابِع..

الطريق إلى الشيشان

عندما انفجرت القنبلةُ اليدويةُ في يد خطَّاب و انقطع أصبعان مِن أصابِع يده اليُمنى بسبب ذلك أصرَّ رحمه الله -كما ذكرنا- على عِلاج ذلك بالعسل رافِضًا الذَّهاب إلى بيشاور الأفغانية، و لكنَّ نفسَه -مِن جهة أخرى- كانت تُحدِّثُه بالذهاب إلى الشيشان لتلقِّي العِلاج، و كانت المدة التي تقرَّر مُكوثُها في الشيشان أسبوع أو أسبوعَيْن كما ذكر بنفسه، و أكَّد بأنَّ ذلك سيكون على سبيل الزِّيارة -لا غير- تلبيةً لدعوة أحد رِفاقه المُجاهدين الشيشانيين الذين تواجدوا معه في طاجيكستان.. يقول خطَّاب رحمه الله: «كَانَتِ الفِكْرَةُ أنْ أذهَبَ لِزِيَارَةِ الشِّيشَانِ لِمُدَّة أسْبُوعٍ أوْ أسْبُوعَيْنِ، فبدأتُ أبحثُ في الخرِيطَةِ أينَ الشِّيشَان؟ و كَانَتْ فِي الحَقِيقَةِ جُمْهُورِيَّةً صَغِيرَةً (٢×٣) لَا تَظْهَرُ عَلَى الخَرِيطَةِ، فَكُنْتُ أظُنُّ أنَّ فِيهَا ألْفَ بَيْتٍ أوْ ألفًا مِنَ النَّاسِ ليْسَ أكْثَر»!.. ثم اكتشف فيما بعدُ أنَّها بلادٌ مسلمةٌ تحتضِنُ مئات الآلاف مِن المسلمين الذين كشَّر الدُّبُ الرُّوسي عن أنيابه طمعًا في القضاء عليهم كما سنرى لاحقا.

و الواقِع أنَّ ما سبق كان أسبابًا ثانويةً فقط لانتقال القائد خطَّاب إلى الشيشان، و أمَّا السَّببُ الأساسيُّ و الأكبَرُ فهو أنَّه كان -يومًا- يُشاهِدُ إحدى المَحَطَّات التلفزية أثناء وجوده في أفغانستان بعد عودته مِن طاجيكستان أوائل سنة ١٩٩٥م، و إذا به يرى تلك المَحطَّةَ تعرِضُ أخبارَ بلاد الشِّيشان مُرفقةً ببعض المَشاهِد و صُور الشعب الشيشاني و المُجاهدين منه، يقول: «أوَّلُ مَا دَفَعَنِي للذَّهَابِ إلَى الشِّيشَانِ

أَنِّي رَأَيْتُ عَبْرَ التِّلْفَازِ المَجْمُوعَات الشِّيشَانِية تَرْتَدِي عِصَابَاتٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، وَ يَصِيحُونَ صَيْحَةَ: اللهُ أَكْبَرْ.. فَعَلِمْتُ أَنَّ هُنَاكَ جِهَادًا فِي الشِّيشَانِ، وَ قَرَّرْتُ أَنَّه يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَذهَبَ إِلَيْهِمْ»!

الله أكبر! هذا هو صنيعُ المُجاهدين العُظماء، هذا هو صنيعُ الرِّجال الذي تربَّوا تحت ظِلال العِزة و الشرف و الرِّفعة، هذا هو صنيعُ أبناء الإسلام الذين اشرأبَّت قلوبُهم حُبَّ الجهاد في سبيل الله.. لقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ»[١٩].. و نحن نرى تطبيق هذا الحديث جليًّا في سيرة المُجاهد الشاب سيف الإسلام خطَّاب الذي ارتحل مِن بلاد الحرمين إلى أفغانستان مُجاهِدا، ثم إلى طاجيكستان مُجاهِدا، ثم إلى الشيشان مُجاهِدا، وشارك في حرب داغستان مُجاهِدًا، ثم مات و هو مُجاهِد.. فأكرِم بها مِن سياحة لا تنامُ لها أعيُنُ الجبناء!

عزمَ القائد خطَّاب على المُغادرة إلى الشيشان، و في رصيده حينئذٍ تجربةٌ في الجِهاد عُمُرها أكثر مِن سبع سنوات، و خِبرةٌ في التنظيم و التخطيط الدَّقيقَين قلَّ مَن حازَها مِن نظرائه في ذلك الحين.. فانتخبَ عددًا مِن رفاقِه المُجاهدين و حزمَ أمتعَته ثم انطلق غربًا قاصِدا الشيشان، و لكن قبل وُصولِه إليها مرَّ بداغستان و مكث فيها قليلاً، و في هذا المدة التي مكثها في داغستان يحكي خطَّاب طرفًا مما جرى بينه و بين بعض الشباب الطَّيبين -كما وصَفَهُم- مِن حوار؛ فقد سألَهم عن سبب عُزوفهم عن مشاركة إخوانهم في الشيشان الجِهادَ ضد الروس، فحدَّثوه حديثًا طويلاً عريضاً مُلخصه أنَّ الذي هو حاصِلٌ في الشيشان شأنٌ داخِليٌّ لا يعنيهم، و أنَّ جوهر

(١٩) سنن أبي داود (٢٤٨٦).

دوداييف رجلٌ شيوعيٌّ مثل الرُّوس، و أنَّ الشعب الشيشاني شعبٌ صوفيٌّ منحرفُ العقيدة، و مِن ثَم فلا يجوز القتال معهم، فضلاً عن أن يكون هذا القتال تحت قيادة جوهر!.. و لكنَّ خطَّابًا -رحمه الله- أزال هذا اللِّبسَ الخطيرَ عن نظرتهم للقضية الشيشانية، و كان مِمَّا قالَه لهم: «عَدُوُّكُم عَدُوٌّ وَاحِدٌ؛ وَ هُوَ الرُّوسُ.. وَ جَوْهرٌ لنْ يَعِيشَ إلَى يَوْمِ الدِّينِ، سَيَمُوتُ جَوْهَرٌ وَ سَيَكُونُ هُنَاكَ إسْلامٌ.. بَعْدَ أنْ يَنْتَهِي الرُّوسُ مِنَ الشِّيشَانِ لَنْ يُبقوكُم دَاخِلَ دَاغِسْتَانْ؛ فَمِنَ الحِكْمَةِ أنْ تذْهَبَ و تُقاتِلَ عدُوَّكَ بدلَ أن تنتظِرَه حتَّى يدخُلَ بيتَكَ فتشتغِلَ بالنِّساءِ و الأطفالِ، فعِنْدَها لنْ تَسْتَطيعَ أنْ تُقاتِلْ».. و كُلُّ ذلك مع أنَّ القائد خطَّاب لم يكُن قد تعرَّف بعدُ على جوهر دوداييف، و كان يظُنُّه رجلاً شُيوعيًّا بعيدًا عن الإسلام! كما أنَّ استنكارَه لتخلُّفَ أولئك الشباب في داغستان عن إعانة إخوانهم في الشيشان ليس معناه أنَّه يُقِرُّ الشيشانين على ما هُم عليه مِن التصوُّف الغالي الذي أفضى بكثيرٍ مِنهم إلى الانحراف في الاعتقاد، و إنما هو حُسنِ فِقهِهِ لترتيبِ الأولويات، و ستكون لنا وقفةٌ مع هذه الخاصية لاحقا إن شاء الله.

و بعد أن استطاع القائدُ خطَّاب -كعادته- إقناعَ أولئك الشباب بضرورة مُعاونة إخوانهم الشيشانيين في مقاومة الملاحِدة الرُّوس، أبدَوْا استعدادَهم لذلك و قالوا له: «نَحْنُ لَا نَعْرِفُ اسْتِعْمَالَ السِّلاَحِ»، فطمأنَهم و أخبرَهُم بأنه سيتولَّى تدريبَهم و ترتيبَهم عسكريًّا، و قام بانتخاب اثني عشر شابًّا منهم ليدخُلوا معه الشيشان، زيادةً على الثمانية الذي صحِبوه مِن أفغانستان، فصار مجموعُ مَن معه قبل أن يطأ أرضَ الشيشان عشرون مُجاهِدًا بعضُهُم مِن العرب! على أنَّه يقول بالحرف الواحِد: «وَ كُنْتُ حَقِيقَةً لَا أرْجُو مِنْ دُخُولِي إلاَّ أنْ أدرِّبَ هَؤُلَاءِ، وَ لَمْ أكُنْ أظُنُّ حَتَّى أنِّي أسْتَطِيعُ أنْ أقدِّمَ شَيْئًا للشِّيشَانِ». و هذا الكلام مِنه يدلُّ على أنَّه كان حريصًا على

الـمُشاركة في مقاومة الشيوعيين الرُّوس مِن دون أن تكون له يدٌ في صِناعة القرار الشيشاني، أو الوجود الـمُباشِر في صفِّ صُنَّاعِه، أي أنه يُريدُ إعدادَ الـمُجاهدين و تدريبَهم بعيدًا عن الأضواء فقط!.. و قد كان دخولُ خطَّاب ورفاقه أرضَ الشيشان في ربيعِ عام ١٩٩٥م، و في هذه الفترة كانت الحربُ بين روسيا بقيادة بوريس يلتسن و الشيشان بقيادة جوهر دوداييف قد بلغت الذروة، و لعلَّ أكبرَ حدث طرأ على ساحة الحرب تلك قبل وصول القائد خطَّاب و مجموعته هو سقوطُ العاصِمة غروزوني بيد الرُّوس شهر رمضان ١٤١٥هـ/ ٢١ فيفري ١٩٩٥م، ثم انسحاب الـمُجاهدين إلى الجبال لتكون هذه الأخيرة مسرحًا رئيسًا للمواجهة.. و لكنَّ سقوط العاصمة غروزوني لم يكُن يعني انتصار الرُّوس و انهزام الـمُجاهدين، كلا، بل إنَّ ذلك السقوط -على الصحيح- كان بداية الحرب الفِعلية بالنسبة للـمُجاهدين؛ بدليل أنَّ الذي لقِيَه الرُّوسُ مِن الويلات و الـمصائب بعد استيلائهم على غروزوني كان أضعافَ ما لاقَوه قبل ذلك، و قد قال جوهر دوداييف يومئذ: «الـحَرْبُ بَيْنَ الشِّيشَانِ وَ رُوسْيَا سَتَبْدَأ الآنَ، وَ سَتَسْتَمِرُّ ثَلاثمَـائَةِ عَام»!

و بعد دُخولِه الشيشانَ تـمهَّل القائد خطَّاب قليلا و راحَ يدرُس الأوضاع في البلاد و يستكشِفها على حقيقتها برَوِيَّة، فكان أوَّلُ ما قام به أنَّه تقمَّص دورَ الإعلامي الصحفي و عمل ما يُشبه الـمُقابلات الصحفية مع بعض الشيشانيين، و منهم القائد الـمُجاهد شامل باساييف، فكان ذلك اللقاءَ الأوَّل بينهما قبل أن تكونَ بين الرَّجلين -بعد ذلك- علاقةٌ وطيدةٌ و عملٌ جِهاديٌّ مُشترك جعلهما في صدارة قائمة المطلوبين لدى الاستخبارات الرُّوسية!.. و بينما كان خطَّاب يسأل الشيشانيين بصفته صحفيًّا عن نظرتهم للحرب و رأيُهم فيها، إذا به يلتقي عجوزًا منهم فسألها: «إلَى مَتَى سَتَصْمُدُونَ؟».

فقالت: «نَحْنُ نُرِيدُ أنْ نَتَخلَّصَ مِنَ الرُّوسِ».

فسألها مُجدَّدًا: «لِـمَـاذَا تُقاتِلونَ؟».

فقالت له: «نحْنُ نُريدُ أنْ نَعِيشَ مُـسْلِمِينَ، وَ لَا نُرِيدُ أنْ نَعِيشَ مَعَ الرُّوسِ».

ثم قال لها: «بِمَـاذَا تَسْتَطِيعِينَ أنْ تُسَاعِدِي الـمُجَاهِدينَ».

فقالت: «وَ اللهِ لَيْسَ عِنْدِي إلَّا الـجَاكِيتْ الَّذِي ألبَسُهُ.. فَأُعْطِيهِ لِلْـمُجاهِدِينْ»!!

يقول رحمه الله: «فتأثَّرتُ و بَكَيتُ، و قلتُ: إذا هَذِه الـمَرْأةُ العَجُوزُ تُريدُ أنْ تُساعِدَ الـمُجاهِدِينَ، فَعَلَى مَاذَا نَخَافُ نَحْنُ و نَتَـرَدَّدُ؟!.. مِن ذَلِكَ اليومِ قرَّرتُ أنْ أدخُلَ مع الإخوَةِ لِتَدْرِيبِ النَّاسِ».

لقد اتَّضحَت حقيقةُ الأحداث أمام القائد خطَّاب بعد لقاءاته شِبه الصحفية تلك بصورة لا تقبل الشكَّ فيها، و رأى أنَّ الشعبَ الشيشاني كلَّه -ما خلا الـمُنافقين منه و العُملاء بالطَّبع- يقِفُ خلفَ الزعيم الـمُسلم جوهر دوداييف ضد الشيوعيين، يؤيِّده و يُساندُه و يؤازرُه، و في قلب كُـلِّ امرئٍ شيشانـيٍّ أمنيةُ رؤية راية الإسلام تعلو على راية الشيوعية الكُفرية في بلاده، و أن لا تكون الشيشانُ الـمسلمة تابِعةً لروسيا الـكافِرة قيدَ أنملةٍ.. فهنا اطمأنَّ القائد لهذه القضية و أدركَ موضِعَ الحقِّ فيها مِن الباطِل، و مِن ثَم راح يعمل لها جاهِدا لوجه الله لا يُريد جزاءً مِن أحدٍ و لا شُكورا. و لقد كان في استقبالِه حالَ وُصولِه إلى الشيشان رجلٌ يُسميه خطَّاب (الشيخ فتحي) مِن العاصمة الشيشانية غروزني، و كان الشيخ فتحي أرسلَ رسالةً في بادئ الأمر إلى خطَّاب يُعلِمُه عبرها بصُعوبة الوضع في العاصمة قائلاً: «الأمُورُ هُنَا تَتغيَّرُ لَـحْظِيًّا وَ يَـومِيًّا، وَ إذَا أرَدْتَ الـدُّخُولَ فَلَا تُفكِّرْ في الـخُرُوجِ!»، فردَّ عليه خطَّاب: «إنْ شَاءَ اللهُ الَّذِي يُيسِّرُ لَنَا طَرِيقَ الـدُّخُولِ يُيسِّرُ لَنَا طَرِيقَ الـخُرُوجِ، فَنَتوكَّلُ عَلَى اللهِ وَ نَدْخُل».

فانظُروا لعِظَم توكُّل هذا القائد و صِدق لَـهجَتِـهِ و قوة عزيمَتِه!

هذا؛ و كان أوّلُ ما قام به القائد خطَّاب -رحمه الله- هو إنشاء مُعسكرٍ تدريبيٍّ لتدريب الـمُجاهدين الشباب و إعدادهم، الشيشانيين منهم و غير الشيشانيين مِن عربٍ و طاجيك و أفغان و داغستانيين و غيرهم؛ و هي الخطوة التي سنتعرَّفُ على تفاصيلها في السُّطور التالية إن شاء اللهُ تعالى..

معسكر فيدنو

طلب القائدُ سيف الإسلام خطاب مِن الشيخ فتحي خريطةً كي يُحدِّد الموقعَ المُناسِب الذي سيُنشئ فيه مُعسكَرَه التدريبي، فوقع اختيارُ القائد على المنطقة الحاضِنَة لقرية (فيدنو) الواقِعة جنوب العاصمة الشيشانية (غروزوني)، و على الحدود مع داغستان، و هي المنطقة التي ضمَّت قبل ذلك معسكرًا روسيًّا سُرعان ما تمَّ إخلاؤه، ثم بدأ الشبابُ تدريبَهم تحت قيادة خطَّاب بعد أن تجاوز عددُهم ثمانين فردًا، و هم الذين سيتخرَّجون بعد ذلك و يكونونَ قادةً لمجموعات مُجاهدة عِدَّة عبر مختلف أنحاء الشيشان!.. و يحكي القائدُ عن لقائه الأول بهم داخل المعسكر فيقول: «أذكُر في أوَّلِ لِقَاءٍ كَانَ هُنَاكَ أكْثَرُ مِنْ ثَمَانِينَ شَخْصًا.. وَ أذكُر أنني سَألتُهُمْ، وَ كَانَ يُترجِمُ لي الشَّيخ فَتحِي: هَلْ يُرِيدُ أحَدٌ مِنْكُمْ أنْ يُصْبِحَ الأمِيرَ أوْ يَكُونَ عِنْدَهُ بَرْنَامَجٌ عَسْكَريٌّ فنَسْمَعُ وَ نُطيعُ؟!.. فَسَكَتَ الجَمِيعُ، وَ كَانَ القِتَالُ مُقْبِلاً عَلَى المَنَاطِقِ الجَبلِيةِ، وَ قُلتُ لَهُمْ: أنَا لا أدَّعي العِلْمَ أو المَعْرِفةَ، أنا فَقَط عِنْدِي تَجْرِبةٌ بَسِيطةٌ في أفغانِسْتَان وَ طَاجِيكِسْتَان، فَعِنْدِي بَرنامَجٌ لَهُ ثَلاثُ خُطُواتٍ: إعْدَادُكم، ثمَّ تجهيزُكُم، ثم القِيَامُ بِعَمليَّاتٍ عَسْكَريَّة! وَ إذَا لَمْ تَجِدُونَا أمَامَكُمْ في هَذِهِ العَمَلِيَّات فَارْمُونَا بالرَّصَاصِ أوْ قُولُوا مَا تُريدُونَ».

فأُعجِبَ الشَّبابُ بكلامِ خطَّاب، و لكنَّ هذا الأخيرَ واجهَ مشكلةً لدى أولئك الشباب أفلح في إزالتها؛ ألا و هي أنَّ بعضَهم كان لا يزال يلتفِتُ إلى ما كان عليه بعضُ المُجاهدين الشيشانيين مِن انتهاج التصوُّف و التعصُّبِ له، و رغم ما في هذا الانتهاج مِن خطرٍ على العقيدة و سلامة التوحيد غيرَ أنَّ الحالَ ساعتئذٍ لم يكُن يسمحُ

بالانشغال بالتقويم و التصحيح العقدي، فالعدوُّ الرُّوسي يشُنُّ حربًا شعواء على البِلاد، و هو في انتشارٍ مستمِرٍّ بين الـجِبال و الـمُدُن يدُكُّ مواقِعَ تواجُد الشيشانيين دكًّا، فحَرِص القائدُ خطَّاب -رحمه الله- على وِحدة صفِّ الـمُجاهِدين كي تكون مُقاومة العدو سليمةً و مُتماسكةً قد الـمُستطاع، و ذلك رغم اعترافِه بأنَّه لم يكُن يعرف الصُّوفية في الشيشان و عقائدَهم و أعمالَـهم على حدِّ تعبيرِه، و كان يظُنُّ أنهم مثلَ الأفغان الذين اشتُهِر عنهم التعصُّبُ لـمذهبهم الفقهي بالـمَقام الأوَّل، و العقدي بالـمَقام الثاني.

و لنا أن نتساءل هنا: كيف استطاع القائد خطَّاب إزالة تلك الـمُشكلة؟!

الجوابُ في قوله للشباب: «أنتُم مَسْؤُولُونَ أَمَامَ اللهِ بالشَّيْءِ الَّذِي تَعْتَقِدُونَ بِهِ، وَ أنا الَّذِي يَهُمُّنِي أنْ تُصَلِي خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَ تَصُومَ شَهْرَ رَمَضَان، وَ حِفْظُ و قِرَاءَةُ القُرْآنِ، وَ العَمَلُ، وَ التَّدرِيبُ للمَعْرَكَةِ.. هَذَا أَهَمُّ شَيْءٍ عِنْدِي فِي البَرْنَامَجِ»!

لله دُرُّك أيُّها القائد خطَّاب!

ففي هذا الكلام نستشعِرُ حزْمَه تجاه الـمُنخرِطين في معسكره؛ فلا مكانَ للجِدال حول عقيدة فُلان و منهج فُلان طالـما أنَّ الوضْعَ يستلزِمُ توحيدَ الصَّفِ و الاستعداد الكامِل لـمواجهة العدو الشيوعي الـمتوحِّش، و لا موضِعَ للتخاصُم و التنازُع العبثي الـمُفضي إلى تزعزُع الصَّف و ذهابِ الرِّيح، و مع ذلك فالقائد خطَّاب كان حريصاً على تصحيح الـمُعتقَد و الدَّعوة الحسنة الـمَبنية على البصيرة مِن دون أن يُفضي ذلك إلى حدوث خَلَلٍ في الصف، و سنجدُه قد أنشأ (معهدَ القوقاز للدعوة و إعداد الدُّعاة) في الشيشان، و وصفه بأنه كان أهمَّ مِن الـمُعسكر و مِن العمل العسكري ذاته، و بفضل هذا الـمَعهد -بعد فضل الله- صحَّت عقيدةُ العشرات مِن الـمُجاهدين

الشيشانيين الذين كانوا غارِقين في التصوُّف الغالي و الشركي، فجمعوا بين صِحة العقيدة و صِحة الجِهاد، و سنأتي على الحديث عنه في الفصل الرابع إن شاء الله.

و لقد غلبَ على القائدِ خطَّاب الـجِدُّ و الحزمُ و الصَّرامةُ خلالَ تواجُده بالشيشان حتى استطاعَ تنفيذ برنامجه التدريبي الأول أحسنَ تنفيذٍ و أجودِه، و خرج مِن رحم مُعسكَرِه شبابٌ مُجاهِدون أشِدَّاءُ أذاقوا الدُبَّ الرُّوسِيَ ألوانَ العذاب، و أرهقوا كاهِلَه بين جِبال الشيشان، و هنا لابدَّ ألا نغفَلَ عن برودة الجو في بلاد الشيشان خلال تلك الفترة الربيعية على وجه الخصوص؛ فدرجةُ الحرارة كانت تبلُغُ أرقاماً عديدةً تحت الصفر على الدوام، و الثلوجُ تكسو الجِبالَ و تُغطِّيها ليلاً و نهارًا، شتاءً و صيفاً، و لم يكُن للمُجاهدين ساعتئذٍ إلَّا أيسرُ الـمُؤَنِ و أخفِّها مَـحْملاً، فاللهُّ وحدَه كان يعلمُ حقيقةَ حالِـهِم و وضعِهِم، و نسأله تعالى أن يتقبَّـلَهم و يرحمهم و يجزيَهم خيرَ الجزاء.

هذا؛ و استمرَّت الدورةُ التدريبية الأولى في معسكر القائدِ خطَّاب خمسةً و عشرين يومًا، و منها تخرَّجَ الـمُجاهِدون بعد أن تلقَّوا دروسًا عظيمةً في التنظيم و الانضباط، و الالتزام بأوامر القادة، و أصبحوا على رأس كثيرٍ مِن الـمجموعات الـمُجاهدة ضد الرُّوس في شتى أنحاء الشيشان، و قادوا الكثيرَ مِن العمليات العسكرية الـمُدوِّية ضدَّهم، و مما يدُلُّنا على عِظَم الـمجهودات الـمبذولة داخِل معسكر القائد خطَّاب أنَّه جرى -يوماً- تنظيمُ مُناورات ليلية بنوعٍ مُعيَّن مِن السِّلاح، فأحدثت هذه الـمُناورات دويًّا كبيرًا بلغَ مسامِعَ مئات النَّاس في وسط فيدنو، فصعدوا إلى الجبال مُعتقدين بأنَّ الرُّوسَ قد شنُّوا هجومًا مِن جهة داغستان، و ما أن وصلوا إلى موقع الـمُعسكر حتى تفاجأوا بأنَّ تلك الأصوات لم تكُن إلا عن الـمُناورات التدريبية الليلية التي أعدَّها القائد! فهنا ضحِكَ بعضُهُم و استطرفَ الأمرَ، و منهم مَن قال مستعجِبًا: «لِـمَـاذَا هَذَا

الإسْرَافُ؟! وَ هَذِهِ الذَّخَائِرُ كَافِيةٌ لِفَتْحِ غْرُوزنِي!!».. و هُم في واقِع الأمر لم يُـدرِكوا أهمية هذه التدريبات إلا لاحِقاً عند اشتداد الـمُواجهة بين الـمُجاهدين و الشيوعيين.

و قد وصفَ القائدُ خطَّاب تلك الدَّورةَ التدريبية بالبسيطة، و هذا تواضُعٌ منه ولا شك، رحمه الله تعالى.. و سنأتي لاحِقا على ذِكر الـمزيد مِن التفاصيل الـمُتعلِّقة بتلك الدورة التدريبية الأولى بمعسكر فيدنو إن شاء الله تعالى.

بين الزعيم و القائد

بينما الأحداثُ مشتعلةٌ في الشيشان، و مجموعةُ القائد سيف الإسلام خطَّاب تتدرَّب و تتمرَّنُ حسب برناجه العسكري المتين؛ أرادَ القائدُ لِقاءَ الشيخ فتحي و مُقابلته خارج المعسكر، فلما قدِمَ إليه تزامنَ قُدومُه مع تواجُد الزعيم الشيشاني المُجاهد جوهر دوداييف عند الشيخ فتحي، فهنا حصل اللِّقاءُ الأوَّل بين هذين العملاقين، ثم عَلِمَ جوهرٌ بالمُعسكر الذي أقامَه القائدُ بمنطقة فيدنو مُباشرةً بعد قيام المُناورات الليلية الكبيرة التي تحدَّثنا عنها قبل قليل، و أبدى إعجابَه الشديد بالقائد خطَّاب لدرجة أنَّه تساءل و هو يُشيرُ إليه: «لِمَاذَا لَا يَأْتِي أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ كَثِيرًا؟!»، فلمَّا ترجمَ الشيخُ فتحي للقائد كلامَ جوهر، قال له القائد: «الحقيقة القَضِيَّةُ غامِضَة، و النَّاسُ لَا تَفْهَمُ لِمَاذَا هَذَا القِتالُ؟ و لأجْلِ مَاذَا وَ القَضِيَّة غَيْرُ مَفْهُومَةٍ».

الزعيم المجاهد جوهر دوداييف

و قبل أن نُكمِلَ عرْضَ الحوار الذي دار بين الرَّجلين، فلنقِف قليلاً عند تساؤلِ الزعيم جوهر عن سبب قِلَّة وجود أمثال خطَّاب في الشيشان إلى ذلك الحين..

فالحقيقةُ أنَّ القضية الشيشانية ظُلِمَت و تعرَّضت للتجاهُل مِن قِبَل الأنظِمة العربية، و مورِس عليها التضليلُ الإعلاميُّ برعايةٍ مِن عدوها الروسي، و كان الوعيُ بالقضية الشيشانية لدى الـمُسلمين العرب قليلاً [٢٠]، حتى أنَّ القائد قال بالحرب الواحد: «العَالَـمُ الإسْلَاميُّ رَمَى الشِّيشَانَ»!، و إذا كانت القضيةُ الأفغانية عند الاجتياح الرُّوسي لأفغانستان سنة ١٩٧٩م قد لقيَت دعمًا مِن بعض الأنظمة العربية و الخليجية، و تمَّ العمل لأجلها في كثير مِن دول الإسلام و رفع درجة الوعي بحقيقة الوضع في بلاد الأفغان، فزحفت -نتيجةً لذلك- جموعٌ غفيرةٌ مِن الشَّباب الـمُسلم نحوها تلبيةً لِنداء الجِهاد مع إخوانهم الأفغان ضد أعدائهم الرُّوس الشيوعيين.. إذا كان الأمرُ كذلك مع القضية الأفغانية فإنَّه ليس كذلك مع القضية الشيشانية الـمَظلومة مِن الأنظمة الغربية الـمَتبوعة، و الـمَخذولة مِن الأنظمة العربية التَّابِعة، فلم تعرِف الشيشانُ مِن إقبالِ الشباب العربي الـمُتطوِّع للجهاد عليها عُشرَ مِعشار ما عرفَتهُ أفغانستانُ قبلَها، رغم أنَّ العدو الذي كان في أفغانستان هو نفسُه الذي كان في الشيشان! و لذلك سنجِد في حوار جوهر دوداييف الآتي مع القائد خطَّاب عِتابا منه و غضباً و استنكاراً لـموقف الأنظمة العربية مِن قضية بلاده، وحُقَّ له ذلك!

طلب خطَّاب مِن الشيخ فتحي أن يُجلِسَه مع جوهر و يعمل له مقابلةً بينهما.. يحكي -رحمه الله- عن حواره مع جوهر قائلا:

---

(٢٠) يكفينا فقط أن نعلم بأنَّ القناة العربية الوحيدة التي كانت تبُثُّ أحداث الشيشان و تنقلُها بشكل يومي هي قناة (الجزيرة) القطرية فقط، و أكثرُ ما كان يعلمُه الـمسلمون العرب عن تلك الأحداث إنما يأتي عن طريق هذه القناة!

«فالـجَلسَةُ كَانَ فِيهَا صَحَفيُّونَ، فَسَلَّمَ (يقصد جوهر) عَلَيْنَا بِحَرَارةٍ، وَ جَلَسْنَا جَلْسَة، فمزح معي فضربني على ظهري، فأنا تعجَّبتُ؛ شَخصِيَّةٌ تَرَى فِيهَا الوَقَارَ وَ شَخْصِيَّةٌ قَوِيَّة جِدًّا، فَجَلسْتُ مَعَهُ وَ بَدَأتُ أسْأَلُه، السُّؤالُ الأوَّلُ [٢١]:

خطَّاب: مَا هُـوَ هَدَفُ هَذَا القِتَالِ، وَ هَلْ هُوَ مِنْ أجْلِ الإسْلَامِ؟

جوهر: كُلُّ طِفلٍ شيشانِيٍّ و قَفْقازِيٍّ هُجِّر مِنَ القُوقَازِ وَ جَلَسَ فِي الـمَهجَرِ عشرات السَّنَواتِ يحلُمُ أنْ يَعُودَ الإسلامُ يومًا مِن الأيَّامِ إلى أَرْضِ القُوقَازِ، وَ أنا مَعَ هؤلاء الأطفالِ أحلُمُ أنْ يرجِعَ الإسلامُ إلى أرْضِ القوقَازِ!

خطَّاب: فصُعِقْتُ حقيقةً مِن هَذَا الـجَوابِ، وَ قُلْتُ لَهُ: طيِّب.. أنتُم كانت عندَكُم فرصةُ ثلاثِ سنواتٍ، فالرُّوسُ لم يكونوا مُوجُودِينَ مِن سنة ١٩٩١م إلى نهاية ١٩٩٤م، فلِماذا لم تُعلِنوا جُـمْهُوريَّة الشِّيشَانِ جُـمْهُوريَّةً إسْلامِيَّةً و أعلنتُمْ الإسلامَ و رتَّبتُم أمورَكُم؟

جوهر: وَ اللهِ بِقَدَرٍ ما أرَدْنَا هَذَا، أرَدْنا أنْ نهرُبَ مِن جحيمِ الرُّوس.. نحنُ كُنَّا نَعْلَمُ أنَّنا إذا انفصَلْنَا عَنِ الرُّوسِ سيهجُمُون علينا ثانِيَ يومٍ، وَ لَكِنِ كُنَّا نُحاوِلُ أنِ نُراوِغَ و نقولَ "نحنُ ديمُقراطِيُّونَ" لِنهرُبَ مِن جحيمِ الرُّوسِ، وَ لَكِنَّ الرُّوسَ علِمُوا أنَّنا في طَرِيقِ الإسْلَامِ فدخلوا عَلَيْنا.

خطَّاب: و لكنَّ العالَـمَ الإسْلامِيَّ لا يعلمُ مَا هِيَ هَذِهِ القَضِيَّة، حتى أنَّكُم لم تُسمُّوا جمهورية الشِّيشَانِ جمهوريةً إسلامِيَّةً حتى يعْرِفَ الـنَّاسُ أنَّها قضيَّةٌ إسلاميَّـةٌ.

جوهر: أنتُم لا تُريدُونَ أنِ تَعْلَمُوا ماذا يَـجْرِي داخِلَ أرْضِ الشِّيشَانِ، و لْنفترِضْ انَّ هذا الـحَدَثَ يجري في أيِّ بُقعةٍ مِن العالَـمِ؛ أَلَيْسَ واجِبًا على الـمُسلمين أن تـخرُجَ

(٢١) هذا الحِوار أنقُلُه كما هو مِن كتاب (تجربة الأنصار العرب في الشيشان) مع تصويب ما أمكنه الحال مِن الألفاظ، و قد ارتأيتُ أن أضيفَ قبل كلام كُلِّ واحِد مِن الـمُتحاوِرَيْن اسمَه كيلا يختلِطَ فهمُ القارئ الكريم.

منهم مجموعةٌ أو لجنةٌ ليَدْرُسوا هذه القضيَّةَ لِيَعرِفُوا القِتالَ بَيْنَ مَنْ وَ مَنْ و لأجْلِ مَاذَا؟

خطَّاب: فصراحةً كان هُجومًا قويًّا، و لم أستطِعْ أنْ أُكمِلَ مَعَهُ.

جوهر: أنتُم تعرِفونَ أنَّ الأحداثَ في أرضِ الشِّيشَانِ، و تَعرِفونَ أنَّها بَلدُ إسلامٍ، و أنتَ اوَّلُ مُسلِمٍ يسألُني عن هذا الأمر، في حينِ أنَّه عندما كُنَّا تحت القِتالِ و تحتَ القَصْفِ كان الصَّحفِيُّونَ مِن (...) [٢٢] و العالَم الغربيُّ كلُّه يكِعُ عند أرجُلِنا يطلُبُ مِنَّا مُقابَلاتٍ حتى يَدرُسَ القضِيَّةَ، و حتى يعلمَ لماذا نُقاتِلُ و ما هي القضية، و هل نحنُ مُسلِمُونَ أمْ نَصَارَى؟.. يعني كانت أسئلتُهُم عَجِيبةً، و هُم لم يأتوا للشِّيشانِ إلاَّ بعدَ الأحدَاثِ، و إلى اليوم انظُرِ للصَّحفِيينَ هنا؛ كَمْ واحدًا مِنهم مُسلِم؟ ولا صَحَفي مُسلم واحِد جاء لِيسألَ عن القضيَّةِ لِيَنقُلَ للمُسلِمينَ حقيقةَ الواقِعِ!!

خطَّاب: و الحقيقةُ أنا بعدها بدأتُ في الدِّفاعِ، فقُلتُ له: أنتُم حقيقةً أرضُكُم مُحاصَرَةٌ و الوُصُولُ إليكُم صعْبٌ.

جوهر: العالَمُ الإسلامِيُّ هذا كُلُّه لم يَستَطِعْ أن يُرْسِلَ وَفدًا أو لَجْنَةً أو أحَدًا لينظُرَ في قضيَّة مِن قَضَايا المُسلِمِينَ، في حينِ العَالَمُ الغربيُّ و أورُوبَّا أرسلَ وُفودًا، و الحقيقةُ أنتُم الذي يحتاجُ المُساعدةَ و ليس نحنُ.. إن شاءَ اللهُ نحن عندما تنتهي عندنا القضيَّةُ هنا نأتي لِنُساعِدَكُم[٢٣]!!

خطَّاب: فبعْدَ هَذا لَمْ أستطِعْ أن أُكْمِلَ مَعَهُ و بَدَأْتُ أرقِّعُ، فقُلتُ: إن شاءَ اللهُ نحنُ أتَيْنَا و خلَّفنا ناس كثير، و هُنَاكَ أُناس كَثيرَة صَادِقَة، و الأحدَاثُ كانَتْ سَرِيعَةً و الأمُورُ سَرِيعةٌ و كذا» اهـ.

---

(٢٢) هنا ضاعت كلمتان أو ثلاثة مِن المصدر الصوتي فلم تُعرَف.

(٢٣) كلمة قاسية و مؤلمة جدًّا مِن جوهر دوداييف، و لكنَّها كانت حقيقة واقِعة يومئذٍ، فإنا لله و إنا إليه راجِعون

ثم ذكر خطَّاب بعضًا مما كان قد صرَّح به لقناة الجزيرة في حوارٍ أجرتهُ معه قبل ذلك، فقال فيه عن جوهر: «حَقِيقةً لا أُريدُ أنْ أمدَحَ الرَّجُلَ هَذا، و لا أريدُ أنْ أزيدَ فيهِ، و لا أريدُ أن ألـمِّعَ فيه.. و لكن أقولُ أنَّ الرَّجُلَ شخصيةٌ قويةٌ جِدًّا، و لَعلَّ اللهَ ﷻ أكرَمَ شُعُوبَ القُوقَازِ بمِثْلِ هَذَا الرَّجُل».

و مهما يكُن مِن أمر؛ فقد بيَّن كلامُ الزعيم جوهر مع القائد خطَّاب عِدَّة حقائقٍ مُرَّةٍ عن واقِع القضية الشيشانية، و خِذلان الدول العربية الـمُسلمة لها مِن كل الجوانب، و لا شكَّ في أنَّ قولَه: «العالَـمُ الإسلامِيُّ هذا كُلُّه لم يَستَطِعْ أن يُرْسِلَ وَفدًا أو لَـجْنَـةً أو أحَدًا لينظُرَ في قضيَّة مِن قَضَايَا الـمُسلِمِينَ، في حِينِ العالَـمُ الغربيُّ وَ أورُوبَا أرسَلَ وُفُودًا» سيبقى شاهِدًا تاريـخيًّا مؤلِـمًا على خِذلان الأنظمة العربية أهلَ الشيشان في مواجهتهم للدب الروسي الشيوعي الـمتوحِّش، و الله الـمُستعان.

عملية خاراتشوي

قبل أن نستعرِضَ تفاصيلَ هذه العملية الجريئة التي قادها سيفُ الإسلام خطَّاب ضد الرُّوس لأوَّل مرة، و هي عملية خاراتشوي، ينبغي أن نذكُر -على سبيل الإيجاز- حدَثَيْـن مُهِمَّيْـن سبقا تنفيذ تلك العملية:

عملية بوديونوفسك: في ١٥ محرم ١٤١٦هـ/ ١٣ يونيو ١٩٩٥م قاد الـمُجاهد الكبير شامل باساييف مجموعةً مِن الـمُجاهدين عددُهم ١٤٣ مُجاهِدا، و شنَّ بهم هجومًا مُباغِتا على أحد الـمستشفيات الرُّوسية في داخل روسيا، و استطاع أسرَ ٥٠٠ رهينةٍ و السَّيطرة على كامِل الـمُستشفى الواقِع في مدينة بوديونوفسك الروسية، فردَّت روسيا على ذلك بقصف الـمدينة و الـمُستشفى -و بداخلها الـمُجاهدون و الرهائن معًا- مِن دون أن تنجح في إجبار شامل على إطلاق سراح الرَّهائن، فأُرغِم رئيسُ الوزراء الروسي يومئذٍ (تشيرنوميردين) على إجراء مُكالـمة هاتفية مُباشرة مِن مقر الكرملين مع شامل بُغية التوصُّل إلى إنهاء العملية، فوافق شامل على الانسحاب وِفق بعض الشروط، و خرج الـمُجاهدون و معهم ١٩٠ رهينةً مِن بينهم ١٦٠ صحفيا، و سار موكِبُهم في سبع حافِلات تُجانِبُها الدبابات الروسية و تعلوها الـمروحيات تأمينا للمُجاهدين حسب ما جرى عليه الاتفاقُ بين شامل و روسيا، و لما وصل الـموكبُ إلى داغستان تم الإفراجُ عن الرَّهائن الرُّوس سالِـمين لم يُصِبهُم شامل و أصحابُه بأدنى سوء، و قد انحنى شامِل أمام أولئك الرَّهائن و قال لهم: «سَامِـحُونِي، سَامِـحُونِي، سَامِـحُونِي» ثلاث مرات، و أكَّد لهم أنَّه كان مُضطَرًّا إلى أسْرِهم و الارتهان بهم.. و بذلك استطاع تقديم الصورة الحقيقية الـمُشرِقة للـمُجاهِدين في

الشيشان أمام العالَم، و هم الذين كانت روسيا تصِفُهم بالإرهابيين، و تحرِصُ على تعميم هذا الوصف أمام الرأي العام العالَمي بكامِل ترسانتها الإعلامية.

القائد المجاهد شامل باساييف يجلس داخل مستشفى بوديونوفسك في انتظار التوصل إلى اتفاق مع قادة الروس يقضي بانتهاء العدوان الروسي على بلاد الشيشان

الانتخابات الشيشانية: كان مِن المُفترَض أن ينسحب الرُّوسُ مِن الشيشان حسب الاتفاق الذي أبرَموه مع شامِل إثر عملية بوديونوفسك بتاريخ ٤ ربيع الأول ١٤١٦هـ/ ٣١ يوليو ١٩٩٥م، و لكنَّهم أصَرُّوا على إجراء الانتخابات في الشيشان قبل تنفيذ الانسحاب، و رغم أنَّ عدد النَّاخِبين الشيشانيين كان أكبرَ مِن عدد الناخِبين الرُّوس إلا أنَّ الانتخابات أفرزَت تعيين العميل الشيوعي (دوكوزا ماخاييف) رئيساً لحكومة البلاد في العشر الأواخِر مِن شهر نوفمبر، و هنا أوقفَ المُجاهدون المفاوضات و حملوا السِّلاحَ مُجدَّدا بعد أن انكشفَت لهم نوايا العدو الخبيثة مِن وراء إجراء الانتخابات، و استأنفوا عملياتهم العسكرية القوية ضد الشيوعيين.

و بعد.. ففي فترة انعقاد الـمُفاوضات بين مُـجاهدي الشيشان و روسيا بعد عملية بوديونوفسك، و التي استمرَّت لوقتٍ طويلٍ؛ وَجَدَ القائدُ خطَّاب في تلك الفترة فُرصةً ذهبيَّةً تضمنُ الإعدادَ الكافي للـمُجاهدين بدنيًّا و نفسيًّا، و استطاع شراء احتياجات مُعسكره مِن الأسلحة و الذخائر و الـمُعدات الحربية، و بعد ذلك قرَّر -رحمه الله- الشُّروع في تنفيذ الهجمـات على مواقِع العدو الرُّوسي، و قد عارَضه في البداية كثيرون بحُجة أنَّهم لا يزالون مُنخرطين في البرنامج، و لكنَّ القائد أصرَّ على موقِفِه و أعربَ عن مَلَلِه مِن طول الترصُّد و الـمُكوث بلا تحرُّكات ضد العدو.

تقعُ خاراتشوي في جنوب منطقة فيدنو، و كان الرُّوسُ قد أقاموا فيها مُعسكرًا لهم و مشَّطوها تَـمْشيطًا، و في أوائل شهر جمادى الآخر ١٤١٦هـ/ أواخر شهر أكتوبر ١٩٩٥م باغتَ القائدُ خطَّاب و أصحابُه إحدى قوافِلِهم بهجومٍ قويٍّ غيرِ متوقَّع، و استطاعوا تدمير ٥ آلياتٍ ثقيلةٍ و القضاء على ٤١ روسيًّا شيوعيًّا، و مِن ضمنِهم ٥ ضُبَّاط، و غنِموا أسلحَتهم و متاعَهم و ما يصلُحُ مِن الـمَؤونة، فانطحَن الرُّوسُ -كما عبَّر خطَّاب- طحنًا، و فتَّ ذلك الـهُجوم الخطَّابي في عضُدِهم بشدة.. و في الـمُقابِل جُرِحَ خطَّاب جُرحًا بسيطًا هو و أحدُ القادة في مجموعته إثر انفجار إحدى آليات العدو التي كانت مُـحمَّلةً بالذخائر، و لكنَّ العملية في الأخير انتهت بانتصار الـمُجاهدين مِن دون أن يسقُط واحدٌ منهم، و لله الحمد.

بينما العجيبُ هو أنَّ أحدًا مِن القيادات في روسيا أو في الشيشان لـم يستطع معرِفَة مُنفِّذ العملية إلا بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام حين أعلن عن ذلك الإعلامُ الرُّوسي بمختلف وسائِلِه!

لقد قدِمَ خطَّاب إلى الشيشان في ربيع ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، و قام بتنفيذ أول عملية عسكرية بقيادته في أكتوبر مِن نفس العام، أي أنَّه صبرَ لأكثر مِن خمسةَ شهورٍ على

الأقل كانت طافِحةً بالتدريب و الإعداد و التحمُّل و محاولة التأقلُم مع الظروف الصعبة، و لم يتعجَّل شنَّ العمليات ضد العدو رغم سخونة الأحداث في البلاد.. فلما شنَّ أولى عملياته نجح فيها نجاحاً كامِلاً بلا خطأ و لا زَلَل، و هذه نقطةٌ تُحسَب له رحمه الله تعالى رغم ما ذكره عن وُجود هيبة للآليات الروسية في نفسه و نفوس المُجاهدين! و لكنَّ الله نصرهَم و سلَّمهم في الأخير [٢٤].

مشاهد من عملية خاراتشوي و تدمير المجاهدين لقافلة روسية و هلاك كل من فيها

[٢٤] تجدُرُ الإشارة إلى وُقوعِ عملية (الذئب الوحيد) بعد عملية خاراتشوي بأيام؛ حيث نُفِّذت في الثاني عشر مِن يناير ١٩٩٦م، و كان قائدُها هو المُجاهد البطل سلمان رادويف الذي كان يبلُغ مِن العُمر ساعتئذ ٢٨ سنة، و هو صِهرُ الزعيم جوهر دودايف بالمُناسبة، و كانت عملية الذئب الوحيد مِن أكبر العمليات الشيشانية ضد الروس خلال الحرب الأولى، و نجحت نجاحاً باهِرا، و قد احتوت على تفاصيل رائعة و مهمة جديرٌ بالقارئ الكريم أن يطَّلِع عليها.

عملية سرجنيورت

بعد نجاحِهم في تنفيذ هجوم خاراتشوي..

عاوَدَ القائدُ خطَّاب استجماعَ أفراد مجموعته و الاستعداد لتنفيذ هجوم ثان، مع التَّصميم على أن يكون أشدَّ أثرا و تدميرا في جيش العدو مِن الهجوم الأول، فبقَوا أكثر مِن أربعة أشهر يترصَّدون بغية الإيقاع بقافِلةً روسيةً أخرى لسحقِها، حتى حلَّ اليوم الأخير مِن شهر مارس؛ حين قرَّر الرُّوسُ الزَّحفَ نحو جِبال فيدنو الشمالية و شنِّ هجومٍ كبيرٍ جدًّا على مواقِع المُجاهدين، و كانوا -لعنهم الله- لا يُفرِّقون في هجوماتهم بين المدنيين العُزَّل و المُجاهدين المُسلَّحين، فنجدُهم يرتكبون المجازِر و المذابِح البشعة الكثيرة في حقِّ الشعب الشيشاني بلا رحمة.. و بمجرَّد أن بلغَ خطَّابَ أنباءُ ذلك الهجوم الرُّوسي الكبير راح يستعِدُّ الاستعدادَ الأخير قبل الضَّرب المُباغِت.

و يقول خطَّاب أنَّ القافلة التي سُحِقَت في سِرْجِنيورت تتبعُ (الأسِتِين)؛ و الأسِتِين هؤلاء هم عُملاء قوقازيون لا روس، و فيهم مِن الخُبث و الشَّر أكثر مما في الأعداء الرُّوس أنفسهم، و كان قادةُ روسيا أذكياء -مثل قادة بعد الدول الاستخرابية الأوروبية الأخرى- حينما استعانوا بأولئك على المُجاهدين، و قد جرَت العادةُ في الحقبة التي شهِدَت غزوَ الدول الأوروبية الاستخرابية على مُعظم بلاد الإسلام في الماضي القريب أن يُستعان بالأقليات العِرقية أو الدينية ضد الأكثرية العربية و المُسلمة، و تكون هذه الأقليات قنبلةً في يد العدو الكافِر يرمي بها

الـمُسلمين في أحرج الأوقات و أخطر اللحظات، فتنفجِر نارًا تلتهِمُ دينَهم و أعراضَهم و هويتَهم، و تُـخلِّفُ رمادًا مِن الفِتَن يضيعُ فيها الـمسلمون ضياعًا، و لكنَّ أفضلَ وقت يستعين فيه الـمُستخرِب الأوروبي مِن تلك الأقليات هو ما بعد خروجه مِن البلاد الـمسلمة، حيث يوكل إليها حُكمَها مِن بعده و يجعلها ستارًا له يُديرُ مِن خلفِه شؤونَ البِلاد خِفيةً.. و الـمقصودُ هو أنَّ الأسِتِين كانوا طائفةً خطيرةً على الشيشان خلال الحرب مع الرُّوس، و يُـحدِّثنا القائدُ خطَّاب رحمه الله عنها فيقول:

«وَ الرُّوسُ الـخُبثَاءُ كَانُوا يَضَعُونَ الصَّلاحِيَاتِ لِلْجُنودِ الأسِتِينِ وَ غيرِهِم مِنْ هَذِهِ الفِرَقِ في اسْتِخْدَامِ الـمُخدِّراتِ، وَ اسْتِخْدَامِ الـخَمْرِ، وَ الاعتِدَاءِ عَلَى النِّسَاءِ، وَ سَرِقةِ أيِّ شيءٍ؛ في حِينِ أنَّهُمْ لا يَسْمَحُونَ بِشَيءٍ مِنْ هَذَا لِلْجُنُودِ الرُّوسِ!.. فهُمْ يُرِيدُونَ أنْ تَكُونَ هُنَاكَ مَشَاكِلٌ وَ فِتَنٌ فِيمَا بَعْدُ دَاخِلَ الشَّعْبِ القُوقَازيِّ و الشَّعْبِ الشِّيشَاني، و الفِرَق التي مِن القُوقَاز يُعطُوهُم الصَّلاحيات ليَفعَلُوا أيَّ شَيءٍ، في حِينِ الجنودُ الرُّوسُ لا يَفْعَلُونَ شيئًا، فهُم يُـخطِّطون بَعِيدًا، حَتَّى إذا خَرجَ الرُّوسُ مِن هُنا تَكُونُ هُنَاكَ مَذَابحٌ و تقاتُل بين الشَّعبِ الأسِتيني و الشَّعبُ الشيشاني.. فالفِرقة الأسِتينية عَبَثت عبثًا كثيرًا داخِلَ الشيشان، قَتلَتْ وَ حَرَقَت الكَثِيرينَ، وَ الـخُبثاءُ في القِيَادةِ الرُّوسِية تُـفكِّـرُ بهذه الطَّريقَة، و إلى الآن الفِرْقةُ الأسِتينية تُقاتِلُ في داخِلِ الشِّيشَانِ».

و أما خسائـرُ الـمُجاهدين في موقعة سِرْجِنْيُورْت فيذكُرُ القائد: «و قُتِلَ لنَا في هَذِهِ الـمَعْركَةِ أرْبَعةٌ مِن خِيرَةِ الإخوَة نَسْألُ اللهَ أنْ يتقبَّلَـهُم، ثمَّ في الصَّبَاحِ استُشهِدَ لنا خَـمْسَةٌ، و جُرِحَ واحِدٌ و عِشْرُونَ مِن الإخْوَةِ.. و الجرُوحُ كَانَتْ خَفِيفَةً، وَ كَانَتْ كُلُّها بِسَبَبِ أخْطَاءٍ؛ كَانُوا دَخَلُوا ليُقطِّعُوا رُؤوسَ الجنودِ الرُّوسِ فكَانَ أكثَرَهُم يُمسِكُونَ قَنَابِلَ».

إنَّ عملية سِرْجِنْيورت قد وُثِّقت مرئيا و صوتيا بأمر مِن القائد خطَّاب الذي كان حريصا على توثيق أغلب تـحرُّكاته و عملياته بآلة التصوير (الكامِرا Camera)، و الذي يرى مَشهد الـعملية الـمُوثَّق سيُدرك دِقَّة التخطيط لديه، و إتقان التنفيذ، و ضبط الحركة، و حُسن التمركُز، وصبره على الترصُّد و الـمُراقبة، و لذلك فلا عجب أن ينجح في الفتك بالقوة الرُّوسية الكبيرة طيلة سنوات ما دام على تلك الخصائص العسكرية الـمُهمة، و قبل ذلك كله ما دام و أصحابُه على الإيمـان الرَّاسخ الذي لا يُزعزِعُه شيءٌ في الأرض مهمـا عَظُم!.. و قد تسبَّبت عملية سِرْجِنْيُورْت في إرباك بوريس يلتسن و قيادته العسكرية، و ازدادَ بسببها قَـلَقُـهُم الحاصِل إثر توالي ضربات الـمُجاهدين الـموجِعة عليهم في مختلف أنحاء البلاد؛ فأعداد القتلى و الجرحى مِن جنودهم في ارتفاع مُستمِر، و حجمُ خسائر آلياتهم العسكرية الثقيلة مِن الفداحة بمكان، سواءً ما يُدمِّرُه الـمُجاهدون أو ما يغتنموه و يكون في حوزتهم، هذا زيادةً على الأزمتين السياسية و الاقتصادية الخانِقتين اللتين كانتا تُضيِّقان على يلتسن أنفاسَه و تضعانِه في أصعبِ الـمواقِف، رغم أنَّ يلتسِن -في حقيقته- لم يكُن مُبالِيا كثيرا بكلِّ ذلك، بل كان طاغيةً جبَّارا مُتغطرِسا يغلُبُ على شخصيته الكِبرُ و الغُرورُ و العَندُ، و لم يؤمِن في سبيل قضيته مع الشيشان إلا بالقوة، فلم يكُن صاحِبَ ذكاء و رجاحةِ عقل و حِسٍّ دبلوماسيٍّ كثيرًا، و مثلُه خَلَفُه الـمُجرم الأكبر فلاديمير بوتين لعنه الله، على أنَّ بوتين يفوقُ الأولَ ذكاءً و سياسةً.

و بعد عملية سِرْجِنْيُورْت، جاءَ موعدُ عملية شاتوي الأقوى أثـرًا على العدو مِن سابِقاتِها!

عملية شاتوي

يُطلَـقُ على هذه العملية أيضًا اسمُ (ياريش ماردي) أو (يارِشْمَرْضِي) نسبةً إلى الـمكان الذي وقعت فيه داخل شاتوي في منطقة فيدنو، و كان تاريخُ وُقوعِها يوم ١٦ أبريل ١٩٩٦م، إلا أنَّ البعضَ يذكُر أنَّ أولى العمليات العسكرية التي شارك بها خطَّاب و مجموعتُه في الشيشان كانت عمليةَ ياريش ماردي أو شاتوي.. و هنا نُوضِّحُ بأنَّ أول مُشاركة عسكرية ميدانية للقائد سيف الإسلام خطَّاب -رحمه الله- كانت في وقعة خاراتشوي شهر أكتوبر ١٩٩٥م، كما ذكر هو بنفسه، و هو الذي أثبتناه في هذا الكتاب، و لذلك فالقولُ بأنَّ عملية ياريش ماردي كانت العملية العسكرية الأولى له في الشيشان خطأٌ لا يصِح. و تجدُرُ الإشارة إلى أنَّ منطقة ياريش ماردي في شاتوي شهِدَت وُقوع أكثر مِن عملية شيشانية ضد الرُّوس عليها خلال الحرب الأولى.

و الـمُهِمُّ أنَّ شهرًا لم يكُن يمرُّ بعد الغزو الرُّوسي لبلاد الشيشان إلا و يزداد معه الرُّوسُ قلقًا مِن وضعيتهم فيها، و ندمًا على تورُّطِهم بالدخول في الحرب ضد الزعيم الـمُجاهد جوهر دوداييف و مِن ورائه الشعب الشيشاني الـمُسلم كُلُّه، و مِن جهة أخرى ظلَّ الرئيس بوريس يلتسِن على مبدأ التعامُل مع مشكلة الشيشان بالحل العسكري قبل السياسي، و تبعا لهذا ارتفعت وتيرةُ الهجمات ضدَّ قواتِه داخل الشِّيشان، ثم جاء هجومُ شاتوي الكبير بقيادة الأسد خطَّاب ليُعلِن عن قُدرة الـمُقاومين الهائلة على الفتك بالآلة الحربية الرُّوسية رغم الفارِق الواسع بين الطرفَيْن!

بلغ خطَّابًا أنَّ رِتلاً عسكريا روسيًّا كبيرًا شرعَ في مُغادرة التراب الشيشاني قاصِدًا الرُّجوعَ إلى الديار، و قد كان يتألَّفُ مِن ٥٠ آلية و ٢٥٠ جنديا مِن ضمنهم ٣٠ ضابِطا ذوي رُتَب عالية.. و هنا نشطت روحُ البطولة في نفي خطَّاب مِن جديد على أمل القضاء الكامِل على ذلك الرتل العسكري الرُّوسي، فانطلق مِن معسكره بفيدنو رفقة ٥٠ مِن أصحابه و الـمُتدرِّبين على يدَيه، فكان يتقدَّمُهم بنفسه كما وعدَهُم لـمَّا قالَ لهم يوم إنشائه معسكرَه: «إذَا لَـمْ تَـجِدُونَا أمَامَكُمْ في هَذِهِ العَمَلِيَّات فَارْمُونَا بالرَّصَاصِ أوْ قُولُوا مَا تُريدُونَ»، و لـما وصل إلى منطقة ياريش ماردي الجبلية بدأ يُخطِّطُ للكمين، أو فلنقُل: بدأ يُجسِّد ما خطَّط له سابِقًا حينما بلغه نبأُ خروج جزء مِن القوات الرُّوسية.

بدأت مجموعةُ القائد خطَّاب بزرع الألغام على طول طريق ياريش ماردي الذي سيشهدُ عُبور الرتل العسكري الرُّوسي الكبير عبره، ثم قام بتقسيم تلك الـمجموعة إلى عِدَّة مفارِز، و جعل على كُلِّ مفرزة قائداً، و أوكلَ إليها عملاً خاصًّا بها، و أمَرَ الجميعَ بأن يترقَّب تكبيرته عبر الجهاز اللاسِلكي لبدأ الهجوم..

ثم كبَّر القائدُ..!

فثارت منطقةُ ياريش ماردي و التهبَت، و انهمرت سماؤها بزخَّات الرَّصاص و انغمرت، و توالت الانفجارات وسط العدو الرُّوسي لدقائق عديدة كانت كالساعات عند الرُّوس، فصاح صائحٌ منهم عبر اللاسلكي طالِبًا الـمَدَدَ مِن دون توجيه لأحَدٍ، و ذلك لِفرط الذُّعر الذي تـملَّكَه! و قد نتج عن هذه العملية نفوق ٢٢٣ جندي

روسي[٢٥]، مِن بينهم ٢٦ ضابِطا، و أمَّا الآليات الخمسون فدُمِّرت عن آخِرِها تدميرًا!.. فأعظِم به مِن هجومٍ خطَّابي ساحِق!

هذا؛ و لم تكُن أهـميةُ عملية شاتوي تكمُنُ في حجم تلك الخسائر الفادِحة فقط، بل و كذلك في الأثَر التي أحدَثْـهُ على مستوى القيادة العسكرية في الدولة الروسية، فلقد دفعت تلك العمليةُ بوريس يلتسن إلى أن يُعلنها بنفسه لبرلـمـان دولته و شعبه، بل و إلى أن يُقيلَ ثلاثةَ جنرالات روس كِبار دُفعةً واحِدةً!

و الحقيقة الرَّاجِحة أنَّ الاستخبارات الرُّوسية لم تستطِع معرفةَ مُنفِّذ العملية إلا بعد مرور بِضعة أيَّام، تماما مثلما حدثَ بعد عملية خاراتشوي في ديسمبر مِن عام ١٩٩٥م، و لربما ذلك الذي دفعها لتُدبِّر عملية اغتيالٍ ناجِحة للزعيم الـمُجاهد جوهر دوداييف في ٢١ أبريل ١٩٩٦م، أي بعد خمسة أيام فقط مِن وقوع هجوم شاتوي الخالِد!! و العلم عند الله تعالى.

(٢٥) بينما جاء في التقرير الذي أعدَّته قناةُ الجزيرة حول القائد خطَّاب بعد وفاته سنة ٢٠٠٢م أنَّ عددَ قتلى الرُّوس في العملية قاربَ الـمئة بلا تحديد مضبوط له، و لعلَّ القناةَ قد نقلت هذه الحصيلة عن الإعلام الرُّوسي الذي اعتاد على تقليل حصيلة خسائره الحقيقية في الجنود و العتاد، و هو ما كان يفعله أيضا خلال الحرب الأفغانية .

نهاية الحرب الأولى

التاريخ: ٢١ أبريل ١٩٩٦م.

الساعة: العاشِرة و النصف مساءً (PM ٢٢:٣٠) مِن التاريخ المذكور.

الموقع: قرية (جاخي-تشو) جنوب الشيشان.

الحدث: اغتيالُ الزعيم الشيشاني المُجاهد جوهر دودابيف إثر غارة جوية روسية، و قد جرى ذلك بعد رصدِه و تحديد موقعه بواسطة جهاز مُتطوِّر لرصد المُكالَمات كان بحوزة استخبارات العدو، و هذا الجهاز أهداهُ الرئيسُ الأمريكي المُجرم بيل كلينتون للرئيس الرُّوسي بوريس يلتسن.

لقد كان اغتيالُ جوهر حدثًا أليمًا و مؤسِفًا لدى الشعب الشيشاني و كافة الشعوب المُسلمة، و التي كانت تراه زعيمًا مُجاهِدا شريفا صاحِبَ قضية عادِلة، و ذا شخصية قوية وقفت بالمرصاد أمام الإرهاب الرُّوسي تحدِّياً و مُقاومةً.. و بعد الاغتيال بثلاثة أيام فقط جرى اختيارُ القائد المُجاهد (زليم خان ياندربايف) رئيسا للبلاد بصفة مؤقتة باتفاق القادة الشيشانيين، بل إنَّ زوجَ جوهر أكَّدت أنَّه كان ينوي ترك رسالة للشيشانيين فيها وصيةٌ بتعيين ياندربايف خلفاً له، و لكنَّ الوقتَ لم يسَعْهُ.. ثم واصلت المُقاومةُ نشاطَها بقوة رغم وفاة الزعيم الأول جوهر، و ذلك على المستوى السياسي و العسكري معًا، و ظهرَ أنَّ ياندربايف ليس أقلَّ عداءً للشيوعيين مِن جوهر.

و بعد اقتراب موعِد الانتخابات الرئاسية الرُّوسية صرَّح الرئيس بوريس يلتسِن بأنَّه ينوي إنهاء الحرب الرُّوسية-الشيشانية و بدء التفاوُض، و تمَّ عقدُ لقاء مُباشر

لأول مرة بينه و بين الزعيم الشيشاني الجديد زليم خان ياندربايف في ٢٧ ماي ١٩٩٦م بالعاصمة الرُّوسية موسكو، و تمَّ التوصُّل إلى وقف العمليات العسكرية في الشيشان ابتداءً مِن الفاتِح يوليو تـمهيدًا لإجراء مفاوضات سياسية، و اتُّفِقَ على تبادُل الأسرى بين الطَّرفَين خلال مدة لا تتجاوز الأسبوعَيْن.

الزعيم الشيشاني الثاني زليم خان يندربايف

ثم أعلن يلتسن قرارَ سحب وحدات بلادِه العسكرية مِن الشيشان على مراحِلٍ بالتدرُّج، و لكنَّه لـمَّا ضمِنَ النجاحَ في الانتخابات و نال عُهدةً رئاسية ثانيةً نقَضَ الاتفاقَ الـمُبرَم بشأن وُجود قواته في الشيشان، و اكتفى بإجراء بعض التعيينات و الإقالات داخِل الجيش الرُّوسي، مع انسحابٍ مُعتبر للجيش مِن بعض الـمناطِق الجبلية داخل الشيشان.. على أنَّ الجميعَ فطِنَ إلى أنَّ روسيا ترمي إلى كسب الوقت و

خداع الناس فقط عبر تلك الـمِفاوضات و تلك الإجراءات البارِدة، فجاءها الرَّدُ قاسِيًا جِدًّا مِن أسود الشيشان!

ما أن أشرقت شمسُ السادِس مِن أغسطس ١٩٩٦م حتى استيقظ العالـمُ على خبر غزو مُجاهدي الشيشان للعاصمة غروزني تحت قيادة البطل العملاق شامل باساييف، مع غزوِ مُدنٍ شيشانية مُحتلَّة أخرى في ذات الوقت، فحققَّوا انتصارات باهِرة، و أخضعوا ملاحِدةَ الرُّوس و كسروهم، و سيطروا سيطرةً شِبه كامِلة على غروزني و الـمُدن الـمهمة الأخرى، و مِن جهة أخرى لم تستطِع روسيا الرَّد على هذا الهجوم إلا بارتكاب الـمجازِر البشعة في حق الأبرياء و العُزَّل خارج العاصمة، و لم تُفلِح في ثني الـمُجاهدين عن السيطرة عليها.. و أما القائد العربي سيف الإسلام خطَّاب فرغم أنه لم يُشِر إلى مُشاركتِه في عمليات تحرير الـمُدن الشيشانية شهر أغسطس، إلا أننا لا نشُكُّ في أنَّ تلامذته و أبناء مُعسكره -على الأقل- كانوا في مقدمة مَن كانوا تحت قيادة شامل باساييف و سلمـان رادويف و غيرهم، بل و مِن الـمُرجَّح أنَّ مِن تلاميذ خطَّاب مَن كان قائدًا لعملية مِن تلك العمليات التحريرية.. و قد تـمكَّن الـمُجاهدون لدى دخولهم غروزوني مِن تطويق ٧،٠٠٠ جندي روسي، فقتلوا منهم ٢٠٠، و جُرِح ٤٠٠ آخرون، و أُسِرَ البقيةُ فلم يُفلِتْ منهم أحدًا، و كذلك تمَّ الاستيلاءُ على مقر الحكومة الشيوعية الـمحلية العميلة و إلقاء القبض على أعضائها.

و بعد النجاح في تحرير غروزني و غيرها أكَّد شامل باساييف استعداد بلادِه لبدء الـمفاوضات مع الرُّوس، و هذا الذي لـم يجِد بوريس يلتسن بُدًّا مِن قبوله مُرغمًـا، فكان الـمُفاوِض مِن جانب الشيشان رئيس الأركان الـمُجاهد (أصلان مسخادوف) و مِن جانب العدو الجنرال (ليبيد) سكرتير الـمجلس القومي الرُّوسي الجديد، فاتفقا على وقف إطلاق النار يوم ١١ أغسطس، و لكنَّ الرُّوس نقضوا الاتِّفاق -كعادتهم-

فجاء الرَّد قاسيًا مرةً أخرى مِن الـمُجاهدين عبر تكثيف الهجمات و العمليات، فأُرغِمَ الرُّوسُ على عقد الـمفاوضات -مُـجدَّدًا- مع استمرار الـمُجاهِدين في شنِّ هجماتهم على العدو، ثم تمَّ توقيعُ معاهدةٍ بين أصلان و ليبيد بمدينة (خاسيا فورت) الحدودية مع داغستان في ٣٠ أغسطس، و جرى الاتفاقُ فيها على وقف إطلاق النار فورا مع الانسحاب جزئيًّا للقوات الرُّوسية مِن أرض الشيشان، و بذلك انتهت الحرب الروسية-الشيشانية الأولى بانتصار عظيم حقَّقه الطرفُ الثاني بفضل الله تعالى، ثم بفضل رجالٍ نُبلاء ثابِتين على الـمبدأ يتصدَّرُهم جوهر دوداييف، و شامل باساييف، و سلمـان رادويف، وعربي براييف، و أصلان مسخادوف، مِن دون أن ننسى القائدان العربيَّان الشَّهمـان سيف الإسلام خطَّاب، و أبو الوليد الغامِدي.

و مِن الـمُناسب هنا أن نذكُـرَ بعض الإحصاءات و النقاط الـمهمة عن الحرب الأولى بين روسيا و الشيشان:

- تراوَح عددُ الجنود الرُّوس الإجمالي الذين شاركوا في الحرب ضدَّ الشيشان بين ٣٠٠-٤٠٠ ألف جندي[٢٦] بمختلف رُتَبِهم، بينما لم يتعدَّ عددُ الـمُقاومين الشيشانيين و الـمُنضمِّين إليهم مِن باقي منطقة القوقاز ٢٠ ألفا، و أما الـمُتطوِّعونَ العربَ فقد كانوا قِلَّةً يتراوحون بين ٤٠-٥٠ مُجاهِدًا، و على رأسهم القائدان خطَّاب ثم أبو الوليد.
- أنفقت روسيا في هذه الحرب أكثرَ مِن ٥ ملايير دولار في وقتٍ كانت تُعاني مِن مشاكِل اقتصادية و اجتماعية خانِقَة.. و في الـمُقابل قارب حجمُ الخسائر التي نزلت بالشيشان الـ١٥٠ مليار دولار.
- هلك مِن الجانب الرُّوسي أكثر مِن ١٥,٠٠٠ جندي، و فُقِد الآلاف سِواهم، و خسروا ٧٢٩ سيارة عسكرية و مُصفَّحة، و ١٠٨ دبابات، و أكثر مِن ٢٠ مروحية، و قريبٌ مِن

(٢٦) و كانت روسيا قد بدأت الحرب بـ١٥٠,٠٠٠ جندي قبل أن يتضاعف هذا العدد و يربو عن الضِّعف.

هذا العددُ مِن الطائرات الـمُقاتلة بمختلف أنواعها، إضافةً إلى الآلاف مِن الجرحى و الـمعوَّقين ذِهنيًّا و بدنيًّا و الـمُصابين بالعُقد و الأمراض النفسية.

- مما كشف وجهَ روسيا البشِع و خلفيتها الإرهابية في حربِها ضد الشيشان أنَّ عددَ ما قتلته مِن الـمدنيين الشيشانيين الأبرياء العُزَّل زاد عن ١٠٠,٠٠٠ مُعظمهم مِن الشيوخ و النساء و الأطفال، بينما سقط على يديها مِن الـمُجاهدين الـمُقاومين لها ٤ آلاف شخص! و بذلك فإنَّ ما نسبته ٩٦,٢% مِن إجمالي مَن قتلتهم روسيا كان مِن الـمدنيين لا مِن الـمُقاتلين!!
- صرَّح نائبُ وزير الخارجية الشيشاني و مُستشار الزعيم جوهر دوداييف (سيد أحمد) أنَّ الـمُقاومة الشيشانية لم تتلقَّ أيَّ مُساعدة مِن الدول العربية ما عدا كميات مُعتبرة مِن الألبسة و الأغذية و الأدوية، و أما الـمُساعدات العسكرية و الـمالية لم يتلقَّوا منها شيئا من تلك الدول.. و أكَّدَ أنَّ الـمُساعدات التي وصلت الـمُقاومة مِن بعض الدول الغربية كانت أكبر مِما قدَّمته لها الدول [٢٧] العربية!!

وبعد.. فهذا ما جادَ به قلمُنا مِن ذِكر قصة الحرب الشيشانية الأولى بالعموم، و بالخصوص أخبار و أعمال القائد الـمُجاهد خطَّاب خلالها؛ بين: مارس أو أبريل١٩٩٥-أغسطس١٩٩٦م، و إنَّ ما ذكرناه مِن عمليات عسكرية قادها -رحمه الله- إنما هو أهمُّها و أبرزُها، و إلا فإنَّ هنالك عمليات أخرى غيرها قادَها لم يتسنَّ لنا الوقوفُ على تفاصيلِها الأساسية و تواريخها الزمنية، إضافةً إلى مُشاركة تلامِذته و

(٢٧) و كل الـمُساعدات التي وردت إلى الشيشان -على التحقيق- كانت زهيدةً شحيحةً لا تُعبِّر إلا عن تواطؤ ما يُسمى (الـمُجتمع الدولي) الـمُنافق على خذلان القضية الشيشانية، و أما حالُ الأنظمة العربية فمعروفٌ في هذا الزمان، و اللهُ الـمُستعان، مع العلم بأنَّ الـمُساعدات القليلة التي تلقَّاها الشيشانيون مِنها كانت مِن تقديم اللجان الشعبية في الدول العربية لا مِن أنظمتها!

أبناء مُعسكره في شنِّ الكثير مِن العمليات؛ إما قيادةً لها و إما انخراطًا فيها تحت قيادة بعض القادة الشيشانيين الـمُجاهِدين الآخرين، و الذي نستخلصه أنَّ أثَـرَ القائد العربي خطَّاب -رحمه الله- عسكريًّا في تلك الحرب الأولى كان كبيرًا يُوازي أثَـرَ الزعيم جوهر و القائد باساييف، رحمة الله على الجميع.

القائد خطاب مع القائد باساييف

الفصل الثالث:
الحرب الشيشانية الثانية..

- ما بعد الحرب الأولى
- اندلاع الحرب الثانية
- خطاب و الانسحاب الأسطوري
- و حان وقت الرحيل
- أبو الوليد الغامدي في الواجهة
- و مات خطاب

ما بعد الحرب الأولى

بعد توقيع اتفاقية خاسيا-فورت ترسَّمَ انتهاءُ الحرب بين روسيا و الشيشان، فبدأت هذه الأخيرة تتخذ إجراءات تضميد الجراح التي سبَّبتها الحربُ على كافة الأصعدة، فتمَّ إصلاحُ ٤٠% مما دُمِّر مِن البِنى التحتية، و المباني الحكومية، و المطارات، و المراكز الاقتصادية و الاجتماعية، و المساكِن الشعبية، و تواصلت الجهودُ لأسلمة المجتمع الشيشاني و تثبيت هويته التي حاول الرُّوس مسخَها عبر ثلاثة قرون كامِلة لا عبر سنوات الحرب فقط، و استمرَّت مُحاولات تنظيم الجيش و لـمِّ شمل المجموعات المُقاوِمة.. و مِن جانب آخر اجتمع قادةُ المُقاومة الشيشانية و اتفقوا على تشكيل حكومة ائتلافية مؤقتة إلى حين إجراء انتخابات برلمانية و رئاسية، فتسلَّم قائدُ أركان الحرب الشيشاني المُجاهِد أصلان مسخادوف رئاستها.

و لكن في الوقت الذي ظنَّ فيه أكثرُ الناس أنَّ الحرب قد وضعت أوزارها للأبد، و أنَّ الصِّراع العسكري بين روسيا و الشيشان لن يتكرَّر مُجدَّدًا، كان قادةُ الجهاد الشيشاني على حذرٍ شديدٍ مِن تراجُع الرُّوس عن الالتزام بالاتفاقيات السَّابقة، و على رأسها اتفاقية خاسيا-فورست الأخيرة، و عزَّز مِن ذلك الحذر قيامُ بوريس يلتسن بإقالة الجنرال ليبيد سكرتير مجلس الأمن القومي شهر أكتوبر ١٩٩٧م مِن منصبه بعد أن اتَّهمه بعض المسؤولين النَّافِذين الرُّوس بمحاولة تدبير انقلاب عسكري ضد يلتسن، و هذا ما فهم منه المُجاهدون أنَّ الرُّوسَ لم يكونوا جادِّين في إنهاء الحرب، و هو ما كان القائد خطَّاب -رحمه الله- متيقِّنا منه قَطْعًا أكثرَ مِن غيره، مُدرِكًا أنَّ المؤمِنَ لا يُلْدَغُ مِن جُحره مرَّتان!

و قد أثبتت الأيَّامُ التاليةُ صِحَّـةَ حذر قادةُ الشيشان مِن الرُّوس؛ ففي ١٤ نوفمبر ١٩٩٦م تمَّ تفجيرُ لُغْمَيْـنِ قُرب منزل رئيس الحكومة أصلان مسخادوف، و لكنَّ اللهَ نجَّاه من التفجيرَين فلم يُصِبهُ أدنى مكروهٌ، و هنا صرَّح الرئيسُ الشيشاني الـمؤقَّت زليم خان ياندربييف بأنَّ هذه الخطوة تُعتبر مُحاولةً لإجهاض اتفاقية السَّلام مِن الطرف الرُّوسي.. ثم اضطرَّت روسيا على مُضضٍ -بعد تردِّي أوضاعها الاجتماعية و الاقتصادية داخِليًّا، و أوضاع قواتها في الشيشان خارجيا- إلى التفاوُض مرة أخرى مع قادة الشيشان، فعزَّزَت نتيجةُ هذا التفاوُض إعلانَ توقُّف الحرب بين الطَّرفين، و تمَّ توقيعُ اتفاقيَـتَيْن جديدَتَيْن تقضي أولاهُما بسحب لواءَين روسِيَّيْن مِن أرض الشيشان و تحدي أُطُر الاستقلال الشيشاني، و تقضي ثانيتُهما بعد اللجوء إلى القوة مستقبلاً و إيجاد حلول سياسية للمشاكل العالِقَة بين البلَدَين، كما تمَّ إلغاءُ مرسوم الرئيس الـمجرم يلتسن الـموقَّع بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٩٤م القاضي بإعلان الحرب على الشيشان.. و أخيرا جرى انسحابُ آخر جنديٍّ روسيٍّ مِن الشيشان في ٢٧ يناير ١٩٩٧م، و بذلك لم يبقَ للرُّوس وُجودٌ قطُّ في البلاد.

ثم جاء يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧م!.. ففي هذا اليوم الخالِد استطاع القائدُ خطَّاب بمئة مُجاهدٍ مِن أصحابه التوغُّـلَ داخل البلاد الرُّوسية ١٠٠ كلم، و نجح في اقتحام مجموعة اللواء الآلي الرُّوسي رقم ١٣٦ و دمَّر ٣٠٠ سيارة تدميرا كامِلا، و قُتِل مِن الجنود الرُّوس العشرات، فيما سقط مِن الـمُجاهدين اثنان، أحدُهُما القائد العربي الـمصري الكبير (أبو بكر عقيدة)، تقبَّلهما الله في الشُّهداء.. و قد أوقعَ هذا الهجومُ قادةَ الرُّوس في حيرةٍ و ارتباكٍ عظيمَين، و لم يُصدِّقوا أنَّ مجموعة صغيرةً مِن قُطَّاع الطُّرق -كما يصفهم الإعلامُ الرُّوسي أحيانًا- استطاعوا اختراق الحدود الشيشانية الرُّوسية بتلك الـمسافة و إحداث ذلك الضَّرَر بجيشهم، و لـمَّا سئل أحدُ

الـمسؤولين العسكريين في روسيا عن الواقِعة قال: «إنَّ خطَّاب يُعتبَرُ أمْهَرَ قادَةِ حُرُوبِ العِصَاباتِ في العالَـمِ، و لذا لا يَسْتطِيعُ أيُّ جَيشٍ نِظَاميٍّ التنبُّؤ بِمَـا يفْعَلُ».. فتأمَّل هذه الشهادة مِن العدو ما أصدقها، والعربُ تقولُ: «الفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأَعْدَاءُ»!

هذا؛ و قد راح أبطالُ الشيشان يُنظِّمون شؤونَهم و يُدبِّرون أمورَهم في سبيل بناء جمهورية شيشانية مُسلمة بعد انقضاء الحرب الأولى، فكانت أوَّل خطوة هي إجراء انتخابات برلـمانية و رئاسية أوائل سنة ١٩٩٧م شارك فيها أكثر مِن ٤٠٠ ألف ناخِب شيشاني، و تـمخَّض عنها فوزُ أصلان مسخادوف بالرئاسة بنسبة ٦٨,٦%، و كذلك انتخابُ ٦٣ شخصا أضحَوا نوَّابًا للبرلـمان الشيشاني.. و في يوم ١٢ فبراير ١٩٩٧م كانت العاصمة الشيشانية غروزني على موعِدٍ مع حفل كبير لتنصيب الرئيس الجديد، و لتكريم الـمُجاهدين الذين أبلَوا البلاءً الحسَن طِوال أكثر مِن عشرين شهرا في الحرب ضد الرُّوس، و قد كان مِن بين الـمُكرَّمين القائد العربي الـمُجاهد سيف الإسلام خطَّاب رحمه الله، فمُنِحَ في ذلك الحفل ميدالية الشجاعة و البسالة مِن قِبَل أصلان مسخادوف، و نال رتبة (لواء) العسكرية عن جدارة، و هي الرتبة الثانية في تصنيف الرُّتَب العسكرية، و التي لا تسبقها إلى رتبة (رئيس الأركان)، و تمَّ تعيينه ليُصبح الـمسؤول العسكري لـمجلس الشورى في البلاد.

و لأنَّ تفصيلَ الحديث عن إجراءات النهوض بالدولة الشيشانية في عهد أصلان - سياسيا و اقتصاديا و عسكريا و اجتماعيا- قبل وقوع الحرب الثانية يحتاج إلى صفحات كثيرة، و هو ما ليس مُتاحًا هنا، فقد ارتأيتُ أن أسلِّط الضوء على إجراءات أسلمة الـمجتمع الشيشاني فقط لنُدرِكَ تمسُّكَ أولئك الـمُجاهدين الشديد بدينهم في السراء و الضراء، و لِنُدرك -مِن جهة أخرى- سببَ العناية الإلهية التي أحاطَت بهم

خلال حربهم مع أعداء الله، فثبتوا و صبروا رغم قِلَّة الإمكانيات البشرية و المادية..

فلقد خطا الزعيم المُجاهد أصلان مسخادوف هذه الخطوات النَّاصعة:

- أعلن -رحمه الله- أنَّ بلاده قد أصبحت مِن ذلك اليوم فصاعِدا جمهوريةً إسلاميةً، و هو ما يندرج تحت البند الدستوري الذي وضعه الزعيم جوهر دودابيف سنة ١٩٩١م و القاضي بأنَّ الإسلام هو دينُ الدولة الرسمي [٢٨]، مما يعني أنَّ الشريعة الإسلامية ستُحكَّم في أغلب المجالات و القطاعات، و لكنَّ أصلان أشار إلى أنَّ ذلك سيكون على سبيل التدرُّج.
- دعا قُضاة المحاكِم في البلاد إلى تطبيق حكومة الإعدام -كما تنُصُّ عليه الشريعة الإسلامية- بحق المجرمين الذين يثبت قيامُهُم بعمليات الخطف، و كانت هذه الجريمة قد انتشرت كثيرا في البلاد بعد انتهاء الحرب الأولى بسبب تجنيد روسيا للمئات مِن عملائها داخل الشيشان ليقوموا بعمليات الخطف تلك، و هذا لزرع البلبلة في البلاد و تشويه صورة الحكومة المُنتخبة.
- جعل مادة (الدين الإسلامي) مادةً أساسيةً في جميع مدارس الطور الابتدائي، قبل تعميمها على باقي الأطوار، بل و أنشأ مدارس خاصَّة بتلك المادة بلغ عددُها ١٣٠٠ مدرسة في كافة المُدن و الأرياف.
- إصدار مرسوم يقضي بإجبارية ارتداء زي إسلامي موحَّد في المدارس.
- إصدار مرسوم يقضي بمنع وقوع الاختلاط في الدوائر الحكومية و المؤسسات التعليمية و غيرها.

---

[٢٨] و في المقابل تجدُ أكثر دساتير الدول العربية في هذا العصر تنصُّ على أنَّ الإسلام هو دينُها الرَّسمي، و لكنَّك لا تجِدُ لهذا الدين -إن وجدتَ- مكاناً في الحُكم و التشريع إلا في إطار ضيق جدا، و أضحى أقرب إلى أن يكون شِعارا فقط منه إلى أن يكون نظاما، فيا لِغُربة الدين!

- إصدار مرسوم يقضي بمنع إنتاج المشروبات الكحولية أو بيعها في البلاد، مع المُطالبة باستبدال تلك المشروبات -المُحرَّمة شرعا، الممنوعة قانونًا- بأخرى غير كحولية.
- أمر بإنشاء بنك إسلامي ليكون في المستقبل المؤسسة المصرفية المركزية في البلاد، مما يؤدي إلى القضاء التدريجي على المصارف العلمانية التي تتبنَّى المُعاملات الرِّبوية.

الزعيم الشيشاني المنتخب أصلان مسخادوف

و غيرها مِن القرارات و المراسيم التي وطَّدَت علاقة الشعب بدينه و هويته الحقيقية، و تقوَّت بسببها أرواحُ الشيشانيين و تصلَّبَت، كما عزَّزت استقلالَ البلاد عن المُحتل السَّابِق، و هذا ما سيكون له أكبرُ الأثر في صمودهم أمام الآلة الحربية الرُّوسية في الحرب الثانية، بل و قد صرَّح أحدُ المُجاهدين الشيشانيين الشباب قائلاً:

«عِندمَا تؤمِنُ، و عِندمَا تعرِفُ أَنَّك تُقاتِلُ في سبيل الله، و أَنَّكَ إذا مُتَّ ستُفتَحُ لك أبوابُ الجنَّة مُباشرةً، فإنَّك لا تخشى الموتَ، بل على العكس تسعى إليهِ و تُصبِحَ مُخيفًا للطَّرفِ الآخرِ».. فتأمَّلوا تغلغُلَ الإيمان في قلب هذا الشاب و صِدق لهجته!

على أنَّ خطوات أسلمة المجتمع الشيشاني -المُسلم بفطرته- لم تكُن بالتي تمرُّ مرورَ الكِرام على ملاحِدة روسيا و صليبيي أوروبا و أمريكا، فقد شُنَّت عنهم على الشيشان حملات إعلامية قوية بسبب تلك الخطوات الشجاعة، و أظهروا مخاوِفَهم مِن قيام صحوة إسلامية في كامل منطقة القوقاز لا في الشيشان فقط، و وصفوا تلك الصحوة بعبارة (الخطر الأصولي)، و مع ذلك ثبت القياديون في الشيشان على موقفهم و تابعوا مسيرةَ بناء دولتهم.

ثم جاء مؤتمر غروزني في أغسطس ١٩٩٧م الذي أغاضَ الرُّوسَ و أغضبهم..

ففي هذا المؤتمر اجتمع المئات مِن صُنَّاع القرار و العلماء و الدُّعاة و العامِلين على المستويَيْن الشيشاني و الداغستاني، و نجحوا في انتخاب مجلس علماء الدين الإسلامي مِن البلَدَين وسط حضور أكثر مِن ثلاثين منظمة و حركة إسلامية، و تمَّ تأسيسُ (حركة الأمة الإسلامية)، و هذه المرة الأولى التي تتوحَّدُ فيها داغستان و الشيشان منذ عهد الإمام و المُجاهد الكبير (شامل الداغستاني) المولود عام ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م، و المتوفَّى عام ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م، و قد ساهم هذا المؤتمر كثيرًا في ترسيخ الهوية لدى القوقازيين عكس ما يُريده أعداؤهم الرُّوس.. و مِن جهة أخرى تمَّ إحياءُ الذكرى المائتين لمولد الإمام شامل الداغستاني، و هو الأمر الذي يتمُّ لأول مرة بشكل علنيٍّ و بحضور الرئيس أصلان مسخادوف شخصيًّا، بل و صرَّحت صحيفة (لوس أنجلس تايمز) الأمريكية بأنَّ أكثرَ ما تخشاهُ روسيا هو ظهور

قائدٍ مِن طينة الإمام شامل الداغستاني الذي أذاق روسيا الويلات في القرن التاسع عشر!.. فلله دُرُّ الشيشانيين ما أعظم اعتزازَهم بدينهم و تاريخهم!

و لكن ما هو إلا أن انقضى عام ١٩٩٨م حتى بدأ القادة الشيشانيون يشعرون بتحرُّكات غريبة لروسيا تُثير الريبة؛ فهي لم تبلَعْ بعدُ خروجَها مِن بلادهم جارَّةً أذيالَ الهزيمة المُنكرة خلفها، و لم تتقبَّل أن يرفع الشيشانيون السِّلاحَ في وجهها ليستقلُّوا عنها، بل إنَّ طائراتها الحربية ظلَّت تُحلِّق فوق سماء العاصمة غروزني حتى بعد انتهاء الحرب، و هذا هو الطُّغيان بعينه!

و لكنَّ الذي توقَّعه المُجاهدون في الشيشان قد أوشك على الوقوع، و أمارات قيام الحرب مُجدَّدًا ضد الرُّوس كانت ظاهِرةً لم تختفِ يومًا، و ازدادت التوتُّرات في المنطقة القوقازية مع توالي الأيام، و مِن ثَم فقد عادت أجواءُ الاستعداد لتلك الحرب لتطغى على الوضع العام في الشيشان و روسيا معًا، و ترقَّب الجميعُ ساعةَ الانفجار الذي ستتمخَّضُ عنه الحرب الثانية..

ثم وقع الانفجارُ فعلا.. و كان القائد خطَّاب أحد مُفجِّري الحرب!

«وَيْلُ أُمِّهِ، مِسْعَرُ حَرْبٍ..»!!

هذا؛ و إذا كان رجلُ روسيا الأوَّل خلال الحرب الأولى هو رئيسُها بوريس يلتسن، فإنَّ رجلها الأوَّل خلال الحرب الثانية هو آخرُ أشدُّ حِقدًا و حنقًا على مُسلمي الشيشان من يلتسن.. هذا الرجل هو الرئيس الحالي لروسيا؛ فلاديمير بوتين، عنصر المخابرات المُجرم الذي كان مغمورا في زمن الحرب الأولى، ثم ظهر فجأةً على

ساحة الحرب الثانية، فصار اسمُه متداولا جدًّا على ألسنة الـمُحللين السياسيين و الإعلاميين الرُّوس بدءً مِن أغسطس ١٩٩٩م.

بعد أن حلَّت سنة ١٩٩٩م بدأت الأخبار تنتشر هنا و هناك تُفيد بإمكانية تنحِّي يلتسن عن الـحُكم بسبب الوعكة الصحية التي كانت تعتريه ساعتئذ، و هو الذي أجرى عملية جراحية على مستوى قلبه الـمريض سنة ١٩٩٦م.. و لكن قبل تنحِّيه - فعلا- كان يلتسن قد أجرى أكثر مِن تغيير على مستوى منصب رئيس الوزراء؛ فبعد فيكتور تشيرنوميردين الذي ظلَّ في منصبه بين ١٩٩٢-١٩٩٨م، و سيرجي كيريينكو بين مارس-أغسطس١٩٩٨م، و يفجيني بريماكوف بين أغسطس ١٩٩٨-مايو ١٩٩٩م، و سيرجي ستيباشن بين مايو-أغسطس ١٩٩٩م، وقعُ اختيارُ بوريس يتلسن على فلاديمير بوتين ليكون رئيسا جديدا للوزراء في شهر أغسطس مِن العام الـمَذكور، و لكنَّ الغريب هو الدَّعم القوي و الواسع الذي تلقَّاه بوتين مِن شخصيات سياسية و اقتصادية روسية مرموقة، و أكثرُهم مِن اليهود، و ذلك رغم أنَّ بوتين كان حينئذٍ مغمورا و غير معروفٍ لدى عامة الرُّوس، و ما هذا إلا دليلٌ مِن الأدلة على أنَّ بوتين كان مُجَهَّزًا -بأيدي يهودية- ليكون في منصب رئيس الوزراء قبل تعيينه ليتقمَّص دورَه الـمرسوم مُسبقًا [٢٩]، خاصَّة و أنَّ الحرب الثانية ضد الشيشان بدأت بعد أقل مِن شهر مِن تعيينه! ثم خلف بوريس يلتسن على الحكم في ديسمبر ١٩٩٩م ليُصبح بوتين الـمُهندس الأول لتلك الحرب مِن الجانب الرُّوسي!!

(٢٩) كان بوتين قبل ذلك قد تدرَّج في تولي الـمناصب، و كان آخرها توليه أمانة مجلس الأمن الرُّوسي بدءً مِن مارس ١٩٩٩م، قبل توليه رئاسة الوزراء بأربعة أشهر.. و بالنسبة للتواجُد اليهودي في مختلف أجهزة الدولة الروسية و تاريخه يُنظر الفصل الثامِن مِن كتاب: (تاريخ القوقاز.. نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي)، لـمؤلفه محمود عبد الرحمان.

فكيف كانت بداية الحرب الشيشانية الثانية؟ و ما دورُ القائد الـهُمـام سيف الإسلام خطَّاب فيها؟ و هل كانت مُساهمته في تفجيرها عملاً صائبًا؟ و كيف كانت الـمواجهة بين أسود الشيشان بقيادة أصلان مسخادوف و دِبَبة روسيا بقيادة عنصر الـمخابرات السابق فلاديمير بوتين؟!

فلنُتابع..

اندلاع الحرب الثانية

لا ينتطحُ عنزان على أنَّ الرُّوس لم يتقبَّلوا انهزامهم على أيدي أسود الشيشان و بقوا مُستعلين مُتغطرسين مُستكبرين، و رأوا في تلك الهزيمة عارًا عليهم و إهانةً لهم أمام الرأي العام العالمي و الدول التي توصف بـ(الكُبرى)، فظلُّوا على عدوانهم و طغيانهم ضد الشيشان و لكن بوتيرة منخفضة، و على فترات متقاطعة قبل ابتداء الحرب الثانية، فكان ذلك منهم نكثا لاتفاق السِّلم معها و نقضًا له، و مع ذلك التزم الرئيس أصلان مسخادوف و مَن حوله بالهدوء و عدم التصعيد إلى الحد الممكن، و اجتهد في كسب تعاطُف الجميع، و إظهار صور كِفاح شعبه للرأي العام، و استجلاب اعتراف الدول بحكومة بلاده المشروعة، و هذا رغم إيمانه باحتمالية تجدُّد الحرب و توقُّعه لها، و هنا لنا وقفة طويلة لتوضيح بعض النقاط المهمة جدًّا فيما يخص نظرة الرئيس أصلان لعلاقة بلاده بالعدو الرُّوسي مِن جهة، و علاقته هو شخصيا ببعض القادة المُجاهدين -و على رأسهم شامل و خطَّاب- مع بداية الحرب الثانية مِن جهة أخرى:

لقد كان أصلان مُجاهدا كبيرًا و قائدا مهمًّا خلال الحرب الأولى أيام توليه قيادة الأركان الشيشانية في عهد الرئيس الأول جوهر دوداييف، و قد اشتهر بالشجاعة و الذكاء و الحِنكة و رباطة الجأش و رجاحة العقل، ناهيك عن الثبات على مبادئ بلاده و مُقاومة العدوان الرُّوسي بالسلاح قبل الكلام.. فلما تولى رئاسة بلاده راح يتصرَّف كأي رئيسٍ حُرٍّ لدولة مستقلة، و كان مِن الاستراتيجيات التي عمل عليه -كما سبق

و أن ذكرنا- تهدئة الأوضاع و تصفية العلاقة المشحونة مع روسيا بالأساليب السِّلمية بعيدا عن التصعيد العسكري، و لكن ظهر أنَّ للقائد سيف الإسلام خطَّاب - رحمه الله- استراتيجية أخرى مختلفة، و تبعه فيها القائد شامل باساييف، و بسببها وقع الاختلافُ بينهما و بين أصلان؛ و هي استباق الهجوم على القوات الرُّوسية و إلحاق الضَّرر بها قبل أن تقوم هي بذلك، خصوصًا و أنَّ كُلَّ المؤشرات كانت تُخبر بأنَّ الرُّوس على وشك أن يبتدئوا بأنفسهم الحربَ!

القائدان: سيف الإسلام خطاب و شامل باساييف، رحمهما اللّه تعالى

و لقد كانت داغستان -جارة الشيشان، و شريكتُها في الحدود مع روسيا- تشهدُ حالةً مِن الصحوة و الوعي بعد انهزام الرُّوس أمام مُقاتلي الشيشان، و كان مِن نتائج هذه الصحوة أن بدأ الشعب الداغستاني يُطالِب القوات الرُّوسية بمغادرة بلاده، و

كذلك بتطبيق الشريعة و نبذ النظام الشيوعي الوضعي، ثم تطوَّر الأمر فشهدت البلاد قيام بعض الشباب الداغستاني الـمُسلم -و أكثرُهم مِـمَّن شارك في الحرب الشيشانية- بهجمات موجِعة ضد وحدات الأمن الرُّوسية في بعض الأنحاء، و هنا أدرك الرُّوس أنَّ التدخُّل أضحى ضروريًّا لقمع الداغستانيين، فلما دخلوا استنجدَ الـمُجاهدون الداغستانيون بإخوانهم الـمُجاهدين في الشيشان، و كان ممن وُجِّهت إليهم النجدة القائد شامل باساييف و القائد سيف الإسلام خطَّاب الذي كان يُطالب الداغستانيين بالتروِّي قبل الهجوم على الرُّوس و عدم الاستعجال، و لم يكُن يُفكِّر في بدء الهجوم في تلك الفترة، و لكن لـمَّا وقع ما وقع و تدخَّل الرُّوسُ رأى أنَّ مِن الواجِب عليه إنجاد إخوانه و مُعاونتهم، يقولُ رحمه الله: «بدأت الأحْدَاثُ و دَخلَ الرُّوسُ، ثمَّ استنجَدَ بنا الـمُجَاهِدُون و صاروا يطلبون الـمَدَدَ، و يقولون: اِلْحقُونَا و أسْعِفُونَا، عندنا قتلى و جرحى!.. فعِندها لا يجوزُ لنا أن نقعُدَ، و لو لم ندخُلْ لَقَالُوا: انظروا هؤلاء الناس كذا!.. و شرعًا لا يجوز لنا أن نتأخَّرَ، و كان يَـجِبُ علينا أنْ ندخُلَ، فما كُنا -و اللهِ- نتمنَّى أن نَدخُلَ، و لكن دخلَ الرُّوسُ ثم دخلنا و حاصرناهُم».

و لكنَّ الرئيس أصلان مسخادوف عبَّر عن رفضه تنفيذَ تلك الهجمات و براءة حكومته منها، و أيضا لامَ خطَّاب و شامل و رفاقهما لـمَّا عبروا الحدودَ و دخلوا داغستان لـمؤازرة إخوانهم و صعدَّوا وتيرة الـمعركة، و هذا مِن شأنه أن يُعكِّرُ أجواء السِّلم و الهدوء مع الرُّوس حسب نظرته و اجتهاده، بينما كان القائد شامل باساييف يرى صواب تلك الخطوة و يُدافِع عن رأيه، و لكنَّه بالغ في إظهار خِلافه مع أصلان لدرجة خطيرة حين هدَّده بالقتال ضدَّه إن استمرَّ على موقفه! فلما التقى شامل بخطَّاب و أخبره بذلك، عبَّر خطَّاب عن استيائه مِن كلام شامل الذي برَّر موقفَه بأنَّه كان تضامُنًا مع القائد العربي و أصحابه، يقول خطَّاب رحمه الله عنه: «فجَاءَ

ليذكُرَ لنَا هَذَا الشَّيءَ، وَ أنه فَعَلَهُ مِن أجْلِنا وَ كَذَا.. و قُلتُ لَهُ: وَالله إنْ كُنتَ عَمِلْتَ هَذَا الأمْرَ لأجلِ خَطَّاب أوْ لِمَن مَعَهُ فجَزَاكَ اللهُ خيرًا، لا تَعْمَلْ هَذا الشَّيءَ مرَّةً ثانيةً، و نَحْنُ لم نَسْألْكَ هَذَا، و لا نَحْتَاجُ مِنْكَ هَذَا الأمرَ.. فقالَ: ما الَّذِي تَقُولُ؟!.. فقُلْتُ له: نَعَم، إذا كُنتَ عمِلْتَ هذا الأمرَ لله، و لأنَّ هَذَا مَكَانٌ لِخدمَةِ الإسْلامِ وَ لِخِدْمَة شُعُوبِكُم فجَزَاك اللهُ خَيرًا، أمَّا أنا فَلَا أحْتَاجُ لَه!.. فَسَكَتَ و تغيَّر تَمَامًا و قال: نَعَم هَذَا مَفْهُوم.. فقُلتُ له: جَزَاك اللهُ خيرًا».

و مِن جهة أخرى تنبَّه خطَّاب إلى مَكمَن الخطورة في هذا الخلاف، فقطع الطَّريق أمام المُنافقين المُتربِّصين بسُمعته، و الذين سعوا لتضخيم ذلك الخِلاف و إشاعته بين النَّاس، مما يكون سببًا في تصدُّع صفِّ المقاومة و نشوء العداوة بين قادتها، فشدَّد خطَّاب الحرص على الوِحدة و الاعتصام، فقال مقولته الرائعة: «أصْلانْ مِسْخَادوفْ هُوَ رَئيسُ الجمْهُوريَّةِ الشِّيشَانيَّةِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، أمَّا عَنْ وُجودِ خِلَافاتٍ فلا يَخْلو قومٌ مِنهَا، و هَذِه مِن طَبيعةِ البَشَرِ، و لكنَّ المُهِمَّ أنَّ الجميعَ على يَدٍ واحِدةٍ و على قرارٍ واحِدٍ في مُواصَلَة الجِهادِ ضدَّ الجيش الرُّوسي الغاشِم حتى نِهايَته».

و على كُلٍّ؛ فقد اندلعت الحربُ الثانية مِن داغستان رسميًّا في شهر سبتمبر مِن عام ١٩٩٩م، فاقتحمها الرُّوس الهمجيون و أختَها الشيشان، و تبنَّوا سياسة الأرض المحروقة على كليهما؛ أي القصف الجوي و المدفعي التلقائي باستمرار، و إطلاق النار على كُلِّ مَن ليس روسيًّا مِن دون تفريق بين مدنيٍّ و عسكري، و لا بين رجل و امرأة، و لا بين شيخ و طفل، بل حتى البهائم لم تسلم مِن الإرهاب الرُّوسي الغاشِم، حتى أنَّ خطَّابًا نفسه يصِف المعارك التي دارت حينئذ في داغستان بأنها كانت جنونية لم يرَ هو مثيلاً لها قبل ذلك!.. و قد قام الرُّوسُ -بعد قليل مِن انفجار الحرب- بغزو العاصمة الشيشانية غروزني و مُحاصرتها برًّا و جوًّا، و اشتدَّ الحصارُ ابتداءً مِن شهر

ديسمبر، و كانت غروزني ساعتئذ تحتضن قُرابة ٥٠,٠٠٠ مواطِن شيشاني، فمِنهم مَن ابتنى لنفسه و أهله قبوًا تحت الأرض ليأمن مِن القصف و ما معه إلا الزَّاد الخفيف مِن الطعام و الـماء، و مِنهم مَن اضطرَّ إلى الهروب مِن منزله بحثًا عن مأوى آمِن و لكن دون جدوى حيث كان يُصادِف القوات الرُّوسية أمامه، و بالعموم فإنَّ روسيا ابتدأت حربَها بأعنف ما يكون حين استخدمت أخطر الأسلحة و أفتكها، و بعضُها مُـحرَّمٌ دُوليا كمـا يقولون، و كانت الطائرات الرُّوسية -كمـا يذكُرُ القائد خطَّاب- تقصف بطُنٍّ و طُنَّين و ثلاثة مِن القنابِل! و لكنَّ الـمُسلمين لا بواكي لهم، و ما يُسمى بـ(الـمجتمع الدولي) مِن النِّفاق بمكان، و لا أحد مِن الغرب حينئذ خطا خطوة فِعلية ضدَّ روسيا بسبب استخدام تلك الأسلحة الفتَّاكة رغم أنَّه كان يُجاهر بعداوته لها و يُظهرها، بل و سنراه يُساند روسيا بدعوى الاتحاد في مواجهة مَا سمَّوه بـ(الإرهاب) بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م، و ما هذا الإرهاب -على التحقيق- إلا جهادٌ في سبيل الله و مُقاومةٌ مشروعةٌ تُقِرُّها كل قوانين الأمم عبر التاريخ، بَلْه قوانين الإسلام، و لكنَّ لسان حال الغرب يومئذٍ: ما دام الضحايا مُسلمون فلا بأس! و قد قال العلامة ابن عثيمين: «إنَّ الغربَ الكَـفَرَةَ يفرحون بكُلِّ ما فيه ذُلٌّ للإسلام و خِذلانٌ للـمُسلمينَ، و لا شَكَّ في هذا عندي أنَّهم يوَدُّونَ هذا و إنْ أظهَرُوا أنَّهم يُسانِدون الإنسانيةَ وَ مَا أشبهَ ذلكَ، فهُم كَذَبَـةٌ؛ و لهذا هُم سَاكِتُونَ.. و لَـمَّـا بَدَأتْ جُمهُوريةُ الشِّيشَانِ تُضرَبُ بالقنابِلِ ويَموتُ النَّاسُ في الأسواق تحرَّكوا، و لكن تحرُّكَ السُّلحفاة! و إلا لو خنقوا الرُّوسَ في الأمور الاقتصادية لعلِمنَا أنَّ الرُّوسَ سَوْفَ يستسلِمُونَ و يذلُّونَ»[٣٠].. و أما الأنظمة العربية -لا الشعوب العربية- فلسنا بحاجة إلى طويلِ حديثٍ عن موقفها تجاه

(٣٠) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٣٣٣).

تلك الحرب الشيشانية و لا قصيرِهِ، و قد كان أكثرُ ما عبَّر عنه بعضُها هو التنديد و التحذير لا تحرُّكٍ جادٍ، فيا له مِن عظيم خِذلان و هوان، و لا حول و لا قوة إلا بالله!

و الحقيقةُ أنَّ تفصيل الحديث عن وقائع الحرب الرُّوسية-الشيشانية الثانية يحتاج لـمئات الصفحات الطَّافِحة بالتفاصيل الـمهمَّة، و لكنَّ الذي يهُمُّنا في هذا الـموضع هو ما قام به القائد الـمُجاهد سيف الإسلام خطَّاب و دورُه البارز خلال هذه الحرب؛ سواءٌ على الـمستوى الفردي أو على الـمستوى الجماعي..

جنود روس في العاصمة الشيشانية غروزني خلال الحرب الثانية

خطاب و الانسحاب الأسطوري

كان القائدُ سيف الإسلام خطَّاب قد استغل الفترة التي فصلت بين الحربَيْن بالإعداد و التجهيز في الجانب العسكري، و الدَّعوة و التعليم في الجانب الرُّوحي و العلمي و العَقَدي، فنتج عن ذلك ازديادُ عدد الشَّباب الـمُنخرِط في برنامجه العسكري بفيدنو ليبلُغ ٤٠٠ شاب في كُلِّ دورة مِن دورات ذلك البرنامج الكثيرة، و لذلك فلم تكَد تقومُ الحرب الثانية إلا و قد كانت مجموعة خطَّاب في أحسن أحوالِها و أجودِ أوضاعِها، بدنيًا و روحيًّا، و تعزَّز الإيمان لدى أفرادِها، و بقوة الإيمان ينتصِرُ جُنودُ الرَّحمان!.. و بعد أن حاولت الحكومةُ الشيشانيةُ التوصُّل إلى تهدئة الوضع مع روسيا و وقف الحرب، واجه الرُّوس ذلك بالرَّفض القاطع و الإصرار على مواصلة الحرب، و هنا بدأت الاستعدادات الشيشانية الجادَّة للمقاومة و استئناف حركة الجهاد، و لكن هذه الـمرة قد اتَّسعت رُقعة الحرب لتشمل الشيشان و داغستان معًا، و هو العامِل الذي كان خطَّاب يُدرِكُ أهـمَّيته الكبيرة حيث سيُسهِّلُ مهمة الـمُجاهِدين و يُصعِّب مهمة الرُّوس.

و الحقيقة أنني قد وجدتُ صُعوبةً في تتبُّع كُلِّ أخبار القائد خطَّاب و أعماله مع مجموعته مذ أن بدأت الحرب الثانية في سبتمبر ١٩٩٩م، فليس بين يدي ما يُعينُني على تأريخ كثيرٍ منها سوى مؤلَّف (تجربة الأنصار العرب) الذي يحكي فيه خطَّاب بعضَ تاريـخِه في الشيشان، و مع ذلك فهو عُمدة مصادِر هذا العمل.

و مهمـا يكُن مِن أمر؛ فأولُ ما نشرع به في تقصِّي أخبار خطَّاب خلال بداية الحرب الثانية هو عملية انسحابه و مجموعته مِن جبال فيدنو، وقد كان انسحابًا مُذهِلاً و باهِرًا

على طريقة أفلام (هوليوود) الحربية الخيالية، و لكنَّه كان حقيقةً لا خيالاً! و هو إلى أن يكون كَرامةً إلهيةً أقرب منه إلى أن يكون حدثًا عاديًّا، و ليت شعري: كم تكثُرُ الكراماتُ على ساحات الوغى!

كان أوَّلُ ما شدَّد القائدُ خطَّاب عليه هو طلبُه وقفَ مجيء الـمُجاهِدين الـمُتطوِّعين الأنصار إلى الشيشان؛ لِصعوبة الوضع الأمني، و قِلَّة الإمكانيات، و عُسر التجهيز، و برودة الجو في هذا الفصل الشتوي، و غيرها مِن الأسباب التي تزيد الأوضاع سوءً فوق سوء، فتوقَّف تدفُّقهم فِعلاً، و حوصِرت الشيشان مِن مختلف الجِهات.. و كانت مجموعة القائد خطَّاب مُتمركِزةً في جبال منطقة فيدنو التي تلي العاصمة غروزني مِن جهة الجنوب، و بالضبط في الـمكان الـمُسمَّى (شاتوي)، فلمَّا اجتاحت القوات الرُّوسية البلادَ تركَّزت جهودها -إلى جانب تطويق البلاد عمومًا، و العاصمة خصوصًا- على مُحاصرة الـمناطِق الجبلية الاستراتيجية منها، و مِن ضمنها جبال شاتوي، كما صرَّح أحدُ الجنرالات الرُّوس الـمغرورين بأنَّ عمليتهم العسكرية على الشيشان ستنتهي بالقضاء على مَن يُسمِّيهم بـ«الإرهابيين الإسلاميين» خلال أسبوع واحِد فقط!.. و في هذا الوقت الزمني الصعب جدًّا سعى القائدُ إلى التصرُّف الـمُناسب، و كان عددُ الـمُجاهدين الإجمالي في مختلف مجموعات مُعسكره كبيرًا يزيد عن ١٢٥٠ رجلٍ، مما جعل مهمَّته مِن الصعوبة بمكان؛ و لذلك آثر -رحمه الله- الانسحاب مِن الـمناطق الجبلية لكونه الخيار الأفضل و الأسلم عنده، و دعا قادة الـمجموعات الأخرى إلى التحرُّك لإيجاد مواقِع بديلةٍ لئلا يُحاصرهم الرُّوس و يُبيدوهم عن بِكرة أبيهم في شواهِق الجِبال، و قد كان الطَّقسُ حينئذ بارِدا جِدًّا مع نقص التموين و قِلَّة الزَّاد، فاجتمع على الـمُجاهدين سخونة الحرب و بُرودة الطَّقس و شُح الإمكانيات!

و بعد أن وافق أصحابُ خطَّاب على الخطة التي وضعها لهم للانسحاب مِن الجبال، خرج -رحمه الله- بنفسه ليلاً للترصُّد و اكتشاف الطريق الـمُناسب، فوجد طريقًا صعبًا مليئًا بالـحُفَر و لا يُمكن للآليات العسكرية أن تعبُر منه، فأمر أصحابَه بالانطلاق و الـمُرور عبر ذلك الطَّريق، و لكنَّه فوجئ باجتماع أفراد الـمجموعة حتى بلغوا ١٢٥٠ مُجاهِدا على غير ما كان يتوقَّعُه، ممَّا تسبَّب في حدوث بعض الـمشاكِل الصغيرة، يقول رحمه الله: «بدأت النَّاس بالتحرُّك، و كُنتُ أظُنُّ أنَّ القافِلَةَ سَتكُونُ مِنْ ٥٠٠ أو ٦٠٠ أو ٧٠٠ شَخصٍ، و لَكِنِّي تَفاجَأْتُ أنَّ القَافِلَةَ فيها ١٢٥٠ مُجَاهِدًا. كُلُّ الـمجموعات تشكَّلت معًا [٣١]، و كان مِن الصَّعْبِ جِدًّا تشكيلُ و ترتيبُ و تنظيمُ الـمَجمُوعَاتِ، و أصبحْنَا لا نَعْرِفُ هذا مع مَن؟ و هذا أينَ أميرُهُ؟ حتى أنَّنا وضَعْنَا التَّموينَ هكذا في الشَّارِعِ، و قُلنا للنَّاسِ: خُذوا تَـمْوِينًا، لدينَا مَسِيرةٌ طَوِيلةٌ. فالذي أخذَ أخذ، و الذي استهانَ بالأمر لم يأخُذ، و الذي لم يأخُذ تعِبَ جِدًّا.. ثم بدأت الـمسيرة، و كُنتُ أتابِعُ خُروجَ الـمجموعات فوجدتُهُم أمَّةً مِثْلَ خلية النَّحل، يعني الجبل يهتزُّ مِن حَرَكَتِهِم، و كلام و صِياح و كذا، فبدأتُ أرتِّبُ الـمَجموعات، و أجعلُ كُلَّ مجموعَةٍ في مَكَانٍ و كُلَّ أمِيرٍ مع مَجموعَتِه، و بدأتُ أقولُ للناس: لا تُشعِلوا النَّار؛ فالرُّوسُ في كُلِّ مَكانٍ، و لو عَلِمُوا بِمَكَانِنَا فسيَطحنُونَ الـمَكَانَ طَحنًا.. فكان بعضُهُم يسمع الأمْر، و البعضُ الآخر لا يسمعُ للأمر».

ثم يصِفُ القائد الصعوبات الأليمة التي رافقت تحرُّك مجموعته؛ فيقول: «الجوُّ كان بارِدًا جِدًّا؛ ففي اللَّيلِ لا تنام، و في النَّهارِ كذلك لا تنام، في النَّهار تَـمْشي و اللَّيل لا تنام، فصارت النَّاس تـمشي مِثل السُّكارى، و كان جُوع و بَرد و رُطُوبَة، و أنا لأوَّلِ

(٣١) الـمقصود هو الـمجموعات الـموجودة في جبال فيدنو فقط، و التي كان يقودُها أهمُّ القادة؛ كخطَّاب و شامل باساييف و سلمان رادوييف.

مرَّةٍ في حياتي أرى الأرجُل تُصبِح بيضاء مِن الأسفل بسبب البَرد، اللحم لا يوجد فيه دم فاشتدَّت البُرودَةُ و بدأ الشَّبابُ يُشعِلون النَّارَ؛ فكانت الثِّيابُ تحترِقُ لأنَّهم مِن شِدَّة البَرد كانوا ينامُونَ بالقُرْبِ مِن النَّار فتحترق الثِّيابُ و هُم نِيامٌ بدأ الإخوة يمرضُونَ، و بدأ الإسهال و الجوع و شحبت الوُجوه و الـجُلود، و تشقَّقت شِفاهُهُم، يعني أصبحَ الوَضْعُ صعبًا جِدًّا.. و كانت إدارةُ النَّاسِ صعبةً جِـدًّا؛ القادةُ كانوا أكثرَ مِن عشرين قائدًا، يعني هُم بحدِّ ذاتهم كانوا جيشًا! فكُنَّا نُحاوِل ترتيب الأمور بقدر الـمُستطَاع، فقط كُنَّا نُريدُ معرِفَةَ مَن يضيعُ و مَن يُقتَلُ و مَن يُجرَحُ، و كان هذا أهمُّ شيءٍ لنا».

و في الطَّريق أبصرَ خطَّاب و أصحابُه خيمةً و نارًا صغيرةً مُشتعِلَةً يفصلهم عنها أقل مِن خمسين مِترًا، و كانت واقِعةً خلف الشَّجَر، فظنَّ خطَّاب أنَّها للمُجاهدين؛ مُبرِّرًا ذلك بأنَّ الرُّوس -في العادة- إذا اتَّخذوا موقِعًا أطلقوا قنابِلَ ضوئيةً تكونُ لهم إضاءةً ليليَّةً، ثم طلب مِن القائد الـمُجاهد (أبي الوليد الغامِدي) أن يذهب إلى موقع النَّار و يتعرَّف على الـمُتمركزين هناك، و أرفقه بأحد حُرَّاسِه الشيشانيين ليتكلَّم بدلاً عنه؛ لأنَّ أبا الوليد لو خاطبهم بالرُّوسية -و لم يكُن يَعرف الشيشانية جيِّدًا لصُعُوبتها- لظنَّوه مِن الرُّوس و يُطلقون عليه النَّار، هذا باعتبار أنَّهم مِن الـمُجاهدين لا الرُّوس.. و لكنَّ توقُّع خطَّاب لم يكُن صائبًا؛ فبمجرَّد أن تقدَّم أبو الوليد و مُرافِقُه الشيشاني نحو موقع النَّار، و بعد أن نادى الشيشانيُّ حتى بدأ إطلاقُ النَّار ضدَّهما، و هنا أدركا أنَّهما في مُواجهةٍ مع جنودٍ روسٍ، فأُصيب الشيشاني و انسحب إلى الوراء مع أبي الوليد، ثم تقدَّم خطَّاب و بعضُ أصحابِه و بدأوا بإطلاق النَّار على الرُّوس مِن دون أن يُصيبوا أحدا مِنهم، و لكنَّ الجميعَ تراجع بعدها و انسحب بالسرعة الـمُمكنة قَصْدَ تفادي الإنزال الرُّوسي الثقيل في ذلك الـموقع، أي أنَّ الـموقف كان خطيرًا على الـمُجاهدين للغاية، و قد قال خطَّاب: «و كان الرُّوسُ الـخُبثَاء يُريدُونَ أن لا تنسَحِبَ قوافِلُ

الـمُجاهِدين حتى يُوقِعونا في كَمِينٍ مُـحكَمٍ، و نحنُ لم تكُنْ مُتعَوِّدِينَ على مِثْلِ هذا الأمْرِ؛ أن يصِلَ الرُّوسُ لهذا القدر مِن الشَّجاعَةِ بأن يَـتَمرْكَزُوا في كُلِّ مَكانٍ».

و مِـمَّـا وقع بعد ذلك الانسحاب السَّريع أنَّ القائدَ خطَّاب اتصل بنائب رئيس الوزراء القائد شامل باساييف و أخبرَه بصعوبة الوضع و خطورته و ضرورة إيجاد حلٍّ عاجِلٍ له، فأكَّد شامل بخطَّاب بأنَّه يعرف الـمنطقة جيدا، و طلب منه أن يُواصل الـمَسير بحذر، و قد جرى هذا الحِوارُ ليلاً.

و في الصباح الـمُوالي أعطى خطَّاب الإشارةَ الخضراء لأصحابه كي يتحرَّكوا و جعل عليهم مُجاهدًا اسمُه (يعقوب)، و سبِقَهم هو و خمسةٌ مِن رِفاقِه للتأكُّدِ مِن سلامة الطَّريق و أمنِها، و ذاك هو -و الله- القائد الحقيقي!!.. ثم حَدَثَ أنْ رأى خطَّاب مجموعةً مِن الـمُقاتلين يرتدون زيًّا أبيضًا مُـمَـوَّهًا قادِمين تجاهه، و ظنَّ -مرَّةً أخرى- أنهم مِن إخوانه الـمُجاهدين، و لكنَّه تشابك معهم في الأخير و تبادلَ الطَّرفان إطلاقَ النَّار و رميَ القنابِل، فأُصيب أحدُ أصحاب خطَّاب بطلقة مِن نوع (بيكا) أصابت قلبَه مُباشرةً فسقط على الأرض، و عجز خطَّاب و مَن معه عن سحبِه لصعوبة الحال، ثم انسحبوا و صعدوا إلى إحدى الـمُرتفعات بعد أن رأوا القوات الرُّوسية تنتشر يمينًا و شِمـالاً تُريد مُحاصرتهم، و أقام خطَّاب لهم كَمينًا مُحكَمًـا كان مِن شأنه أن يُحدث مقتلةً عظيمةً بين الرُّوس، و لكنَّ أحد أصحابِه استعجل إطلاقَ النَّار و قتل واحِدًا مِنهم، ثم أُلـحِقَ ثلاثةٌ آخرون به، فطلب الرُّوس الـمَدَدَ بالإسناد.. و في هذا الوقت وصلت مجموعةُ الـمُجاهدين الذين تقدَّمَهم خطَّاب إلى مكان القِتال، فأمر خطَّاب يعقوبًا بتوجيه الـمجموعة نحو اليسار لاستحالة التراجُع، و تزامن هذا مع قدوم قوات روسية جديدة بالأسلحة الثقيلة و اكتشافها مواقع تواجُد الـمُجاهدين، و لكنَّ بعضًا مِن الرُّوس أنفسهم قُتِلوا بسبب القصف الرُّوسي الذي لم

يكُن يُفرِّق بينهم و بين الـمُجاهدين، ثم توجَّه خطَّاب نحو اليمين و بدأ بإطلاق النَّار عشوائيا كي يُشتِّت انتباه الرُّوس، و مِن جهة أخرى أعدَّ يعقوبُ كمينًا رفقة بعض الـمجاهدين سحقوا فيه عددًا مِن جنود العدو، و غنِموا ما كان معهم مِن سلاح و ذخيرة و خِيام و أكل، و استفاد خطَّاب مِن تلك الذخيرة بعد أن نَفِذَ ما معه منها. و بعد أن هدأت الأوضاعُ قليلاً شرع الـمُجاهدون في إسعاف الجرحى الذين بلغ عددُهُم ٣٠، منهم بعضُ القادة، فيما بلغ عددُ الشُّهداء -نحسبُهُم كذلك- ٣٠ أيضا فيهم بعضُ القادة الآخرين، و كانت القبورُ تُحفَر بالسَّكاكين نظرًا لعدم توفُّر أدوات الحفر الكافية!

ثم إنَّ خطَّابًا قد تحدَّث -مرَّةً أخرى- مع شامل باساييف حول الوضع ساعتئذ، و كان يهدِف إلى البقاء في ذلك الموقع زمنًا ريثما يتمكَّنُ أفرادُ مجموعته مِن التقاط أنفاسِهم و إراحة أبدانهم بما يسمح لهم بمواصلة المسير بعدها؛ و ذكر له بأنَّ الرُّوسَ متواجدون في الأمام، و لكنَّ شاملاً اعترض عليه و شدَّد له على ضرورة الاستمرار في التحرُّك و عدم الرُّكون، فغضِبَ خطَّاب كثيرًا و أنهى كلامَه مع لشامِل بقوله له: «أدِرْ الأمُورَ كَمَا تُحِبُّ.. لا يمشي جسدٌ برأسَيْن»، ثم ترك جِهاز الـمُخابرةَ و واصل السَّيْر!.. و بعد أن نزل الـمُجاهدون إلى وادٍ عميقٍ تفاديًا لقصف طائرات العدو، صعدوا مرَّة أخرى في الصَّباح الباكِر إلى رفعة الجبل و تقاتلوا مع أفراد القوات الخاصَّة الرُّوسية (الكوماندوز) و (الديسانت) [٣٢]، فهلك مِن هؤلاء ٥٠ مُقاتِلاً في دفعة واحِدة في مكان واحد، إضافةً إلى ٣٥ غيرهم تمَّ القضاء عليهم يمينًا و شِمالاً قبل

(٣٢) و هي التي كانت تتفاخر بها الحكومةُ الرُّوسية و تُمنِّي العالَمَ بقتل قادة الـمُجاهدين في الشيشان على يديها، و لكن هيهات هيهات، فقد حدثَ العكسُ! و سنرى بعد قليلٍ -أيضا- سَحْقَ الـمُجاهدينَ عددًا مِن قوات (الأمون) التي تفوق قوات (الكوماندوز) و (الديسانت) تدريبًا و تسليحًا.

ذلك، و تمَّ أسرُ آخرين لا يُعرف عددُهُم على وجه الضَّبط.. و لكِن -للأسف- نجح أحدُ الأسرى في الفِرار مِن بين يدي الـمُجاهدين، و التحق بأصحابه الرُّوس ليُخبِرَ قادته بمواقعهم، و قد برَّر خطَّاب هذا الخطأ الذي أدَّى لفِرار الأسير بعدم حصول الاستطاعة لِـحِراصته، و أكَّد أنَّ الاحتفاظ بالأسرى -في ذلك الظرف الخاص- كان خطأ فادِحًا، و أنَّ الواجب الذي كان عليه في تلك اللحظة هو قتلُ جميعِهِم درءً لوقوع الشَّرِ منهم على الـمُجاهدين.

ثم استمرَّ الـمُجاهدون في السَّير، و بدأت درجةُ الـمُعاناة تزيد بوتيرة عالية؛ يحكي القائد خطَّاب قائلاً: «و الله يَا إخوَة لأوَّلِ مرَّة أرَى جَرْحَى مِن الـمُجاهِدِين لا يحمِلُهم أحَدٌ، و قَتلى شُهداءَ لا أحَدَ يدفِنُهُم. و الـمُشكِلَة أنَّ بعض النَّاسِ كانوا يظُنُّون أنَّ هذا الجريحَ أو القتيلَ لديه مَـجْمُوعةٌ تتكفَّلُ بِهِ، و لم يدْرُوا أنَّ النَّاسَ كانت تَـمْشِي فُرادَى بِلا مَـجْمُوعاتٍ، و هناك كانت الـمُشكلةُ؛ فالذي سقط سقطَ، و كان هناك ثلاثة أو أربعة قتلى، و جريحٌ واحِدٌ مرَرْتُ بهم فلم أسْتطِعْ أن أدَعَهُم، فطلبتُ مِن الإخوة أن يحفِرُوا حُفرَةً لهؤلاء الشُّهداء، و ترجَّيتُهُم رَجَاءً، فلم يعُدْ هناك مَـجَالٌ للأمر و لا أن نفرِضَ على أحَدٍ شيئا، فالنَّاسُ كانت مُنهَكَةً جِدًّا، فجزاهم اللهُ خيرًا سمِعوا لي و حَفِروا، و كذلك جهَّزُوا حُفرةً للجريحِ لأنَّه كان مُصابًا في رأسه و كان يحتضِرُ؛ و الله لقد عمَّت رائحةُ الـمِسْكِ الـمَنطقةَ، و كانت النَّاسُ -رغم شِدَّة القَصْفِ- تأتي إلى هذا الشَّخْص و تشُمُّ الرَّائحَةَ و تُكَبِّرُ، و كُنتُ أقولُ لهم: امشوا الآن. ثم استُشهِدَ رحمة الله عليه!.. ثم نَزلنَا كُلُّنا في الوَادِي و جَاءَتْ الطَّائراتُ العَمودِيَّة فَرَأونا وَ كَشَفُوا مَواقِعَنا، فصارت كُلُّ أربعة طائرات تأتي فتَدُكُّ الأرْضَ و تحرِقُها حَرْقًا، و لم يكُنْ لدَيْنا شيءٌ لنرُدَّ عليها، و كانت تنخفِضُ كثيرًا ثمَّ تقصِفُ.. فبدأ القصفُ، و بدأت صواريخُ الـ(غراد) و صواريخ الـ(موشاك) و الـ(الأورجان) تأتي

مِن كُلِّ مَكَانٍ، و كُنْتُ أقولُ الآن: القتلى سيكونون بالـمئات! و كان التَّفكيرُ عندنا أنَّه لو قُتِلَ نِصفُ الـمُجاهِدين (٦٠٠) و ينجو النِّصفُ الآخر (٦٠٠) فإنَّ هذه النِّسبةَ مقبولةٌ لدينا، مِن شِدَّة الحِصار و البلاء الذي حَلَّ بِنَا»!!

و بعد ذلك خرجت الأمور عن السيطرة بين الـمُجاهدين، و أصبحت تحرُّكاتهم عشوائيةً غير مُنظَّمة، و لم تكُن هنالك إمكانيةٌ لاجتماع القادة و حصول التَّشاوُر فيما بينهم، و صار وضع الجميع أشبهَ بوضع الغنم حينما يطولُ غيابُ الرَّاعي عنها! و ما أن حلَّ وقتُ الـمغرِب حتى شرعوا في التحرُّك نحو القُرى السكنية القريبة، و في ذات الوقت راح الرُّوس -و كان عددُهم يزيدُ باستمرار- يُكثِّفون جُهودَهم بتلغيم الطُّرُق الجبلية حول مواقِع تواجُد الـمُجاهدين، و نشر الآليات العسكرية في كُلِّ مكان، ثم اشتدَّ القصفُ و الضَّربُ عل الـمُجاهدين أثناء تحرُّكِهم السَّريع، و رأى خطَّاب و أصحابُه إبقاء الجرحى -و كانوا يزيدون عن الـمائة- لدى أهالي القرية التي دخلوها للتو، و لكنَّ الأهالي -و أغلبُهم مِن النساء و الأطفال- رفضوا استقبالهم تجنُّبًا للقصف الرُّوسي الوحشي بحجة وجود (الإرهابيين) بينهم، و هو ما أدرك خطَّاب صوابَه، و لكنَّه عبَّر مِن جانب آخر عن صعوبة مُشاهدة الجرحى و هم عاجِزون عن الحركة ينتظرون الـموت، و لا أحد قادرٌ على الاعتناء بهم و مُعالجتهم، بل حتى مَن يموت منهم لم يكُن -عادةً- يُدفَن، و هذا ما يدُلُّنا على ما بلغه الـمُجاهِدون مِن التعب و الإرهاق العظيمَيْن في تلك الظروف العصيبة!.. و بعدها ورد الخبرُ إلى شامل باساييف بأنَّ الرُّوسَ قد أعدُّوا العُدَّة لأصحابِه، و أنهم بانتظارهم في الأمام، و حُذِّر مِن التقدُّم في الـمنطقة! و هنا اقتنع شامل اقتناعًا تامًّا بصِحَّة رأي خطَّاب، فطلبه للاجتماع و عبَّر له عن حيرته سائلاً: «ما العمل؟!»، فقال خطَّاب: «أنا ذَكَرتُ لَكَ

رأيي مِن قَبل، و الآن ترى الوَضعَ؛ جَرْحَى و قَتْلَى فماذا نفعل الآن؟!.. لا يوجَدُ حَلٌّ سِوَى أنْ نَرجِعَ إلى المَنطقة التي جِئنا مِنْهَا».

على أنَّ القائد خطَّاب في هذه اللحظات بدأ يشعُر بضيق الحال أكثر مِن أيِّ وقتٍ مضى، و صار يرى أنَّ الموتَ أقربُ إليه مِن كُلِّ شيء، و تأهَّب مع أصحابه لاستقباله تأهُّبًا حتى أنَّ الابتسامة لم تكُن تظهر على وُجوههم لثلاثة أيام و أربعة تواليًا، فالرُّوس قد حدَّدوا موقِعَهم، و ضبطوا عدَدَهم، و كان مِمَّا قاله خطَّاب لمَن حوله: «استعِدُّوا للقاءِ الله، و اذكُرُوا اللهَ كَثيرًا، و الحمدُ لله، و نَسْألُ اللهَ أن تأتِي الطَّلقَةُ بين أعيُنِنا لا مِن ظُهُورِنا، نسألُ اللهَ الشَّهادَةَ و نَحْنُ مُقْبِلُونَ غيرَ مُدْبِرين، فاستعِدُّوا لأمرِ الله»، و كان قد استُشهِد مِنهم في المعركة السابقة أكثر مِن خمسين مُجاهِدًا.. و لكن تمَّ الاتصال بعدها بين خطَّاب و القائد المجاهِد (أبي ذر الطَّائفي) الذي بعثه للترصُّد مِن قبل رفقة أربعةٍ آخرين، فأعلم أبو ذر خطَّابًا بوُصولهم إلى الوادي و تجاوُزهم نهاية الطريق في أمان، و هنا أخبر خطَّابُ شامِلاً بذلك و حثَّه على المُغادرة قائلا: «بسُرعَة! الآن نتحرَّك عبر ذَلِكَ المَكَان، وَ أرجُو أنْ لَا يَجْتهِدَ أحَدٌ بأمرٍ مِن عِنْدِ نَفْسِه»، فحثَّه على تجنُّب التمسُّك برأيه وحدَه تفاديًا لتجدُّد الخِلاف الذي كلَّفهم سُقوط ما يزيد عن المائة مُجاهد بين قتيل و جريح. فتحرَّك الجميعُ راجِعين إلى الخلف.. و في اليوم التالي نجح خطَّاب و شامل و أصحابُهما في عبور الطريق و الوُصول إلى الوادي، و لكنَّ أرضية هذا الوادي كانت وَعِرةً جِدًّا؛ ففقدوا ٢٥ فردًا مِن الخيل؛ مات منها ٢٠ و نحروا ٤ للأكل، و لم يبقَ منها سوى الذي مع القائد خطَّاب، و كان سببُ موت تلك الخيول العشرين رُسوخُها في المستنقعات الطينية و استحالة إخراجها، و كانت مُحمَّلةً بالأسلحة و الذخائر، فلم يكُن بوِسع المُجاهدين إلا النظر إليها و هي تموت ببُطء. على أنَّهم في الأخير خرجوا مِن الوادي، و كان خطَّاب يتوقَّع

وُجود قوات روسية في الطرق الجبلية، و لكنَّ ذلك لم يكُن، فالرُّوس قد قد علاهم الفزع بعد إبادة فصيلَيْن كامِلَيْن مِن قوات (الكوماندوز) و (الديسانت) الخاصة في ساعات معدودات، فانسحبوا و غادروا المكان فورَ ذلك!

و أخيرا.. وصل المُجاهِدون إلى قرية يُقال لها (تاوْزَني) مع حلول الليل مِن دون أن يدخلوها، و قد بلغ بهم التَّعبُ و الإجهادُ مبلغًا عظيمًا لا يُحتمَل المزيدُ منه، و لـمَّا رآهُم أهلُ القرية بكوا -نساءً و أطفالاً- حين أبصروهم على ذلك الحال، فمن المُجاهدين مَن كان محمولاً على الأكتاف، و منهم مَن كان يمشي حافِيَ القدمين فوق الثلج لِمَا يزيد عن يومٍ كامِلٍ حتى تدمَّلت قدماهُ و انتفختا، و منهم مَن أنهكه الجوعُ حتى كان قاب قوسين أو أدنى مِن أن يموت، مع العلم بأنَّ بعض القوات الرُّوسية كانت متواجِدة بالقُرب مِن تلك القرية.. يصِفُ لنا خطَّاب المشهدَ قائلاً: «فوصَلْنا إلى تِلْكَ القَريةِ، وَ حَاوَلنا أنْ نُرتِّبَ التَّموِينَ في السَّاعةِ الثانية باللَّيلِ، وَ كانَ النَّاسُ كُلُّهم قد اجتمَعُوا في الشَّارع العَام، فبَقيتُ أجمعُ فيهم لعِدَّة سَاعَاتٍ، فَتصوَّر أنَّ المَجمُوعَةَ فيها مائةُ شَخْصٍ أو مَائتين أو خمسِينَ و نحنُ نُنادِي: القَائِدُ الفُلاني خُذ مجموعَتَكَ! و القائدُ الفُلاني اسحَب مجموعَتَكَ! و هذا يَصرُخُ، و هذا يُنادِي، و الرُّوسُ كَانُوا قريبين مِنَّا.. فسَحَبْنا النَّاسَ و جَمَعناهُم و أرَدْنا أن نخرُجَ، و لكن طَلَعَ النَّهارُ، فالرَّاصِدُ الذي يعرِفُ الطريقَ قال: لا نَسْتطِيعُ أنْ نَعبُرَ المَنطقَةَ في النَّهَارِ.. فقُلنا: نبقى الآن».

ثم دخلوا القريةَ و أملوا الإقامة فيها زمنًا كافِيًا؛ و لكنَّ أهلها خشوا مِن وجودهم و قالوا لهم بصريح العبارة: «إمَّا أن نخرُجَ نحنُ و القرية و تبقوا فيها و تُقاتِلوا كَمَا تُريدونَ، و إمَّا أن تخرُجُوا أنتُم و يبقَى النِّساءُ و الأطفالُ».. و هنا يقول خطَّاب: «فكان كلامُهُم مَنطِقيًّا و واقِعِيًّا جِدًّا، فطلبتُ مِنهم يومًا واحِدًا فقط حتَّى يُغيِّرَ المُجاهدون

الأحذِيَةَ و الجوارِبَ، و القُرَى كانت مُحاصرةً و ليس فيها شيءٌ، و الله كُنَّا نجمعُ الأحذيةَ مِن بيوت النَّاسِ و الجوارِب الـمُستعملة مِن البيوت، و كانت النِّساءُ يأتينَ بالحَلِيبِ و الطَّعام، و كان الـمُجاهِدون يتضَاربونَ عليها مِن شِدَّة الجوعِ و العشوائية و "اللخبطة"!!.. و صار بعضُ الـمُجاهِدينَ يُشعِلونَ النَّارَ في البُيوتِ التي هُمْ فيها و يتدفَّأونَ، و كانت البيوت مهجورةً. و كانت النَّاسُ تتعجَّب مِن الـمُضاربات حتَّى إنَّ بعضَ الشَّباب قام بتَصويرِ تلك الـمناظِرِ بالفيديو، فحقيقةً لم يكُن هُناكَ إمكانيةٌ للترتيبِ، و سألني أحدُهُم: لـماذا لا يُوجَد تنظيمٌ في الأكْلِ؟! فقُلتُ له: يا إخوة نحنُ الآن خرجنا مِن الحصار و مِن مَوْتٍ مُحقَّقٍ، فاحمَدُوا اللهَ على ذلك، ليس هناك وقتٌ للترتيب.. و كان الوضعُ صعبًا».

و بعدئذٍ تمَّ ضبطُ الـمجموعات و تعيين قائدٍ على كُلِّ واحدةٍ منها قبل استئناف الـمسير، و رغم أنَّ بعض الـقوات الرُّوسية كانت متواجِدةً في أطراف ذلك الـمكان، بيد أنَّ الله تعالى حفِظ عبادَه الـمُجاهدين الذين توجَّه بعضُهُم إلى القُرى الـمُجاوِرة الأخرى عن طريق أقارِبهم و معارِفهم، و بقي البعضُ الآخر داخل القرية (قرية تاوْزَني)، بينما انطلق البقية ليلاً و عينُ الله تحرُسُهم؛ يقول القائد خطَّاب: «وَ الله يَا إخوَة كُنَّا نمُرُّ مِنْ تَحْتِ الرُّوسِ في الغَابَاتِ وَ نَقُولُ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ! وَ الحمدُ لله الذِي أعْمَى أبْصَارَهُم، وَ تَجاوزنا الـمَنطِقَة و دَخَلْنَا في غَابَاتٍ كَثيفةٍ جِدًّا».. و إلى هُنا فعددُ الـمُجاهدين في الـمجموعة قد انخفض ليصِلَ إلى ما بين ٧٠٠ و ٨٠٠ مُجاهِدٍ.

و هاهُم أولئك الأبطال -بقيادة خطَّاب و باساييف- قد دخلوا مكانًا غابِيًّا آمِنًا، و بدا لهم أنَّه بعيدٌ عن أعيُن الرُّوس، و هو يقع بالقُرب مِن حدود منطقة فيدنو. و بعد أن

استقرَّ أمرُهُم نِسبيا شرع قادةُ الـمجموعة في إعادة ترتيبها و تنظيمها، و رِعاية الجرحى و الـمرضى و الـمُتعبين منها، و راحوا يشترون الأحذية و الألبسة الرِّياضية مكانَ العسكرية التي كانوا يفتقِدونَها.. و لكنَّهُم تفاجأوا بقُدوم الرُّوس إلى تلك الـمنطقة بلا سابِقِ إنذار، و تعرَّضوا للحصار مرَّة أخرى، فهُنا تجهَّزوا للقتال، و نجحوا في ضرب قافِلة عسكرية روسية قوامُها ٣٥ فردًا مِن قوات (الأمون) القوية جِدًّا، و أبادوهم عن بِكرة أبيهم، ففتَّ هذا في عضُد الحكومة الرُّوسية؛ لأنَّ مقتلَ فردٍ واحِدٍ مِن قوات (الأمون) يُساوي مقتل ١٠ مِن الجنود العاديين! ثم أخذت الرُّوسَ العِزَّةُ و الاستكبارُ، و عزموا على الرَّد القاسي ضد أصحابِ خطَّاب، فأقدموا على حِصار موقع تواجُدِهم بـ٧ آلاف جندي، و لكنَّ القائد خطَّاب كان مُتوقِّعًا ذلك مُستعِدًّا له؛ فقام بتقسيم مجموعته الكبيرة على عِدَّة مـجموعات، و جعل على كُلِّ واحِدة منها قائدًا كِفءً؛ فضربوا قوافِل الرُّوس ضربًا، و سحقوا عددًا كبيرًا مِن جنودهم، و صمدوا صُمودًا عظيمًـا حتى انجلى مَن بقي مِن الرُّوس و غادروا الـموقِع ناكِصين على أعقابِهم.. و عندئذٍ أدركَ قادةُ القوات الرُّوسية صُعوبةَ مأموريتهم، و قوةَ أعدائهم، و شِدَّةِ بأْسِ خطَّاب و باساييف و مَن معهُمـا رُغم قِلَّة العدد و الإمكانيات مُقارنةً بالرُّوس و إمكانياتهم، و أقرُّوا بأنَّ حربَهم التي وعدوا العالَـمَ بانتهائها في ظرف أسبوعٍ لم تنتهِ بعد، بل هي في امتدادٍ مُستمِرٍّ، و الـمُجاهِدون في مُقاومةٍ شرِسَةٍ مُتواصِلةٍ، و الحمدُ لله الذي نصَر أولياءه و أذلَّ أعداءه.

بين خطاب و بوتين

لقد عرفت الفترة التي تلت نجاح الـمُجاهدين في الانسحاب مِن منطقة شاتوي بعد عظيمِ تحمُّلٍ للصِّعاب و مُثابرة، و طُولِ مُقاومةٍ للرُّوسِ و فتكٍ بهم، و كبيرِ صبرٍ على مقتل الأصحاب و رفقاء الدَّرب الـمُجاهدين، عرفت تلك الفترة تزايُدًا في الهجمـات ضد القوات الرُّوسية داخل الشيشان و داغستان، و توسُّعًا لدائرة القتال و الـمواجهات، فتارةً يقع تفجيرٌ لشاحنةٍ أو مركبةٍ ما، و تارةً يوضَع لَغمٌ، و تارةً ثالثةً يُقتل جُندي روسي، و هذا في الشهور الأولى فقط مِن بداية الحرب، و هي الـمحصورة بين أواخِر سنة ١٩٩٩م و أوائل سنة ٢٠٠٠م التالية.. و لكن إذا علمنا أنَّ الرئيس الرُّوسي بوريس يلتسن قد استقال مِن منصبه -فجأةً- في آخر يومٍ مِن سنة ١٩٩٩م بسبب حالته الصحية -كما قيل- فخلفه على الـحُكم -بالوكالة- عميلُ الـمُخابرات السابق و الـمغمور فلاديمير بوتين الذي كان يبلُغ مِن العُمُر يومئذ عامه الثامِن و الأربعين، و الذي تمَّ انتخابه رئيسا للبِلاد شهر مارس للولاية الأولى، و إذا علمنا أنَّ الرئيس الجديد أغلق باب الـمُفاوضات مُطلقًا مع الرئيس الشيشاني أصلان مسخادوف و أصرَّ على تصفية قادة الجِهاد في الشيشان بأي ثمن، و قام بإيجاد عملاء كثيرين داخلها بزعامة أحمد قديروف [٣٣] لاستمـالة قادة الـمُجاهِدين أو إضعاف شوكتهم. إذا علِمنا كُلَّ ذلك أدركنا ما كان ينتظر الشيشان مِن الـمجرم الـمُتطرِّف

(٣٣) و كان أحمد قديروف مِن رجال الزعيم جوهر دوداييف و أنصاره في الحرب الأولى قبل أن يُغتال جوهر، ثم بقي إلى جِوار الزعيم الثاني أصلان مسخادوف، فلما انفجرت الحربُ الثانية مِن داغستان انتقل أحمد ليكون تحت سُلطة الرُّوس ضد أبناء بلده، ثم لازال مُقرَّبا مِن فلاديمير بوتين حتى هلك في التاسع مِن مايو سنة ٢٠٠٤م إثر عملية اغتيال، عامله الله بما يستحق.

بوتين الذين كان أشدَّ عليها مِن سلفه المجرم يلتسن، و ما كان على القائدِ خطَّاب و رفقائه القيامُ به لمواجهة تلك المخاطِر البوتينية.

و قد قال بوتين كما في كتاب (أحاديث مع فلاديمير بوتين) الذي نُشر بعد فوزه بالولاية الرئاسية الأولى: «كَان يُمكِنُ للقوقَازِ أن ينفصِلَ بأكمَلِه. و بعد ذلكَ يمتدُّ الانفصالُ إلى مَنطِقَة الفولجا و باشْكِيرْيَا وتتارِسْتَان. و عندما تَصَوَّرتُ ذلك وجدتُ أنَّ النَّتائجَ سَتَكُونُ مُفزِعةً بِسَبَبِ أعدَادِ اللَّاجِئينَ الَّذِين سَتضْطرُّ أوروبا و أمريكا لاستقبالهم في حال ما إذا تفكَّكت روسيا»! و يُفهَم مِن هذا الكلام -المُغلَّف بمشاعر الحرص على إنقاذ الغرب مِن خطر تفكُّك الاتحاد السوفييتي- أنَّ هذا المُجرم كان رافِضًا الرَّفْضَ القاطِعَ مُحاولةَ مُسلمي القوقاز الانفصال عن روسيا، كُلٌّ تحت راية بلاده، و هو الذي لم تكُن لديه أيُّ نية في عقد المُفاوضات مع الجانب الشيشاني للوصول إلى تسوية تُرضي الطرفين رغم رغبة أصلان مسخادوف في ذلك، و لم يكُن مُقتنِعًا إلا بالحل العسكري لاسترداد دول القوقاز المسلمة جميعها إلى حضن دولته؛ فبوتين معروفٌ بحنينِه إلى زمن الاتحاد السوفييتي و طُموحاته البعيدة[٣٤] لاسترداد أمجاد الإمبراطورية المتفكِّكة!

هذا، و قد كشف خطَّاب -رحمه الله- عن استراتيجية الرُّوس المُستحدثَة مع بداية الحرب الثانية، و هي على عكس ما حدث في الحرب الأولى؛ ففي الأولى كانت هجمات الرُّوسُ يغلُبُ عليها التعجُّلُ و العشوائية، مع قِلَّة قُواتهم نِسبيًّا، و كذلك التمركُز في المناطِق المفتوحة أكثر مِن غيرها. بينما كانت هجماتُهم في الثانية مُتأنِّيةً و دقيقةً بعيدًا عن العشوائية، مع الزيادة الكبيرة في حجم القوات و الإمكانات

(٣٤) أكتُبُ هذه الكلمات في بداية قيام غزو بوتين لأوكرانيا (آخر شهر فيفري ٢٠٢٢م)، و لا شكَّ أنَّ مِن الدوافِع لهذا الغزو حنينُ بوتين إلى زمن جده ستالين، و سعيُه للتوسُّع على حِساب أوكرانيا، و ربما على حِساب غيرها مِن بعدِها.

الحربية، إضافةً إلى حِرص الرُّوس على التَّمركُز في كُلِّ مكانٍ لتشديد الحِصار على مواقِع المُجاهدين، و تكثيف عمليات مُداهمة القُرى و المنازِل التي يُظَنُّ -و لو ظنًّا قليلاً- تواجُدُ المُجاهدين بداخلها.. و لذلك كلِّه أدركَ القائدُ ضرورة توسيع نِطاق برامِجه التدريبية و الإعدادية، و رأى أنَّ البرامِج الصغيرة المُتقطِّعة -كما وصفها هو- لا تحلُّ المُشكلةُ بما كفي، و هذا بعد قيامِه بزيارةٍ ميدانيةٍ للمُدن و القُرى، و اجتماعِه بقيادات المجموعات المُجاهِدة، فتمَّ الإجماعُ و الاتفاقُ على ذلك بفضل الله في شهر أفريل أو ماي مِن سنة ٢٠٠٠م[٣٥].

و قد وَعَدَ خطَّاب بأنَّ برامِجَه الكبيرة تلك ستقلِبُ موازينَ المعركة إن شاء الله وتضرِبُ استراتيجيات الرُّوس! و هذا هو الذي حصلَ فِعلاً بعدئذٍ حتى ضاقت بالرُّوسِ الأرضُ بما رحُبَت، فجمعوا عزمَهم على التخلُّصِ مِن خطَّاب و باساييف و أبطال المُقاومة الشيشانية الذي ما فتئوا يفتِكون بالرُّوس و يُضيقوهم الآلام و الأوجاع منذ ١٩٩٥م.

لقد كان خطَّاب يُدرِك جيدًا عقليةَ الرئيس الرُّوسي الجديد فلاديمير بوتين، و يستقرئ مُسبقًا خُطَطَه المستقبلية في الشيشان، و لذلك نراه يعمل على رفع مُستوى برنامج الإعداد و التدريب في مُعسكره، و يسعى إلى توسيعه ليشمُل كافة الطوائف الشيشانية المُقاتلة؛ فقد كان على يقينٍ بأنَّ الحرب الثانية ضدَّ الرُّوس بقيادة المُتعصِّب بوتين ستكون أصعب و أشد مِن سابِقتها.

---

(٣٥) و إلى هذه الفترة (بالضبط: ٢٤ ماي ٢٠٠٠م) ينتهي حديثُ القائد خطَّاب و تأريخُه مسيرتَه الجِهادية و عملياته العسكرية في كتاب (تجربة الأنصار العرب)، و هو الذي أفرِغَت فيه المادة الصوتية لذلك الحديث.. و هنا اعترضتني مُعضلةٌ بحثيةٌ فيما يخُصُّ مسيرةَ خطَّاب في ما بعد شهر ماي ٢٠٠٠م، و لم أستطِع العُثورَ على مَصدرٍ عربيٍّ أرشيفي موثوقٍ -ولا غيرِ موثوقٍ- سُجِّلت فيه أهمُّ تفصيلات بقية مسيرة خطَّاب العسكرية انتهاءً إلى وفاته شهر مارس ٢٠٠٢م، ولا يُكلِّف الله نفسا إلا وُسعها.

الرئيس الروسي فلاديمير بوتين

و لـمَّـا استيقظ العالم على وقعِ تفجيرات ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بأمريكا بانَت الحقيقةُ الـكامِلةُ للـمؤامرة العالـمية على الـمُجاهِدين في كل مكان، و إذا كان مُجاهدو الشيشان قبل ذلك يُسمَّون بـ(الإرهابيين) على الـمستوى الرُّوسي فقط، فإنَّهم أضحوا يُسمَّون كذلك على الـمستوى العالـمي بعد ١١ سبتمبر، فتعقَّدت الأوضاع بالنسبة للـمُجاهدين على الأرض، و أصبحوا مُستهدَفين عالـميا غيرَ مُبَـرَّئين، و ازداد خِذلانُ الأنظمة العربية إياهم، و لكنَّ خطَّابًا و صَحْبَه الـمؤمنين لم يُبالوا بكُلِّ ذلك، و واصلوا مسيرةَ الـمقاومة ضد جحافل بوتين، و ثبتوا على مبادئهم و ما بدَّلوا تبديلاً.

و في الـمُقابل كان بوتين يعلم بأنَّ تصفية قادة الجِهاد الشيشاني، و على رأسهم خطَّاب و باساييف، سيكون الخطوة الأولى و الكُبرى في طريق القضاء على الـمُقاومة و إعادة الشيشان لبيت الطَّاعة الرُّوسي، و هو الذي أمرَ في صائفة عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م رئيسَ جهازِ الـمُخابرات في بلده (نيكولا باتريشوف) بإعطاء

الضوء الأخضر للقوات الرُّوسية بغية القبض على أولئك القادة، و أعطاهم مُهلة ثلاثة شهور و نصف الشهر.. و لا أدلَّ على ما قلناه مِن:

- تصريح بوتين حين قال: «أتَمنَّى وَ أرِيدُ أنْ يَتِمَّ تَصْفِيةُ خَطَّاب»، فلمَّا بلغه نبأ مقتل القائد خطَّاب في ربيع سنة ٢٠٠٢م صرَّح قائلاً: «إذَا تَمَّ القَضَاءُ عَلَيْهِ بِالفِعْلِ فَسَيَكُونُ ذلِكَ ضَرْبةً قاضِيةً للإرهَابِ»! فتأمَّل إدراك بوتين لـمكانة القائد خطَّاب في الجهاد الشيشاني و كونه عقبةً كؤودًا في طريق استيلاء الرُّوس على الشيشان.

- و تعرُّض القائد لثلاث محاولات اغتيال فاشِلَة بالتفجير، و كلها وقعت بعد تولِّي بوتين زِمامَ الـحُكم في روسيا؛ فأما الأولى فبتفجير شاحِنة مُلغَّمةٍ كان يقودُها، و لكنَّه نجا منها و مات أحدُ رفاقه مِمَّن كان معه بسببها. و أما الثانية فبتفجيرٍ قويٍّ وقع بالقُرب من البيت الذي كان يُقيم فيه، فنجا مرَّة أخرى بفضل الله. و أما عملية الاغتيال الثالثة فقد وقعت بتاريخ ٢٤-٠٩-٢٠٠١م حيث أرسلت الاستخبارات الرُّوسية أحذيةً أمريكيةَ الصُّنع إلى الشيشان، بعد أن وضعت في داخل كل حذاء إبرةً صغيرةً سامَّـةً بحيث أنَّ كل مَن يرتديها سيتسمَّم و يُقتَل بعد أن يمشي بها مسافة ٥ كيلومترات، و قد أرسِلَت تلك الأحذية خصِّيصا لقادة الجِهاد الشيشاني و أُمِرَ العملاء الذين تلقَّوها مِن الرُّوس بأن يُسلِّموها لأولئك القادة يدًا بيد، و قد ذكر القائد خطَّاب بأنَّ الـمُجاهدين قد تلقَّوْا إنذارا مُسبقا بقُرب وصول حزمة من الأحذية نحو الـقادة قبل حُلول فصل الشتاء، ولذلك فشلت مـحاولة الاغتيال الدنيئة هذه في مهدها.

القائد خطاب يثبت -بمقطع مصور- محاولة الروس اغتيال القادة المجاهدين
الشيشان عبر أحذية تحتوي في داخلها على إبر صغيرة حادة و سامة

و حان وقت الرحيل

إننا نرى خاصيةً عجيبةً بقيت -و ستبقى أبدَ الدَّهر- حِكرًا على مُجاهِدي الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا؛ و هي البحثُ الحثيث عن الشهادة في معامِع القتال و مواطِن الاستبسال!

بدأ خطَّاب مسيرته الجِهادية سنة ١٩٨٨م في أفغانستان و لما يتجاوز بعدُ عامَه الثامِن عشر؛ و قد رُوي أنَّه لدى وُصولِه إلى هناك و انضمامه إلى إحدى الكتائب، طلب مِن قائدها الميداني أن يجعله في صفِّ القِتال الأوَّل، و لكنَّ ذلك القائد رفض طلبَه؛ مُبرِّرا ذلك بأنَّ سيف الإسلام خطَّاب كان صغيرًا و لم يتدرَّب التدريبَ الكافي! ثم شارك خطَّاب في كُبرى العمليات العسكرية في أفغانستان بعد ١٩٨٨م مثل معركة فتح جلال آباد التي كان قائد سرية المدفعية فيها مع (أبو أيوب العراقي)، و كذلك شارك في معركة خوست و معركة فتح العاصمة كابُل، وقد نجا مِن الموت عِدَّة مرات خلال كُلِّ معركة و مواجهة.. و في طاجيكستان قاد بعضَ العمليات بنفسه مِن دون أن ينال الشهادة، و فَقدَ هناك أصبعين مِن أصابع يده اليُمنى.. و في الشيشان قاد خطَّاب كُبرى عمليات المُجاهدين ضدَّ الرُّوس، و كان في مُقدِّمة الصَّف دائمًا، و جُرِح و أصيب عِدَّة مرات، و لكنَّ الله تعالى قدَّر أن يموت خطَّاب بغير الصورة التي أرادها هو يوم ١٩ مارس ٢٠٠٢م!

و لقد دوَّن قصَّةَ مقتل القائد خطَّاب رفيقُ دربِه و نائبُه مِن بعده أبو الوليد الغامِدي -رحمه الله- في شهر صفر مِن عام ١٤٢٤هـ، و فصل القولَ في كيفية قتله و المُتسبِّب فيه، و أوضحَ تفاصيل القصة المُثيرة في رسالة منفردة تحت عنوان (قصة مقتل القائد

خطَّاب)، و كانت نُشِرت لأول مرة على موقع صوت القوقاز، و قد ارتأيتُ أن ألـخِّصَ مضمونها عل النحو التالي:

كان الرُّوسُ -على الأرجح- قد خطَّطوا لعملية اغتيال القائد الأخيرة قبل وُقوعها بسنة كامِلةٍ؛ فقد ذُكِـر أنَّ العميلَيْـن الـمُتَّهمَيْـن بقتله لم يكُونا قد التحقا بالعمل معه إلا قبل مقتله بسنة. و كان بعضُ الـمُجاهدين يُحذِّرونه مِنهمـا مِرارًا، و أكَّدوا له صِلَتهمـا بالاستخبارات الرُّوسية و خُطورتهمـا على القائد و عليهم، و لكنَّ خطَّابًا كان وسطًا بين طردهما و الرِّضا بوُجودهما؛ فهو مِن جهة كان على حذرٍ مِنهمـا و لم يكُن يُقابِلهُمـا إلا نادِرًا، و إذا قابلهمـا فذلك يكون بعيدًا عن مقرِّ قيادته، و هما اللذان اعترف أحدُهما بأنَّهمـا يعملان -فِعلاً- لدى الاستخبارات، و لكنَّ ذلك ليس مُوالاةً و إنمـا هو مِن أجل خِدمة الـمُجاهِدين! و مِن جهة أخرى كان يُقلِّـلُ مِن شأن تحذيرات أصحابِه و يقول لهم عنهمـا: «لَوْ يُرِيدَانِ أنْ يَعْمَلا شَيْئًا لَعِمِلاهُ مُنْذُ سَنَةٍ، وَ رَغْمَ هَذَا سَأكُونُ حَذِرًا مِنْهُمَـا إنْ شَاءَ اللهُ»، كمـا أنَّ ظنَّه بشرِّهما لم يعدو أن يكون تبليغَهُمـا الرُّوسَ عن موقع تواجُده و مجموعتِه، و هذا غايةُ ما كان يتوقَّعُه منهمـا؛ فإنَّ الـمُتَّهمَيْـن لـمَّـا انضمَّـا إلى صفوف الـمُجاهدين تحت قيادة خطَّاب أظهرا نشاطًا كثيرًا و جِدًّا كبيرًا في العمل، و قد كانا يتولَّيان -في بعض الأحيان، و باقتدار و كفاءة- إحضارَ أغراض الـمُجاهدين مِن خارج الـبِلاد، فغلبَ على خطَّاب بسبب ذلك -و الله أعلم- حُسنُ الظن بهمـا و عدم التسرُّع لاتخاذ إجراء ضدَّهما.

ثمَّ مرَّت الشُّهورُ، و توالت الأحداثُ؛ فلاحظ خطَّاب و الـمجاهِدون أنَّ مُعظم الطُّرق الـموصِلة إليهم و التي تُحضَر أغراضُهم و احتياجاتُهم الضرورية عبرها قد أغلِقَت مِن قِبَل القوات الرُّوسية، بل و قُبِض على أكثرِ الـمُتعاوِنين معهم في ذلك

الشأن! و رغم أنَّ الشُّكوك و المخاوِف ازدادت حول المُتعامِلَين المُتَّهمَين إلا أنَّه لم يجرِ قرارٌ قياديٌّ ضِدَّهما إلى ذلك الحين.

و في أحد الأيام كتب أحدُ القادة المُجاهدين العرب في إحدى البلدان المُجاوِرة للشيشان -و لعلَّها أفغانستان- رِسالةً إلى القائد خطَّاب، و أرسلها في تاريخٍ مُعيَّن مِن شتاء سنة ٢٠٠٢م، و لكنَّ وُصولَها تأخَّر لأكثر مِن أسبوعين؛ و ذلك بعد أن استلمها العميلَان المتَّهَمَان و قاما بوضع سُمٍّ شديدِ الضَّرر فيها، فلما أرسل صاحِبُ تلك الرسالة رسائلَ أخرى بعدها بأسبوعَيْن استلمها العميلان و ضمَّاها إلى الرسالة الأولى، ثم استلمها منهما بعضُ أفراد حَرَسِ القائد خطَّاب مع أغراضٍ أخرى، و حثَّاهما على إيصالها له في أسرع وقتٍ ممكن لأنَّها تحوي رسائل مُهمَّة جِدًّا، و في الطريق وقعوا في كمينٍ نصبه لهم الرُّوس فقُتِلَ أحدُهم، و بعد نجاةِ الباقين كانوا قد تركوا كُلَّ الأغراض و أخذوا الكيس الذي فيه الرَّسائل لعِلمهم بأهميتها، و كأنَّ القَدَرَ يقولُ لهم ساعتئذ: قد تركتُم ما فيه حياةُ قائدِكُم، و أخذتم ما فيه موتُه!

و بعد أن وصل كيسُ الرَّسائلُ إلى خطَّاب قام باستلامه و إخراج الرِّسائل منه، و لكن مع تقليبه للرسالة تلو الأخرى لاحظ المُجاهِدون معه أنَّ إحدى تلك الرَّسائل كانت مختلفةً عن أخواتها!.. ينقُلُ لنا أبو الوليد عن أحدِ أولئك المُجاهدين الشُّهُود قولَه: «عندما فتح خطَّابٌ الرِّسَالةَ لاحظنَا أنَّها ليست كالرِّسالة العادية؛ لأنَّ عليها مثلُ الغْشَاءِ البلاسْتِيكي، و كُنَّا نظُنُّ أنَّ هذا الوَرَقَ مِن النَّوْعِ الرَّاقي، و قُلنا له مازِحينَ: أكيد هذه الرِّسالة مِن أُناسٍ كِبارٍ.. مع أنَّ الشكَّ يُساوِرُنا لأنَّ وَرَقها غيرُ طبيعيٍّ، و كُنَّا نُريد أن نُنبِّهَه على ذلك، و لكن نحنُ نعلمُ أنَّه أفهَمُ و أعْرَفُ مِنَّا في هذه

الأمور[٣٦].. و كان -رحمه الله- يقرَأُ الرِّسالةَ و هو يأكُلُ، مما جعل السُّمَّ يدخُلُ إلى جوفِه مُباشرةً، و بعد عِدَّة دقائقَ بدأ يشعُرُ بدَوَرَانٍ و بغِشَاوَةٍ على عينيه، و كان يظُنُّ ذلك مِن أثَر الصِّيامِ لأنَّه كان صائمًا في نهار ذلك اليوم، ثمَّ ذهب إلى الفِراشِ لِيأخُذَ قِسطًا مِن الرَّاحَةِ، ثم عادَ بعد بعضِ الوقت لِيقرأ الرِّسالةَ مرَّةً ثانِيةً، و لكنَّه لم يعُد يرى الكِتابةَ بِوُضوحٍ، و شعر بإرهاقٍ شديدٍ جِدًّا، ثم نام إلى الصَّباح، و بعد صلاة الفَجْرِ بدأ يشعُرُ بضيقِ التنفُّسِ وعدم وُضوحِ الرُّؤية، و قال للذين معَه: اِجمَعوا الأغْرَاضَ حتى لو حَصَل شيءٌ نتحرَّكُ بِسُرعةٍ.. فجمع أميرُ الحَرَسِ الأغراضَ و الرَّسائلَ بما فيها الرِّسالةُ المسمومَةُ، و جاء وقتُ صلاةِ الظُّهرِ فلم يستطِع أن يَؤمَّ الإخوةَ في الصَّلاة، و قدَّم أميرَ حَرَسِهِ في الصلاة، و بعد انتهائها اشتدَّ به الألمُ ثم سجدَ و بدأ يُردِّدُ: لا إلَهَ إلَّا الله.. لا إلَهَ إلَّا الله.. لا إلَهَ إلَّا الله.. ثم سكتَ و غابَ عن وعيِهِ رحمه الله».اهـ

و بعد أن رأى المُجاهِدون ما حلَّ بقائدهم العظيم الذي لطالما أرعبَ طُغاةَ الرُّوس و زلزلَ كيانَهم، نهض أحدُهُم -و هو مِن الأنصار- فأرقاه بالقرآن، ثم استدعى طبيبًا مِن مكانٍ بعيدٍ -و كان مِن الأنصار أيضا- فرأى هذا الطبيبُ العرقَ يتصبَّب مِن خطَّاب كالشَّلال، و رأى عليه بعض الأعراض الأخرى التي أيقن بأنَّها ناتِجة عن حالة تسمُّمٍ، فسأل المُجاهِدين عما أكله خطَّاب، فأخبروه بأنَّ جميعَهُم أكلوا مِن إناءٍ واحِدٍ، و شربوا مِن إبريقٍ واحِدٍ، و أنَّه لم ينفرِد عنهُم بشيء مِن ذلك منذ فترة ليست بالقصيرة، و لكنَّهم تذكَّروا تلك الرِّسالة الغريبة فأحضروها للطَّبيب، فأكَّد لهم بأنَّها مسمومةٌ، و أمرَ كُلَّ مَن لمسها بأن يغسِل يديه جيِّدًا، ثم أعلمَهُم بأنَّ القائد في وضعية خطيرةٍ جِدًّا، و ينبغي أن يخضع لعملية غسيل معِدة عاجِلة.. و لكنَّ

(٣٦) تأمل هذا المِثال عن أدب المُجاهدين مع قادتهم!

الـمُجاهدين في تلك اللحظة عجزوا عن فِعل شيء يُنقِذون به قائدَهم، خصوصًا و أنهم كانوا متواجِدين في عُمق غابات فيدنو الـمُحاصرة مِن العدو، اللهم إلا مُحاولة أحدِهِم الاتصال عبر الجهاز اللاسِلكي ليسأل عن دواء مُناسبٍ ضدَّ التسمُّم، و لكنَّه لم يجِد، و كان هذا ليلاً.

و بعدها بلحظات فاضت روحُ القائد الزكية إلى بارئها، و كان موتُه -على وجه الضَّبط- على الساعة الثالِثة مِن صبيحة يوم السبت ١٩ مارس ٢٠٠٢م كما أثبتَتهُ هيئةُ الإذاعة البريطانية (BBC)، و كان عُمُره عند موته ٣٢ عامًا و ١١ شهرًا و ٢٥ يومًا، رحمه الله تعالى و تقبَّله في الشُّهداء عنده، و سخَّر للأمة مَن هو خيرٌ منه.

يقول أبو الوليد: «و في صَبِيحَةِ اليَومِ الثاني (الأحد) دَفَنُوهُ -رحمه الله- في مَكَانٍ آمِنٍ، و تعَاهَدُوا فِيمَا بَينَهمْ أَلَّا يُخبِرُوا أحدًا باستِشْهَادِه قبل أن يُخبِرونَي، كَمَا تعاهَدُوا أيضًا أَلَّا يُخبِرُوا أحدًا غيري بمَكَانِ قَبرِه.. و في صبيحةِ اليَومِ الثاني مِن دَفْنِه -رحمه الله- (الإثنين) بَدَأَتْ الإنزَالاتُ وَ القَوَافِلُ الرُّوسيةُ تَتَدفَّقُ على الـمَنْطِقَةِ بِشَكْلٍ كَثِيفٍ جِدًّا، و بَدأُو بالتَّفْتِيشِ في كُلِّ مَكَانٍ و بِشَكْلٍ دَقِيقٍ جِدًّا لأكثر مِن أسْبُوعَيْنِ، وَ في أثنَاءِ هَذَا التَّفْتِيشِ كَانَ اثنَانِ مِنْ الإخْوَةِ الذِينَ يَعرِفُونَ مكانَ القبر يتسلَّلانِ ليُموِّها القَبرَ لأنَّه كان في تلك الفترة أمطارٌ كثيرةٌ مـمَّا أدَّى لنزول القبر؛ الأمرُ الذِي ربَّمَا يؤدِّي إلى كَشْفِهِ».

و لقد أشار أبو الوليد الغامِدي إلى أنَّ السُّم الذي أودى بحياة القائد خطَّاب في ساعات قليل كان مِن الـمنتظر أن يؤدي مفعولَه بعد ثلاثة أيام كامِلة، و استدلَّ على ذلك بأنَّ أمير حَرَسِ خطَّاب قد تأثَّر هو الآخر بعد ثلاثة أيام بالسُّم إثر لـمسِه الرسالةَ فقط، و ظهرت عليه أعراضُه مِن عدم وُضوح الرؤية و ضِيق التنفُّس و كثرة التعرُّق، و عندما ذهب إلى أحد الأطباء الـمتعاوِنين مع الـمُجاهدين في إحدى الـمُدُن البعيدة

أخبرَه بأنَّ السُّمَّ موجودٌ في دمِهِ، و أنَّ عليه تلقي العِلاج في أقرب وقت.. و لذلك فقد رجَّح أبو الوليد أنَّ الرُّوسَ كانوا يطمعون في القبض على خطَّاب حينما يكون عاجِزًا عن الحركة مِن أثَر السُّم، بعد عجزِهم عن ذلك و هو في حالته الصحية الجيدة؛ فكَم حاصروه بآلاف الجنود، و كَم واجهوه في معارِك طاحِنة، و كَم حاولوا اغتياله بالتفجيرات، بيد أنَّ الله تعالى كان يُنجيه مِن الموت كُلَّ مرة و يُطيل في أمد حياته، و إذا كان قد نجا في محاولات الاغتيال الثلاثة التي ذكرناها سابقا، فإنَّه لم يَنْجُ مِن الرَّابعة بقدر الله، و لِكُلِّ أجلٍ كِتابٌ، و كان أمرُ الله قدرًا مقدورًا.

أبو الوليد الغامدي في الواجهة

مباشرةً بعد استشهاد الـمسؤول العسكري في مجلس الشورى الشيشاني: القائد سيف الإسلام خطَّاب، عيَّن الـمَجلسُ أبا الوليد الغامِدي نائبًا عنه و خليفةً له.

وُلِد أبو الوليد في عام ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، و اسمُه عبد العزيز بن عمر، و هو ينتسب إلى قبيلة غامد العربية التي يتمركز أبناؤها اليوم في مرتفعات جنوب الحِجاز.. و الذي يُطالِع قصتَه يرى التشابُه الكبير بينه و بين القائد خطَّاب؛ فهُما في تاريخ الوِلادة متقاربان حيث وُلِد الأول سنة ١٩٧٠م و وُلد الثاني في سنة ١٩٦٩م، و هما في تاريخ الوفاة مُتقارِبان حيث توفي الأول في ربيع سنة ٢٠٠٤م و توفي الثاني في ربيع سنة ٢٠٠٢م، و هما في الـمسيرة الجِهادية مُتقارِبان حيث التحقا بالجِهاد الأفغاني في نفس السنة، أي في ١٩٨٨م و هُما شابَّان يافِعان لم يتجاوَزا الثامنة عشر مِن العُمُر، ثم شاركا معًا في أهم الـمعارِك و الـمواجهات ضد الرُّوس على أرض الأفغان، ثم انتقلا إلى بلاد الطَّاجيك عام ١٩٩٣م و جاهدا سوِيًّا ضد نفس العدو تحت قيادة زعيم الـمُعارضة الطاجيكية الـموحَّدة عبد الله النوري، ثم رافق أبو الوليد خطَّابًا بعدها إلى الشيشان حيث استقرَّا فيها إلى الـمَمَات و دوَّنا روائع الانتصارات و البطولات.

لقد كان القائد خطَّاب يُشيدُ بأبي الوليد و يُثني عليها ثناءً عطِرًا هو و بعض الـمُجاهدين معه، و يُنوِّه بشجاعته و نشاطه و أهميته في مجموعته، و يذكُرُ بعضَ أدوارِه الفاعِلة في العمليات العسكرية ضد الرُّوس، و كثيرًا ما كانا يتعرَّضان للحِصار الـمُشدَّد مِن طرف القوات الرُّوسية، و لكنَّهما يخرُجان مِنه سالِـمَيْن غانِمَيْن في الأخير مع بقية الـمُجاهدين، و ما كان يمُرُّ شهرٌ إلا و تزداد علاقتُهما وثاقةً و متانةً، و

إذا كان اسمُ خطَّاب قد اقترن كثيرًا على ألسنة الـمُجاهدين في الشيشان باسم شامل باساييف، فإنَّه اقترن -كذلك- أحيانًا باسم أبي الوليد!

القائد المجاهد أبو الوليد الغامدي

و بعد أن استُشهِد القائد خطَّاب تلقَّى أبو الوليد مُكالـمةً مِن أحد الـمُجاهِدين في مـجموعة خطَّاب يطلب منه استعجال الـمجيء، و قال له: «خطَّاب يَقُولُ لَكَ تعال بأسْرَعِ وَقْتٍ.. هُوَ يَـحْتَاجُكَ لأَمْرٍ ضَرُورِيٍّ جِدًّا»، و لم يكُن ذلك صحيحًا كما هو معلومٌ، و لكنَّ ذلك الـمُجاهِد ارتأى كتمان الخبر إلى أن يقدم أبو الوليد، و لعلَّه كان حذِرًا مِن أن تتنصَّت الاستخبارات الرُّوسية -عبر بعض الأجهزة التكنولوجية الـمتطوِّرة التي تحوزُها- للمُكالـمة فيتأكَّدوا مِن مقتل خطَّاب و يُعلِنوه، و هذا ما لم يكُن الـمُجاهدون يُريدونَه.. فبعدها تـحرَّك أبو الوليد مُسرِعًا، و ما أن وصل إلى عين الـمكان حتى نزل عليه خبرُ موت خطَّاب كالصَّاعِقة، و لم يُصدِّق ذلك في بادئ الأمر،

حتى أنه يُعبِّرُ قائلاً: «و الله لا أستطيعُ أن أصِفَ شُعُورِي في تِلْكَ اللَّحَظَاتِ العَصِيبَةِ، وَ وَالله ما أتذكَّرُ أنني سمِعْتُ خَبَرًا في حياتي أشَدَّ عليَّ مِن هذا الخبرِ»!

ثمَّ أظهر أبو الوليد حِنكةً و ذكاءً حينما فنَّد خَبر موت القائد، و أعلن عن أنها مجرَّد إشاعات ليس لها أساسٌ مِن الصِّحة، و أرسل على لِسان خطَّاب رسالةً إلى القائد العربي الذي راسله آخِر مرَّة مِن إحدى البلاد المُجاوِرة بأنَّ رسائله لم تصِل إليه؛ لأنَّ الذين كانت بحوزتهم وقعوا في كمينٍ و فَقَدُوها، و طلب منهم إرسال غيرها إن كانت تلك الرسائل مهمة و ضرورية، ثم قال أبو الوليد: «وَ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ العَدُوَّ يَسْمَعُنِي، وَ هَذَا الَّذِي كُنتُ أرِيدُ»، و قد أربَكَ هذا -بالفِعل- الحكومةَ الرُّوسيةَ و جعلها تُشكِّك في نجاح عملية الاغتيال و تتردَّد في إعلان موت خطَّاب، كما أنَّ أبا الوليد أراد مِن هذا طمأنة العميلَيْن، و أخبرهُما بأنَّ القائد خطَّاب يطلُبُهما لعملٍ مُهمٍّ، و لكنَّهما رفضا ذلك و لم يُصدِّقاه، و قالا للرَّسول: «إذَا كَانَ خَطَّابُ فِعْلاً يُرِيدُنا فلْيكتُبْ لَنَا رِسَالةً يطلُبُ مِنَّا فيها المجيءَ»! و لم يكُن هذا الأمر مِن عادتهما كما قال أبو الوليد، و لكنَّ ذكاءَ هذا الأخير جعله يُرسِلُ لهما رسائل كتبا خطَّاب قبل مقتله بأيام قليلةٍ، و أخبرهُما -على لسان خطَّاب مرَّةً أخرى- قائلاً: «إنكُمَا إذَا لَمْ تَأتِيَا بِسُرعَةٍ فَسَوْفَ أقْطَعُ التَّعامُل مَعَكُمَا»، و بعد وُصول الرَّسائل إليهما وعدا بالمجيءَ خلال أسبوع و القُدوم إلى قريةٍ تمَّ تسميتُها، و إلى حين مجيئهما و القبض عليهما أمر أبو الوليد رِفاقَه بكتمان الخبر و دَفْن الرسائل و الشريط المُصوَّر الذي يحوي المَشاهِدَ الأولى لِمَا بعد استشهاد القائد خطَّاب و أثناء دفنه، و لكنَّ أمير حَرَس خطَّاب -غفِر اللهُ له- خالف الأمر و اجتهد بنفسه حين أخذ الرسائل و الشَّريط و الأغراض و اتجه بجميعِ ذلك إلى القرية الذي كان مُنتظرًا أن يحِلَّ العميلان بها، و هي أكثرُ أمانًا مِن غيرها و أقلَّ عُرضةً لوُقوع التفتيش مِن الرُّوس، و في طريقه إليها إذا

بأمير الحرَسَ ذاك يسقُطُ قتيلاً في كمين مُحكَمٍ نصبه الرُّوس، فتمَّ الاستيلاء على ما كان معه، و مِن بين ذلك الشَّريط الـمُصوَّر، فتيقَّن الرُّوس مِن مقتل القائد خطَّاب، و سارعوا إلى إعلان الخبر للعالَـمِ أجمع، و تقمَّص الـمُجرمُ فلاديمير بوتين قميصَ البطولة و الـمجد الزَّائف، و ظهر أمام شعبِه في صورة الرجل القوي الذي استطاع القضاء على أخطر أعداء روسيا (الإرهابيين)!

أمَّا العميلان فقد قُتِل أحدُهما على يد أحد الشباب الشُّجعان، و أما الآخر فاختفى و لم يُعثَر له على أثر، و لم يُعرَف مصيرُه حتى اليوم، و لعلَّ الرُّوس قضوا عليه لسببٍ مِن الأسباب؛ فهكذا عهِدنا نهاية الخونة و العملاء عبر التاريخ!

القادة الثلاثة من اليمين إلى اليسار:

سيف الإسلام خطاب، شامل باساييف، أبو الوليد الغامدي

مجلس عسكري بفيدنو يترأسه القائد خطاب، و باساييف، و أبو الوليد

و أما أبو الوليد فقد واصل مسيرةَ الجِهاد قائدًا للمجموعات المُجاهِدة في مختلف الجبهات القِتالية، و استطاع تكبيد العدو أفدح الخسائر البشرية و العتادية، و هي الخسائر التي لم يسبق لها مثيلٌ في الحرب الثانية مِن ناحية الحجم، و لقَّنهم دُروسًا بليغةً في حروب الشَّوارِع حتى لكأنَّ خطَّابًا قد انبعث مِن جديد و راح ينتقِم لنفسه مِن عدوه بكُلِّ ما أوتي مِن قوة و حِنكة و شجاعة! و لِبطولاته و انتصاراته لُقِّب أبو الوليد بـ(غضَنْفُرُ العرب)، و الغضنفر هو الأسد في لغة العرب، و لِفرط ما عاناه الرُّوس مِن أبي الوليد فإنَّهم قد جهَّزوا مبلغ ٣ ملايين روبل و وعدوا بمنحِه لِـمَن ينجح في القبض على أبي الوليد و القضاء عليه، و لكن هيهات هيهات!

ولـمَّا حلَّت العشرُ الأواخِرُ مِن شهرُ رمضان عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م ارتأى أبو الوليد الغامدي أن ينتقِل إلى منطقة (إلستنجي) و يمكُث فيها حتى انتهاء الشهر

الـمُبارك، فلمـا انتهى الشَّهر انتقل إلى منطقة (تسافيدنو) في الجبهة الشرقية في الفتِح مِن شوال، و في اليوم الثاني أراد أحدُ الـمُجاهدين الذين كانوا برفقة أبي الوليد النُّزول إلى القرية لقضاء بعض الأمور، و لكنَّه للأسف وقع في أسر الرُّوس الذين تعرَّفوا على مكان تواجُد القائد الـمُرعِب أبي الوليد أخيرًا، و أدركوا أنَّ هذه هي أغلى الفُرص الـمُتاحة في سبيل القضاء عليه، و مِن أجل ذلك حاصروا الـمكان و نصبوا بعض القنَّاصين الـمَهَرة مِن بعيد حتى إذا ما ظهر لهم القائد لم يُفلِتوه، فلمـا وقت الـمعمعة بين الرُّوس و الـمُجاهِدين ظهر أبو الوليد على الساحة، فتمَّ إمطارُهُ بِوابِلٍ مِن الرَّصاص حتى سقط شهيدًا بإذن الله، رحمه الله و تقبَّله عنده في الشُّهداء.

و الذي أراه أنَّ سيرة أبي الوليد الغامدي ينبغي أن تؤرَّخ و تُدوَّن؛ فهو بطلٌ مِن أبطال الـمسلمين الـمُعاصِرين، و مِن الـمؤسف أن يكون الرُّوس على دِرايةٍ بمكانته في الجهاد الشيشاني و قيمته العسكرية أكثر مِن دِراية إخوانه الـمسلمين بذلك، مع العلم بأنَّ مصادِر سيرته الـمكتوبة تكاد تنعدِم، و الذي سيتصدَّر للكتابة عنه في الـمستقبل -إن شاء الله- سيعسُر عليه إيجاد الـمصادِر و الـمراجِع الأساسية في ذلك، سواءٌ بالعربية أو بالرُّوسية أو بغيرها، و لا حول و لا قوة إلا بالله.

و مات خطاب

لقد مات سيفُ الإسلام خطَّاب!

نعم!.. مات الشَّاب الذي عشِق الجِهادَ حتى النُّخاع، و اشرأبَّه قلبُه حتى صار مِن أعظم مُجاهِدي الأمة لا أقول في العصر الحديث فقط، و إنما عبر عُصور الإسلام كُلِّها، بل إنَّني أكرِّر مقولتي: مَن سرَّه أن ينظُرَ إلى مجاهدٍ مِن مجاهدي السلف في القرون الإسلامية الأولى الفاضلة فلينظُر إلى سيف الإسلام خطَّاب!

مات الشَّاب الذي طلَّق الدنيا و ألوانها الزَّاهية ثلاثًا، فاستبدل الدِّراسة العالية بالجِهاد في سبيل الله، و استبدل حـمْلَ الحقائب الدِّراسية بحمل الأسلحة القتالية، و استبدل العيش في القصور الفارِهة بالعيش داخِل كُهوف الجِبال الـموحِشة، و استبدل الـمُكوث بين أهله و أصحابه في بُلهنية العيش بالـمُكوث بين رُفقاء درب الجهاد -و لو لم يكونوا عَـرَبًا- بعيدًا عن الـموطِن.

مات الشَّاب الذي قضى ما يُقارب نِصف عُمُرِه في مواجهة ثاني أكبر قوة عسكرية في العالم، فأذلَّ الرُّوسَ أيما إذلال، و لقَّنهم الدَّرس تلو الدَّرس في فنون الجِهاد و حُروب الشَّوارِع، فعجزت أدمِغَتهم عن إيجاد طريقةٍ لشلِّ حركته سِوى الغدر، و ظلُّوا قُرابة ١٤ عامًا يُعانون مِن الويلات التي سبَّبها لهم.

مات الشَّاب الذي أتقن السياسة رغم أنه لم يدرُس العلوم السياسية، و الذي أتقن فنونَ الدَّعوة في سبيل الله حتى استطاع تصحيح عقيدة مئات الشباب الـمسلمين الأعاجِم في الشيشان و علَّمَهُم قـيِّمَ دينِهم، و الذي مارس أساليب الـمكر و الدَّهاء بالأعداء، و الذي أجاد استعمـال الأسلحة و الآليات و كُلَّ الإمكانيات العسكرية.

مات الشَّاب الذي كان واعِيا بمؤامرات النظام الدُّولي، و مُدرِكا نِفاقه و كذِبه و زيف شِعاراته البرَّاقة، مـما جعله يتحدِّى طُغاة العالَـم و يرفع شِعار الجِهاد عاليًا و لو لم ترضَ عنه أمريكا صاحِبة الهيمنة العالـمية.

مات الشَّاب الذي كان واعِيا بحقيقة الأنظمة العربية التَّابعة للنظام الدولي بقيادة الطاغوت الأمريكي، فكان يعلم عِلم اليقين بأنَّها كانت تُعادي الـمُجاهدين في الشيشان و لو أظهرت تعاطُفها مع القضية، و أنها كانت ضعيفةً مغلوبةً مِن الغرب لا تملِك مِن أمرها شيءً على الـمستوى الدُّولي.

مات القائد خطَّاب!

وإنَّ نهاية ذلك الشاب لتُذكِّرُنا بنهاية قدوته الأولى؛ الفاروق عُمَر بن الخطَّاب..

فابنُ الخطَّاب قد نالت مِنه يدُ الغدر الفارسية الـمُتمثلة في أبي لؤلؤة الـمجوسي.. و كذلك نالت يدُ الغدر الرُّوسية الـممثِّلة في الذَّكَرَيْن العَميلَيْـن مِن القائد خطَّاب!

ابنُ الخطَّاب كان قد سمح لأبي لؤلؤة -على مجوسيته- بدخول الـمدينة رغم إدراكه خطورتَه، و رغم ما تفرَّسه فيه مِن التهديد و الوعيد.. و كذلك فعل القائدُ خطَّاب حينما آثر الحذر مِن العميلين و إبقائهما تحت خِدمته على السَّبق إلى طردهما، رغم الشُّكوك الـمُثارة حولهما و نصائح أصحاب خطَّاب له بأنهما خطرٌ عليه و عليهم!

ابنُ الخطَّاب كان قادِرًا على التخلُّص مِن أبي لؤلؤة لـمجرد الشَّك فيه كما يفعلُ الطُّغاة دائما.. و كذلك القائد خطَّاب كان قادِرًا على التخلُّص مِن العميلَيْن بسهولة لـمُجرَّد وُجود الشك في صِدق خدمتهما!

لقد كان موتُ القائد خطَّاب فاجِعةً بالنسبة لكامِل الأمة الإسلامية شرقا و غربا، فلطالـما كانت أخبارُ بُطولاته تبلُغ مسامِعَ الـمسلمين و تُطرِبها، و ذاع صيتُ اسمِهِ

بينهم رغم الحِصار الإعلامي الكبير الذي فُرِضَ على القضية الشيشانية، و لـم يقع اختلافٌ في الرأي حولَه -إلا قليلاً- لوُضوح رؤيته، و صِدق لهجته، و صفاء منهجه، و عبقريته السياسية و العسكرية.

مشهد من مشاهد دفن جثمان القائد خطاب تقبله الله

و لكن لنا أن نتساءل: كيف استقبل الإعلام العالـمي و العربي نبأ مقتل القائد خطَّاب؟!

لقد كان لِـخطَّاب وزنٌ ثقيلٌ على الساحة الدولية، و كُلُّ طواغيت العالـم النَّافِذين كانوا يُدركون ذلك تـمام الإدراك، فلمـا مات رحمه الله ضجَّت وسائلُ الإعلام العالـمية على إثر ذلك!

فقد قطع الإعلامُ الرُّوسي البثَّ التلفزي -استثناءً- مِن أجل عرضِ بيان وِزارة الدِّفاع الـمحلي الخاص بموت خطَّاب، و أُعيد عرضُ هذا البيانُ عِدَّة مرات في تلك الليلة و في اليوم التالي، و وُضِعت التبريكات مِن خلال مُشاركات الـمُشاهِدين على التلفزيون، و راح العشرات مِن الصَّحفيين و الـمُحلِّلين يتحدثون بإسهاب عن ذلك

(النصر الكبير) الذي صنعه -زعموا- الطاغيةُ بوتين و زُمرتُه، و أقيمَت برامِجٌ كامِلةٌ تتناول فقط سيرة القائد العربي خطَّاب و نوقِشَت عبرها خُطَطُه و عملياته العسكرية الذكية، و دُقَّ جَرَسُ الكنيسة الأرثوذكسية لتلك الـمُناسبة، و عاش الشَّعبُ الرُّوسيُّ أيامًا مِن الفرح مُتذكِّرًا مـجدَه الزَّائل.

و كذلك تناولت خبرَ موت خطَّاب كُبرى الهيئات الإعلامية في الغرب مثل الـ(CNN) الأمريكية، و الـ(BBC) البريطانية، و أعِدَّت عنه عشراتُ الـمقالات و التقريرات التي يظهر منها انبهار الغربِ بذلك القائد الكبير.

و إذا كان أمرُ الإعلام كذلك في روسيا و الغرب؛ فإنَّه كان على العكس منه في الدول العربية الـمنكوبة للأسف!

لقد كانت شبكةُ (الجزيرة) القطرية هي الجِهة الإعلامية العربية الوحيدة التي بثَّت على قناتها نبأَ استشهاد القائد خطَّاب على لِسان مُذيعها الـمشهور جمال ريانَّ، و خصَّصت له حجمًا ساعِيًّا مُناسِبًا أعادت فيه عَرْضَ لقاءاتها السَّابِقة مع خطَّاب، و عرَّفت به و بدوره في الحرب الشيشانية، و بيَّن تقريرُها عنه دورَه في عملية شاتوي (ياريش ماردي) العسكرية الـموجِعة ضد الرُّوس في شهر آفريل ١٩٩٦م، هذا عن قناة الجزيرة.

أما بقية القنوات الإعلامية في الوطن العربي فكأنَّ شيئًا لم يحدُث، و تنكَّرت لتاريخ ذلك البطل العربي الـمسلم، و ظنَّت أنَّ تغاضيها عن خبر موته سيُمِيتُ ذِكْرَه لدى الأمة، و ما درَت أنَّ قناة الجزيرة وحدَها قد فضحتها و كشفت خيانتها للمسلمين!.. و قد كان موتُه بالنسبة لها كموت أحدٍ مغمورٍ ما في بُقعة نائيةٍ مِن الأرض لا يُعرَف عنها شيء، و لكن يبقى مِن الجيد أنَّها لم تعرِض خبر موته و لم تأتِ بمُحلِّلٍ مأجورٍ كي

يتَّهمه بالإرهاب و التطرُّف و العنف؛ فأنْ لا يُعرض خبرُ موته على تلك القنوات خيرٌ مِن أن يُعرَض و تُشَّوه صورتُه!

الوصية الأخيرة

أمامنا الآن وصيتان تركهما القائد خطَّاب..

فأما الأولى فقد اقتصرت على بعضِ النصائح و التوجيهات العسكرية الـمُهِمَّة، و هذه سنورِدها في الفصل القادِم و نُفصِّل الحديثَ عنها إن شاء الله.

و أما الثانية فقد خصَّ بها ابنَه صالِـحًا الذي خلَّفَه و عُمُرُه ٣ سنوات فقط، و هي وصيةٌ مؤثِّرةٌ للغاية رغم بساطة ألفاظِها، و كُـلُّها حِرصٌ على سلامة دين ابنِه، و على أن يقضيَ حياتَه مُـجاهِدًا في سبيل الله حتى ينالَ الشَّهادة.. فجاء في تلك الوصية التي كتبها في منطقة (ترقو) بعد وِلادة صالح بثلاثة شُهورٍ[٣٧]:

«نصيحةٌ يا صالِح مِن أرض الـميدان، مِن الشِّيشان.. إنَّ التاريخَ الإسلامي لن يُسطِّرَ بمِدادِه إلَّا أعمـالَ رِجالٍ صدقوا مع الله، ثم مع مَن كانوا فعلوا ما قالوا و تقدَّموا الصُّفوفَ. صدِّقني؛ أشغلَنا عبيدُ الدِّرهَمِ و عبيدُ هذه الدُّنيا و عبيدُ الغربِ بالوظيفَةِ و الرَّاتِب و ما عند الله خيرٌ، فذهبت الأجيالُ تِلْوَ الأجيالِ مِن حياةٍ روتينيةٍ مُـمِيتةٍ لا تبتعِدُ البهائم؛ نصْحوا صباحا مِن الفَطور إلى العمل ثم الغداء ثم إلى البيتِ ثم العِشاء ثم الـمَبِيت! لم يعُد للحَيَاةِ هدفٌ!

---

[٣٧] بذلتُ جهدا معتبرا في البحث عن الـمصدر الأصلي لهذه الوصية عبر الشبكة العنكبوتية دون جدوى، فاكتفيتُ بإيرادها مِن بعض الـمنشورات الشبكية و مِن أحد الـمقاطع الـمرفوعة على اليوتيوب بعنوان (وصية القائد خطاب لابنه). و ها أنذا هنا أنقلُ نصَّ الوصية كما هو مِن دون أن أصوِّب الأخطاء اللغوية التي تعتريه، و هي تدُلُّ -ربما- على أنَّ القائد لم يكُن يهتمُّ بالوضعية اللغوية للَّفظ مِن كلامه قدرَ اهتمامه بالـمعنى و الـمضمون أثناء الكلام، و هو معذورٌ في ذلك و لا شك، رحمه الله رحمةً واسعةً.

صدِّقني يا صَالِح؛ إنَّ على قدْرِ هِمَّة الإنسانِ و هدفِه في الحياة يُرزَق و يُوَفَّق، و إنَّ الـمشاكِلَ لا تنتهي أبدًا، و هي مَـحْصُورةٌ في مَشاكِلِ العمل و الدَّابة و الزَّوجة و الولد و الـمسكن، و كُل ما تحل مشكلة يأتي غيرها؛ تحل عشرة يأتي عشرين، و العُمر ينتهي و هي لا تنتهي.. و العالَـمُ الإسلاميُّ اليوم فيه كُـلُّ شرائح الـمُجتمع؛ العلمـاءُ و طلبةُ العِلم و التُّجار و الـمُهندِسين و الحرامية، و محرومٌ مِن طبقة جنود التَّوحيد مِن الجهاد و ذروة سنام الإسلام، لقد حان وقتُ الـجِهاد.. أمةُ الـكُفر تحتضِر و ما بقي لها إلا آخِرُ خنجرٍ، و لقد مَنَّ اللهُ على أمة الإسلام في هذا الزَّمان -و لا أقولُ وقتَ النبيِّ ﷺ و صحبِه و مَن تبِعَهُم- فكيف أفقرُ شعبٍ في العالَـم يطحن الإتحاد السوفييتي و أصغرُ شعبٍ يطحنُ قلبَ روسيا[٣٨]! و في روسيا لو لم أعِش مع هذه الشُّعوبِ لم أصدِّق ذلك.

صدِّقني يا صالِح؛ الـموتُ فَنٌّ يُصطنَع في حدِّ ذاته، و لكن عِلمُه عند الله أين و متى؟ اطلُب الـمَوْتَ توهَبُ لك الحياةُ، ثِق بالله و أحْسِن الظنَّ بالله؛ فنحن اليوم نؤمِنُ بالله و لكن عندنا شكٌّ في نصر الله لنا، نظُنُّ الظُّنونَ، أرهبتنا طائراتُ و دبَّاباتُ أعداء اللهِ في حرب الخليج، حربُ ألخليج أذابَت كُـلَّ شيءٍ عند الـمُسلمين، بعدها رجعت الثِّقة للمُسلمين مِن نصر أفغانستان على الاتحاد السوفييتي، انفضحت قوة الـمعسكر الشَّرقي و الغربي أمام قوة الإيمـان بالله، فجاء الغربُ في أرض الإسلام في خليج العرب ليقوموا بمسرحية أرعبوا فيها أمة محمد، لم يمُت صدَّام و لا جُندُه و أصبح وحشًا يُـخَوَّف به الـمُسلمين، و يحلب الـمسلمين أموالَـهم و نفطَهم دُيون جرَّاء هذه الحرب، حرب ثمـانية عشر سنة، و احلِب يا حلَّاب.

(٣٨) يقصد بالشعب الأفقر: الشعب الأفغاني، و الأصغر: الشيشاني.

صالِح! سوف تـموتُ وحدَك، و تبقى في القبر وحدَك، و تُبعَث وحدك، و الطَّريقُ طويلٌ و الزَّادُ قليلٌ، فعليك بزاد التَّقوى و الجِهاد في سبيل الله، لأنَّه عِزٌّ في الدنيا و الآخرة.. حبيبي أنت الآن صغيرٌ، لكن إن شاء الله أنت و أمثالُك نفتح لكم الطَّريقَ و نُعِدُّكم و نُعلِّمُكم عمَّا عجز عنه أجدادُكم إعطاؤه لنا، فجيلُكُم فيه أملُ هذه الأمة، عندما نكون نحن عجزنا الأملُ بالله ثم بكم.. وا أسفي يا غالي! أصبح شبابُ اليوم عبيد الشَّيطان، التلفاز و الدَّش و الكرة و السَّيارة، احْذَر الـموتَ في حادِثٍ أو في مضاربة، و اسأل الله حُسنَ الخاتـمة؛ شهادةٌ تجمعُك مع الحبيب الـمصطفى و صحبِه، فهم في منازِل النبي ثم الصِّديقين ثم الشُّهداء.

يا قُرَّة عيني! احـمد الله أنك جئت في أرض الوغى، قومُ أمِّك دُمِّرت قُراهُم، دافَعوا عن دينهم و عِرضهم حتى النِّهاية، نِصفُهم خرج مع أبوك يثأر، و نِصفٌ غاب تحت السُّجون و تحت الثَّرى، شُهداءٌ إن شاء الله، كانوا أوَّلَ مَن أعلن الشَّريعة في داغستان؛ عالَـم العبيد و الحكومة و الكُفر و الإلحاد في كراماخي، لن أنسى ذلك عندما حاصَرَتهم قوةُ البغي مِن أربع محاوِر و دُكَّت قُراهُم فقُمنا مع جُند التَّوحيد للنُّصرة، و دارت معارِكُ لم أرى مِثلها، دُكَّت فيها أنفُ أمة البغي و الإلحاد، عندما كُنتَ في وقت الـحَمل كانت الطَّائرات تحرق الأرضَ و مَن عليها في أرض الشِّيشان، احمد الله أنك سمعتَ صوتَ الرَّصاص و أنت في بطن أمِّك و تهرب أمُّك مِن مكان إلى مكان.

عزيزي! لا تحلُم في حياة الرَّغد الهنيء و حياة السِّلم، فعالَـم الكُفر سيجري وراءك بذنب أبوك، فاختر لنفسك حياةَ العِزِّ و الكرامة قبل أن تُرمى في سُجون الكُفر، فقد نُكب صحبُ أبوك و مَن معه و أنت لست عنهم ببعيد و لست أحسن مِن رفقاء أبوك، خُذ قرارا صارِما في حياتك و اثبت عليه و ثِق بتوفيق الله، و لا تسمع قيل و قال

و كثرة السُّؤال، فعليك بطلب العلم و حِفظ كتاب الله و أنت صغيرٌ، ثم الإعداد و الجِهاد في سبيل الله.

ابني! لا أدري هل نكون سوِيًّا في ميادين الوغى أنت قائدي و أنا جنديٌّ عندك، أسقي الظمأى و أعالِجُ الجرحى أم تكون وحدَك و أنا تحت الثرى، هذه نصيحةُ جُنديٍّ لقائده: كُن لي صدقةً جارِيةً و ولدًا صالحِا يا صالِح يدعو لي، فما يبقى للعبد إلَّا هذا بعد موته كما قال المصطفى. هذا و أسأل ربَّ البريَّة أن يحفظك لِخدمة هذا الدِّين في كُلِّ مكانٍ ، و أن يرزقك مِن فضله العظيم، و أن لا يجعل لأعداء الله عليك مِن سبيل، و أن لا يجعل لأحدٍ عليك فضلا و لا مِنَّة، و أن يرزقك شهادةً خالِصةً لوجه الله الكريم تشفعُ فيها لأبيك و أمِّك المساكين، زادك اللهُ عِزًّا و قوةً على الكافِرين، و الله أكبر... أبوك».

الطفل صالح السويلم بين أيادي والده المجاهد خطاب و رفيقيه البطلين شامل باساييف و أبي الوليد الغامدي و غيرهم، وسط أجواء أخوية بهيجة رائعة، تقبل الله الجميع

بعض آثار رحيل القائد خطاب

لا شكَّ في أنَّ القائد سيف الإسلام خطَّاب كان رُكنًا متينًا مِن أركان القضية الإسلامية الشيشانية، و وتَدًا مرزوزًا مِن أوتاد الجِهاد ضد الرُّوس، و بموته سقط ذلك الرُّكنُ و انقلع هذا الوتدُ فتزعزع بُنيانُ تلك القضية و جِهادُها؛ و هذا يعود إلى عِدَّة حقائق ينبغي استعراضُها هاهنا:

أولا: إنَّ مِن أهم ما غفل عنه قادةُ الشيشان منذ اندلاع حرب بلادهم الأولى واجِبُ إعداد الكوادِر القيادية المكينة -عسكريًّا و سياسيًّا- لتكون في كابينة قيادة القضية بعد موت أسلافها، فإنَّ الأكابِرَ مِن قادة الشيشان -على غِرار خطَّاب و باساييف و أبي الوليد، إضافةً إلى جوهر دوداييف- قد تكوَّنوا قبل قيام الحرب، فلمَّا قامت كانوا على أتمِّ الاستعداد لخوضِها، فخاضوها و سطَّروا خلالها أفانين السياسة و العسكرية ضد العدو الرُّوسي، فأمَّا خطَّاب و أبو الوليد فقد تكوَّنا في حروب أفغانستان و طاجيكستان، وهما ربيبا الجماعات و التنظيمات المُجاهِدة في ذينك البلدين، وأما جوهر دوداييف و شامل باساييف فقد تكوَّنا و اكتسبا خبراتهما في مدرسة الاتحاد السوفييتي العسكرية قبل انحلاله، وأما بقية القادة فإنهم و إن كانوا أقلَّ شأنا مِن أولئك المذكورين، بيد أنهم وقفوا في صفِّ القيادة الأمامي عند قيام الحرب، وهذه الحرب هي التي صقلت مواهِبهم و أبرزت قُدُراتهم، و قد اشتهروا بضروب البسالة و الشجاعة، و عُرِف عنهم الإقدامُ و افتداءُ الإسلام و العقيدة في سبيل الله بالنفس و المال و الولد.. و لكنَّ موتَ القائد خطَّاب كان ثُلمةً في ذاته أبانتها الأحداثُ اللاحِقة و أبرزتها؛ فهو وحيدُ عصرِه في الجِهاد و العسكرية، و نموذجٌ نادِرٌ عزَّ على

الأمة أن تلِد مِثلَه في كُلِّ زمان و مكان، على أنَّ ذلك كُلّه لا ينفي عن قادة الشيشان تقصيرَهم في جانب إعداد القادة و تجهيزِهم أعظمَ ما يكونُ الإعدادُ و التجهيزُ لوَصْلِ مستقبل الجهاد ببدايته القوية، فلا ينفلِت فيما بعد إلى ما شاء الله، مع حِفظ القضية في إطارها الإسلامي بلا تدجين ولا تمييع لها، ولا نزولٍ تحت رغبات طواغيت العالَم الكِبار، ولا اتِّباعٍ أعمى لمبادئ الأمم المتحدة التي هي صنيعة الأمريكان.. نعم إنَّ القائد أبا الوليد الغامدي الذي خلف القائد خطَّاب له وزنٌ ثقيلٌ و مكانةٌ سامِقةٌ لِمَا يملكه مِن الصفات القيادية الهامَّة، ولكنَّه -مع ذلك- لم يستطِع ملأ الفراغ الذي تركه خطَّاب بعد موته، علاوةً على أنَّ أبا الوليد لم يمكث كثيرا بعدها حيث استُشهِد في رمضان مِن عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

ثانيا: رغم قِلَّة عدد المُجاهِدين العرب في الشيشان نسبيًّا، و بُطء حركة توافُدِهم مِن دول الإسلام العجمية التي كانت تشهد صراعات مع أعداء الدين، و كانت أبوابُ الجهاد فيها مفتوحة أمام المُجاهِدين المُتطوِّعين العرب، فكانوا يتوافدون إليها ليُجاهِدوا مع إخوانهم في الدين و العقيدة.. أقول: رغم ذلك فقد كان مِن الضروري وُجودُ تنسيقٍ بين أولئك المُجاهِدين العرب و القادة الميدانيين الشيشانيين، تمتينًا للروابِط، و توطيدًا للعلائق، و تأكيدًا لروحِ الأخوة في الله و وِحدةِ الصَّف في الجهاد، إلا أنَّ العنصر الأول الفاعِل في ذلك الشأن كان القائد خطَّاب، وذلك يُشبه حالَ عبد الله عزَّام في أفغانستان، ولكن بموت خطَّاب بدأت معالِمُ ذلك التنسيق تندرِسُ شيئًا فشيئًا إلى حدٍّ ما، فلم تكَد تمضِ سوى بضع سنوات حتى اختفى العنصر العربي -قادةً و جنودًا- مِن أرض المعامِع بالشيشان إلا ما ندر ولم يُعرَف، ثم انتهت القضية بسيطرة عملاء الرُّوس على البلاد سنة ٢٠٠٩م!

ثالثا: كان القائد خطَّاب حِصنا مُشيَّدًا و سدًّا منيعًا ضد الـمُنافِقين و غُلاة الصوفية و عملاء الرُّوس خلال الحربين الشيشانيتين، ولقد بدا لي أنَّه كان يُكثِر مِن تدبُّر آيات و أحاديث الـمُنافقين في القرآن و السُنَّة؛ لأنه كان مِن أوعى النَّاس و أدركِهم لحقيقة الـمُنافقين و الخونة، و نخرِهم قواعِدَ الأمة مِن داخلها، و كُرهِهم أهلَ الإسلام، وعمالتهم للعدو و وِفاقه، و كلَّما قرأتُ أو سمِعتُ له قولاً عنهم عرفتُ أنه كان عارِفًا بأوصافِهم و علاماتهم حقَّ الـمَعرِفة، وهذا ما رأينا أنه لم يكُن متوافِرا لدى بقية القادة كما هو عند خطَّاب.. فلمَّا فاضت روحُه إلى بارئها بدأ أهلُ الشَّر و الكيد في الشيشان يتنفَّسون بعد إذ كان خطَّاب خانِقَهم، و شرع جمهورُ الـمُنافِقين - وقد كانوا لا يُحصَون عددًا، ولا يُحصرون كثرةً- في إظهارِ ما يُبطِنونَه مِن العداوة للـمُجاهِدين، والعمالة للكافِرين، حتى مُكِّنوا في البلاد، و تملَّكوا رِقابَ العِباد فأخضعوها لسُلطان طواغيت روسيا.

رابعا: ثمة عامِلٌ مُهمٌّ جدًّا أعان على تماسُك الجِهاد الشيشاني، وكان القائد خطَّاب مسؤولاً عنه؛ ألا وهو عامِل التمويل و التموين، فقد كان -رحمه الله- حلقةَ وصلٍ متينةٍ تصِلُ بعضَ أثرياء الـمسلمين و أغنيائهم و مُتبرِّعيهم بالـمُجاهِدين في الشيشان؛ وذاك لِعدة اعتبارات تتَّحِدُ في شخصِ القائد خطَّاب الـموثوق و منزلته السَّامِقة لدى أهل الإسلام عموما، وأهل الجِهاد و العِلم خصوصا، والرَّاجِحُ أنَّ حجمَ تمويل الجهاد الشيشاني قد تقلَّص كثيرا بعد موته لارتباطها -بالـمَقام الأول- به.

خامسا: نجحت روسيا في اغتيال الزعيم الشيشاني الأول جوهر دودايف، وقتلت أيضا بعضَ القادة على غِرار الـمُجاهد الكبير عربي برايف (ت: يونيو ٢٠٠١م) الذي كان شبحًا مُتنقِّلاً أفزع الرُّوس أيَّما إفزاع بإتقانه القِنْصَ إلى الغاية، وحصدِه رؤوسَ

الرُّوسِ بكل سهولة.. فلمَّا سمَّمَت القائد خطَّاب و قتلته أعلى ذلك معنويات[٣٩] صناديدِها، و شجَّعهم على الـمُضي قُدُمًا للقضاء على باقي القادة الكِبار، فكان أوَّلُ مَن قضت عليه منهم هو القائد سلمـان رادوييف (ت: فبراير ٢٠٠٢)، وبعده الزعيم زليم خان ياندربابيف (ت: فبراير ٢٠٠٤م) الذي كان مُقيمًا في قطر، ثم القائد رسلان حمزة جلاييف (ت: فبراير ٢٠٠٤م)، ثم القائد أبو الوليد الغامدي (ت: مارس ٢٠٠٤م)، ثم الرئيس أصلان مسخادوف (ت: مارس ٢٠٠٥م)، ثم القائد و نائب الرئيس شامل باساييف (ت: يوليو ٢٠٠٦م)!

خامسا: إنَّ موتَ القائد خطَّاب هو إعلانٌ واضِحٌ فاضِحٌ، و بيانٌ صريحٌ للعالَـم كُلِّه، خُلاصتُه أنَّ الإرهابَ -بمفهومه الـمُعاصر عند غير الـمُسلمين طبعا- لا يُمثِّلُه -بالضرورة- الـمُقاوِمون للعدوان، و الـمُطالِبون بحقوقهم الـمشروعة عقلاً و قانونًا، و الـملتزِمون بمبادئهم النبيلة، و الـمُتسلِّحون بمكارِم الأخلاق، و الـمُجسِّدون لضروب الـمروءة و السَّماحة الإنسانية.. وكُلُّ هذه الصِّفات رأيناها -ورآها الرُّوسُ و الغربُ- راسِخةً في شخصية خطَّاب و رِفاقه الأبطال في الشيشان، ولكنَّ الإنصافَ عند الكُفَّار يكادُ ينعدِم، و الشعوب العالـمية -ما خلا طائفةً مِن شعوبِ الإسلام و العرب- تجهلُ تلاعُبَ أنظمتها بمصطلح الإرهاب، وتآمُرَهم على أهل الإسلام في كُلِّ مكانٍ، ولكنَّ الله مُتِمُّ نورِه ولو كرِهَ الكافِرون و الـمُنافِقون و العملاء الخائنون.

والیوم.. هاهي بلاد الشيشان قد عمَّرَها العملاءُ الخونة و غُلاة الصوفية بعد أن استنارت بوُجود كوكبةٍ مِن عباد الله الـمُوحِّدين الـمُجاهِدين ردحًا مِن الزَّمن،

(٣٩) إنَّ صحَّ التعبير.

وغمرَها التصوُّفُ الفاسِدُ بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى مِن أن تُصبِح أرضًا إسلاميَّة سلفيَّةً صافيةً، و طُوِّع أبناؤها جُندًا للطَّاغية الـمُجرم فلاديمير بوتين في حروبه ضد أوكرانية و غيرها، و صُيِّرَ أمرُ مقاليد الـحُكم فيها إلى أن يكون تحت يد العميل الخائن ابن العميل الخائن؛ أقصِد رمضان قديروف بن أحمد قديروف.. ولكنَّ كُلَّ ذلك لم يمنَع شرائح واسعة مِن الشعب الشيشاني الـمُسلم الأبي أن تذكُر أبطالَ تاريخها القريب الذِّكرَ الحسنَ، وتسترجعَ ذِكريات جِهاد شعبهم الشريف البطولي ضد الرُّوس الـمُعتدين، و تترحَّم عليهم و تستغفِر لهم، و تدعو لهم بالخير و دخول الجِنان الإلهية. ولقد حدَّثني بعضُ الإخوة مِن الشيشان عن مشاعِرهم تجاه القائد العربي سيف الإسلام خطَّاب؛ فأبصرتُهُم يُـجِلُّونه عظيمَ الإجلال، ويحترمونَه بالِغَ الاحترام، وهذا مآلُ كُلِّ مُجاهِدٍ في سبيل الله وعامِلٍ مُخلِصٍ للإسلام في الدنيا بعد الـمَمَات، ناهيك عمَّا ينتظِرُه مِن عظيم الجزاء في الآخرة عند مَن لا يُضيعُ أجرَ الـمُحسِنين.

و إنني على يقينٍ بأنَّ أرضَ الشيشان سترتدُّ أرضًا للجِهاد، شاء مَن شاء وأبى مَن أبى، فليس العجبُ أن ينجح بوتين في وضع عميلٍ لهُ عليها يُطيعُه في كُلِّ أمرٍ، ولكنَّ العجبَ هو أن يظلَّ الوضعُ كذلك وقلبُ الإسلام في الشيشان ينبِضُ، وكما تفاجأ الرُّوسُ زمن الإمبراطورية السوفييتية الهالِكة برفع أبطال الشيشان رايةَ الجِهاد و الـمقاومة ضدَّهم، فكذلك ستُفاجأ روسيا الاتحادية -طال الزمنُ أو قصُرَ- بظهورِ جيلٍ مُـجاهِدٍ يُحيي ذِكرى جِهادٍ لم ينتهِ، وما ذلك على الله بعزيز.

والله تعالى أسأله أن يرحم القائد خطَّاب و باساييف و صحْبَهُما الـمُجاهِدين، و يُسكِنهُم الفردوسَ الأعلى، و أن يجمعنا بهم إخوانا على سُرُرٍ مُتقابِلين؛ فإننا والله قد أحببناهم، و الـمرءُ يُحشَرُ يوم القيامة مع مَن أحب.

لماذا سقطت الشيشان؟

قد نويتُ أن أُعَنوِنَ هذا المطلب بالتساؤل التالي: (لماذا فشل المُجاهِدون في الحِفاظ على الشيشان؟)، ولكنني سرعان ما نسفتُ تلك النية نسفًا و أدركتُ أنَّ صياغة العنوان بذلك التساؤل -على التحقيق- لا يصِحُّ، و أنَّ الصِّيغة الصَّحيحة له ينبغي أن تكون هكذا: (لماذا سقطت الشيشان؟)، حيث رأيتُ أنَّ أسباب هذا السقوط كانت خارِجةً عن إرادة المُقاومين في البلاد..

فالسببُ الأولُ هو أنَّ المُجاهِدين في الشيشان و قُوَّادَهُم قد بذلوا كُلَّ ما بوِسعِهم رغم ما سُجِّل عنهم مِن أخطاء؛ فتحمَّلوا أكبرَ العناء و أشدَّه، وبذلوا النفيسَ و الأنفُس، و اجتهد القادةُ في وضع برامِج التدريب و التخطيط و تنفيذ العمليات قدرَ الاستطاعة، و لو كان أمامهم مزيدُ وقتٍ مِن الهدوء و الاستقرار بعد الحرب الأولى لرأينا مَشاهدَ مختلفة و أحداثا مُغايرة على الأرجح؛ لأنَّ القائد سيف الإسلام خطَّاب -لِكونه الرُّكنَ الرَّكينَ عسكريًّا مِن الجانب الشيشاني مع باساييف- عُرِف ببُعدِ نظرِه، و تخطيطِه المُتأني، ونبذه العجلةَ و التهوُّرَ، و مَيْلِه إلى دراسة أحوال العدو دراسةً دقيقةً وافِيةً لا يشوبُها خَلَلٌ، فلمَّا انفجرت الحربُ الثانية مِن داخل داغستان لم يُقِرَّ خطَّابُ المُفجِّرين على ذلك التعجُّل، وكان يُمَنِّي نفسَه بالمزيد مِن الوقت بغية إيجاد مجالٍ أوسعَ للتخطيط و الاستعداد و التحضير، ولم يكُن القادة في الشيشان سببًا مُباشِرًا في تفجيرها بادئ الأمر، على أنَّ ذلك الظرف العصي اضطرَّه -رحمه الله- اضطرارًا إلى اقتحام داغستان و نُصرة إخوانه فيها ضد الآلة التدميرية الرُّوسية، فلم يكُن خطَّاب قادِرًا إلَّا على مُسايرة الواقِع و إيجاد الحلول العسكرية العاجِلة السَّريعة.

والثاني هو الحصار الشَّديد الـمَفروض على الشيشان مِن قِبَل روسيا اقتصاديا و عسكريا لسنوات متَّصِلات، فلم يكُن بمقدور الـمُجاهِدين -خصوصا بعد انقضاء الحرب الأولى- استقبالُ ما هم بحاجة إليه مِن الأسلحة و الـمواد الضرورية إلا قليلا، ناهيك عن سوء الأوضاع الـمعيشية التي فرضت على عدد كبير مِن الناس في البلاد أكْلَ أوراق الشجر و لحوم الجِيَف أحيانا! أما الـمُجاهِدون فقد كان الواحِد منهم يُقيمُ صُلبَه ليوم كامِل أو أكثر بلُقمة واحدة فقط مِن الخبز أو غيره، وقد يحدُث أن يموت أحدٌ منهم جوعًا!.. ولـمَّا صعد فلاديمير بوتين إلى سدة الـحُكم اشتدَّت وطأةُ ذلك الحِصار على حركة الـمقاومة الشيشانية، و على الشعب الشيشاني، ولذلك فإنَّ الحصار الرُّوسي للشيشان لعِبَ دورَه الرئيس في التأثير على ميزان الـمواجهة بين الطرفين خلال الحرب الثانية.

أما السببُ الثالثُ الذي بان لي فهو الخذلان الكبير الذي لقيَه الـمُجاهدون و أهلُ الشيشان مِن الأنظمة العربية الـمسلمة، فرغم أنَّ روسيا كانت أشدَّ قوةً و تسليحًا، و أكثرَ عددًا و عتادًا، و أكبرَ مكانةً و حجمًا على الـمستوى الدولي، إلا أنها ظلَّت تتلقَّى ألوانًا مِن الدَّعمَيْنِ الـمعنوي و الـمالي مِن بعض الدول الغربية منذ الحرب الأولى، و قام صندوق النقد الدولي بإغداق الـمليارات عليها قروضًا لتمويل جيشها، ولولا أموال الدعم تلك لانتهت الحرب الشيشانية مبكِّرا، بل و لربما كان مِن بمقدورنا أن نرى خطَّابَ و باساييف و رفاقهما وهم يقتحمون مبنى الحكومة الروسية في العاصمة (موسكو) و يُعلنون أنَّ روسيا قد أضحت تحت سيطرتهم! ولكن كان أمرُ الله قدرا مقدورا.. ثم إذا نظرنا -في مُقابِل ذلك الدَّعم الذي تلقَّاه الرُّوسُ مِن الغرب رغم ما بين الطَّرفين مِن العداء- إلى حجمِ الدَّعم الذي قدَّمته الدول العربية الـمَحسوبة على الإسلام للشيشان و مُقاومتها، لم نجِد قِطعةَ سِلاح أو رصاصة واحدة

قُدِّمت! بل لم نجِد دولارا واحِدًا مُنِح للشعب الشيشاني المسكين الذي أحرقت روسيا أرضَه، و أبادت أبناءه، و دمَّرت دِيارَه، وحاربَت دينَه، بل و كأني بذلك الطِّفل الصغير و ذلك الشيخ الهرِم و تلك المرأة الضعيفة في الشيشان يصرخون في قرارات أنفسهم مُنادين: «أيها العالَم الإسلامي.. نحن مسلمون مثلكم، نحن نُريد أن نبقى مسلمين و نعبد الله في وطننا.. إنَّ روسيا تقتلنا بلا رحمة؛ فأين أنتم؟! لماذا لا تُساعِدوننا؟! أليس عندكم بترول و غاز و أموال طائلة؟! ألستم مسلمين مثلنا، ولنا ربٌّ واحِدٌ، و نبيٌّ واحِدٌ، ودينٌ واحِدٌ؟!»، و لكن لا حياة لمُن يُنادون! على أنَّ بعضَ الجمعيات و الهيئات الإغاثية التي موَّلتها الشعوب العربية و المسلمة -لا الأنظمة و الحكومات العميلة- كانت تنشط إلى حدٍّ ما لصالِح القضية الشيشانية، ولكنَّ عملها كان نقطةً صغيرةً بيضاءَ على صحيفةٍ كبيرةٍ سوداء، وهي لا تنفي حقيقةَ ذلك الخذلان العظيم الذي كان أحدَ أسباب سقوط الشيشان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأما رابعُ تلك الأسباب فهو أحداث سبتمبر ٢٠٠١م التي كانت -في ظاهِر حقيقتها و باطِنها معا- إعلانَ حربٍ شامِلةٍ على الجهاد و المُجاهِدين في العالَم، وقد كان سببُ هذه الحربُ مُرتبطًا بأهداف و غايات الأمريكان في أفغانستان ثم في العراق، و عزمهم المُسبَّق على غزوِه هذين البلدَيْن، فلمَّا تمَّ هذا الغزو كان ذلك ضوءً أخضرَ للدول القوية الكافِرة كي تشُنِّ حرب عالمية شامِلةً على ما سمَّوْه «الإرهاب»، وهو مصطلحٌ يقصدون به أوَّلَ ما يقصدون الجهادَ و المُجاهِدين. وقد عانت المقاومة الشيشانية مِن ذلك الأمر أشدَّ المعاناة، وضاقت على المُجاهِدين في الشيشان الأرضُ بما رحُبت، وصارت أوضاعُهم أصعب بكثير مما كانت عليه قبل أحداث سبتمبر، وتجاوز الأمرُ مرحلة (الخذلان العربي) إلى مرحلة (الخذلان

العالـمي)، رغم أنَّ أولئك الـمُجاهِدين لم يكونوا يومًا ينتظرون مِن الغرب و الكُفَّار مثقال ذرة مِن الإعانة و التأييد، ولكنَّ ذلك في الأخير كان سببا مِن أسباب السقوط.

وأما خامِسُ الأسباب -وهو أكبرُها على الإطلاق- فهو حركةُ الـمُنافقين و العملاء وغُلاة الصوفية التي نشطت أكثر ما نشطت في فترة ما بعد موت القادة الأربعة: (القائد خطَّاب، القائد أبو الوليد الغامدي، القائد شامل باساييف، الزعيم أصلان مسخادوف)، فكان الـمنافقون و العملاء خناجِرَ طعنت بها روسيا الـمقاومةَ الشيشانية في مقتل منذ الشهور الأولى مِن الحرب الشيشانية الأولى، ولم تكُن تمرُّ سنةٌ إلا و يزداد مع مُرورها عددُ الـمنافقين و العملاء، فكانوا مِن الكثرة بمكان، ولطالـما حذَّر القائد خطَّاب مِن (الـملالي) وهم غُلاة الصوفية، وكان يضعهم هم نصب عينيه قبل الرُّوس، ويُدرك عمـالتهم للعدو و إعانتهم إياه على الشعب الشيشاني الـمسلم و الـمقاومة. و إنَّ الـمُتمعِّن في التاريخ الـمُعاصِر سيُدرك أنَّ روسيا و فرنسا هما أكثرُ الدول الاستخرابية العادية استعمـالاً للعملاء و الـمنافقين و غُلاة الصوفية ضد شعوب البلاد الـمسلمة التي استعمرَتَاها، ويكفينا أنَّ في القرآن الكريم سورةً بأكملها تحمل اسم (الـمُنافقون)، وقد أخبر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بأنَّ أولئك: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [الـمنافقون:٠٤]، أي: هم العدو الحقيقي و الأول لأهل الإسلام، وهم الخطر الكامِن في معسكر الجهاد، بل هم أشدُّ خطرًا مِن العدو الخارجي، وصدق شيخُنا الدكتور عبد العزيز الطريفي إذ يقولُ: «للإسْلَامِ بِناءٌ ينخَرُ الـمُنافِقُون قَواعِدَه لأنهم دَاخِلَه، وَيضْرِبُ الكافِرونَ أسوارَه لأنهم خَارِجَه، لهذا حَذَّر اللهُ مِن الـمُنافِقِينَ أكثَرَ مِنَ الكَافِرِينَ»! ويقول: «نظرتُ في أسْبَابِ سُقُوطِ ثلاثِينَ دَوْلَةٍ وَ دُوَيْلَةٍ، فَرَأيْتُ أنَّ سُقوطَها بدَأ بوَهَنٍ مِنْ دَاخِلِهَا بأيْدِي مُنافِقِينَ مُكِّنُوا، ثمَّ استضْعَفَها عَدُوُّها،

فاسْتَبَاحَهَا، فأَسْقَطَهَا»[٤٠].. وهذا عينُ ما حدث في الشيشان الحبيبة قبل سقوطها بيد عدوِّها الرُّوسي!

فتلكم بعضُ أسباب سقوط الشيشان بعد حربَيْها مع روسيا.. وأما أهلُ الجهاد و الـمُقاومة فيها فقد أدَّوْا ما عليهم رغم ما وقعوا فيه مِن أخطاء؛ فهم بشرٌ يُخطئون و يُصيبون، و ليسوا أنبياء معصومين، ولا يوجد في التاريخ -ما خلا الأنبياء و الرُّسُل- أعظمَ قدرًا و أخلصَ جِهادًا مِن الصَّحابة، ومع ذلك لم يكُن ذلك القدر و ذلك الإخلاصُ ليمنعا صُدورَ الخطأ عنهم، وإنما الأعمالُ بالنِّيات.. وإنَّ مُجاهدي الشيشان قد ثبتوا على طريق الجهاد ولم يخونوا، و تمسَّكوا بمبادئهم ولم يُبدِّلوا، نحسبُهم كذلك و اللهُ حسيبُهم، بل كانوا يُواجهون العدوَّ وحدَهم بلا مُعينٍ ولا مؤيِّدٍ مِن الحكومات و الأنظمة و القِوى الإقليمية، فالأعذارُ معهم لا عليهم، والله يجزيهم عن جهادهم و صبرهم عليه خير الجزاء.

(٤٠) سطور في العقل و النقل و الفكر.. تقييدات و ملفوظات عبد العزيز الطريفي، جمع و ترتيب: عزام بن محمد المحيسني، العبيكان للنشر-السعودية، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م، ص ٢٩.

الفصل الرابع:
المدرسة الخطابية.. في العسكرية و السياسة و الدعوة و التربية

- الجهاد الخطابي في ميزان الشرع
- الصفات و المزايا القيادية الخاصة
- المزايا العسكرية العامة
- استراتيجيات حاسمة
- الوصايا التسع
- في معسكر فيدنو
- ختاما

الجهاد الخطابي على ميزان الشرع

قد تقدَّم لنا أنَّ سيفَ الإسلام خطَّاب قضى ١٤ سنةً مِن حياته في جِهادٍ مُتواصِلٍ ضد الرُّوس و عُملائهم، في أفغانستان ثم في طاجيكستان ثم في الشيشان و داغستان، و مِن المناسِب هنا أن نزِن طرفًا مِن تلك المسيرة الجهادية الطويلة على ميزان الكِتاب و السُنة لنرى شرعيتها و موافقتها لهما، بعيدا عن التفصيل المُطوَّل (فهذا مِن عمل أهل العلم الشرعي و المختصِّين فيه وحدَهم)، و إنما هو إجمالٌ موجَزٌ و حسب..

لقد بُعِث النبيُّ ﷺ قبل أكثر مِن ١٤٠٠ عام برسالة الإسلام مِن وسط جزيرة العرب، و أمَرَه اللهُ تعالى بتبليغِها للناس كافَّةً؛ أبيضِهم و أسودِهم و أحمرِهم، عربيِّهم و عجميِّهم، و أمَرَه بجهاد الكُفَّار المُحارِبين لكونهم أعداءً لتلك الرِّسالة الخاتمة و صادِّين عنها، و فرض على أمته تلك الشَّعيرة العظيمة التي وصفها النبيُّ ﷺ بأنها ذروة سنام الإسلام، و هي قائمةٌ إلى قيام السَّاعة.. و قد بيَّن علماءُ الإسلام أنَّ جِهادَ السِّنان نوعان: جهادُ طَلَبٍ، و جِهادُ دَفْعٍ.

فأمَّا جِهادُ الطَّلب فهو قيامُ المسلمين بغزو بلدٍ كافِرٍ ما قصد تبليغ الرِّسالة إلى أهله، فإذا منعهم حاكِمُ ذلك البلد و حارَبَهم و صدَّ عن سبيل الله وَجَب عليهم جِهادُه و مُحارَبَته، و رغم أنَّ جِهادَ الطَّلب أعظمُ مِن جِهاد الدَّفع و أفضلُ، غير أنَّه ليس مُمكِنًا في هذا الزمان الذي نعيشُه، و إنا لله و إنا إليه راجِعون.. و أما جِهادُ الدَّفع فهو نُهوضُ أهلِ بلدٍ مُسلمٍ ما تعرَّض لغزوٍ مِن عدوٍّ ما -سواءٌ كان كافِرًا أو مُسلِمًا باغِيًا- إلى قِتال هذا العدو و ردِّه، و هذا النوعُ مِن الجِهاد واجِبٌ على أهل ذلك البلد و فرضُ عين على القادِرين منهم بلا شُروط؛ قال العلامة عبد العزيز الطريفي حفظه الله: «وَ أمَّا

جِهَادُ الدَّفْعِ فليس له شرطٌ؛ فإذا دَهَمَ العَدُوُّ بَلَدًا، وجَبَ عَلَى أهلِهَا الدَّفْعُ عَنْ حِمَاهُم؛ كُلٌّ بِمَا يَسْتَطِيعُه، جَمَاعَةً أو فُرَادَى، رِجَالاً وَ نِسَاءً»[٤١].

- **أفغانستان:** و المقصودُ أنَّ بلاد الأفغان المسلمين بعدما تعرَّضت لغزو الرُّوس الكُفَّار سنة ١٩٧٩م أضحى الدِّفاعُ عنها واجِبًا على أهلها، و لكن ماذا لو وُجِدَ نَقصٌ في العدد و العُدَّة لديهم؟! أكان على المُسلِمين مِن باقي بلاد الإسلام القريبة أن يقدِموا إلى تلك البلاد ليُدافِعوا عنها بمعية أهلِها، أو أن يُعاوِنوهم بالمال و السِّلاح و الدواء و ما إلى ذلك؟!

الجواب: ذلك جائزٌ بشروطٍ حدَّدها علماء الإسلام و فصَّلوا الحديثَ عنها، و قد احتاج الأفغانُ لذلك بالفِعل كما ذكرنا في الفصل الأول مِن هذا الكتاب، و لذلك فُتِح باب الجهاد -تطوُّعًا لا وُجوبًا- أمام الشباب في دول الخليج و غيرها، و باركَته كوكبةٌ مِن كِبار علماء الإسلام وِفْقَ أدِلَّة الشَّرع[٤٢]، و أثنى العلَّامة الفقيه ابن عثيمين -رحمه الله- على الشباب الذين رآهم مُتحمِّسين للذهاب إلى أفغانستان، و إذا علِمنا أنَّ خطَّابَ كان مِن ضِمنهم آنذاك علِمنا شرعية جِهادِه في بلاد الأفغان.

- **طاجيكستان:** و أما بلادُ طاجيكستان المسلمة فقد أنشأ فيها الرُّوسُ حُكومةً شيوعيةً تابِعةً لهم، و لم تزَل هذه الحكومة تُواجَهُ بالرَّفض مِن طرف المُعارِضين الذين كان غالِبُهم مِن الإسلاميين، حتى حلَّ صيفُ عام ١٩٩٢م الذي شهِد اندلاع مواجهات مُسلَّحة بين الطرفين؛ أولئك يدعمُهُم الرُّوسُ و هؤلاء يلقَون دعمًا مِن بقية الحركات الإسلامية و الجِهادية في البلاد المجاورة، و مِن بينها أفغانستان التي سار مِنها كثيرٌ مِن المُجاهِدين للقتال ضِدَّ الحكومة الطاجيكية العميلة، و كان مِن ضمنهم سيفُ الإسلام خطَّاب، و قد صرَّح هذا الأخيرُ بأنَّ القضية الطاجيكية ظُلِمَت كثيرًا و لم يجِد المُجاهِدون فيها دعمًا مُعتبرًا مِن الدول العربية و الإسلامية، رغم أنَّ

---

(٤١) التفسير و البيان لأحكام القرآن (١/ ٥١٢).

(٤٢) و انظر ما دوَّنه الشيخ المُجاهد عبد الله عزام في كتابه: آيات الرحمان في جهاد الأفغان، ، ص ١٥٩-١٦٥

الـمواجهة فيها كانت بين طرفٍ شُيوعيٍّ يسعى لإقامة حُكم الشيوعية الكُفرية، و طرفٍ إسلاميٍّ -باسم الـمُعارضة- يسعى لإقامة حُكم الشريعة في البلاد، و لا الْتِفَاتَ لغير الإسلاميين الذين كانوا مُنضوين تحت راية الـمُعارضة؛ لأنَّهم كانوا قِلَّة قليلة مُقارنةً بالإسلاميين.. ولذلك كُلِّه فإنَّ مُشاركةَ القائد خطَّاب في القضية الطاجيكية و جِهادَه ضدَّ الشيوعيين -تحت راية عبد الله النوري- لا غُبار عليه شرعًا، و هو مأجورٌ على كُلِّ حال -إن شاء الله- لِـواسِعِ معنى حديثِ النبي ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَ إِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[٤٣]، و اللهُ تعالى أعلم.

- البوسنة و الهرسك: كانت القضيةُ البوسنيةُ مِن أوضح القضايا الإسلامية و أبْيَنِها في نظر عامة الـمسلمين؛ فالبِلاد تعرَّضت لِصراعٍ رُباعي على الأساس الطَّائفي الـمحض بعد انهيار يوغسلافيا؛ فهناك السلوفينيون النَّصارى الكاثوليك، و هناك الصِّرب النصارى الأرثوذوكس، و هناك إخوانُهم الكروات النَّصارى الكاثوليك، و هناك البوسنيون البوشناق الـمسلمون، و بعد أن استقلَّت سلوفينيا و نالت اعتراف أوروبا و العالم بها، خاض الـمسلمون -رفقة الكروات- حربًا شعواء ضد النَّصارى الصِّرب بدءً مِن أبريل ١٩٩٢م، و كُلُّ طرفٍ يسعى لنزع استقلاله، ثم تعرَّض الـمسلمون لـمؤامرةٍ قذِرةٍ كان طرفاها هما الصرب و الكروات، خصوصًا و أنَّ الجميع كان مُسلَّحًا و مُدعَّمًا إلا الـمسلمين الذين خذلتهم الأنظمة العربية و الإسلامية إلى ذلك الحين فقط، فهنا ترسَّم قيامُ الـجِهاد، و فُتِح بابُه ضدَّ أولئك الأعداء، فجاء إلى البوسنة ما يزيدُ عِن مئة مُجاهِد مِن الأنصار الـمُتطوِّعين القادِمين مِن البلاد الـمُجاوِرة؛ على غِرار أفغانستان و داغستان و الشيشان.. و أما خطَّاب فقد صرَّح غير ما مرة بمُشاركته في الجِهاد البوسني، و لكنَّنا لم نجِد منه أدنى توضِيحٍ أو تفصيلٍ عن تلك الـمُشاركة، كما أننا لم نعثر بعدُ على شاهِدٍ تاريخيٍّ عنها، و الذي

(٤٣) صحيح البخاري (٦٩١٩)، صحيح مسلم (١٥).

نعتقدُه أنَّه ربما كان قد شارك بنفسه رفقة بعض أصحابه في تلك الحرب قبل قُدومه إلى الشيشان، أو لعلَّه شارك فيها بإرسال بعضِ رِجال مُعسكره في الشيشان إلى البوسنة، و نحنُ نعلم أنَّ الجِهاد البوسني لم ينتهِ إلا بعد توقيع اتفاقية دايتون المُجحِف شهر نوفمبر ١٩٩٥م، و اللهُ تعالى أعلم.

- **الشيشان:** و أما الشيشانيون فقد تحرَّكوا لأخذ استقلالِهم المشروع بعد انهيار الإمبراطورية السوفييتية، و قادَهُم إلى ذلك الزعيمُ المُجاهدُ جوهر دودابيف -رحمه الله- الذي أراد تطبيق الشريعة الإسلامية، و سعى لأسلمة المجتمع الشيشاني الذي أنهكَه الحُكم الشُّيوعيُّ، و كاد أن يفصِلَه عن دينه و هويته، فلما علِمَ الرُّوس بذلك غَزَوا البلاد الشيشانية و حاربوا قيادتها و أجرموا في حقِّ شعبِها المسلم، فحدث مثلما حدث في أفغانستان تقريبًا، و أضحى الجِهاد فرضًا واجِبًا على الشيشانيين الذين كانوا بحاجةٍ إلى الرِّجالِ و الأموال، فكان مِمَّن جاء إليهم ناصِرًا مُعينًا سيفُ الإسلام خطَّاب و مَن معه سنة ١٩٩٥م، و قد ساند القضيةَ الشيشانيةَ علماءُ الإسلام العرب و العجم، و بيَّنوا عدالتها و صِحَّة الجهادِ فيها شرعًا، و أنَّ الرُّوس الملاحِدة مُعتَدون مُحارِبون للمسلمين فيها، و يكفي هذا دلالةً عن شرعية جِهاد خطَّاب فيها.

- **داغستان:** كانت داغستان مثل الشيشان يحكُمُها الرُّوس الشيوعيون زمن الإمبراطورية السوفييتية، فلما انهارت هذه الأخيرة راحت البلدان القوقازية المسلمة المنضوية فيها تسعى للاستقلال عنها، و منها داغستان، و لكنَّ الرُّوسَ وضعوا فيها -كالعادة- حكومةً شيوعيةً تابِعةً لهم لمنع قيام حكومةٍ إسلاميةٍ تحكُم بشرع الله.. و لمَّا كان الشعبُ الداغستاني المسلم يطمحُ إلى نبذ الحُكم الشيوعي الكُفري و استبداله بالحُكم الإسلامي الشَّرعي، و لمَّا انتهت الحرب الشيشانية الأولى و كانت كُلُّ المؤشرات تدُلُّ على أنَّ الرُّوسَ سيبدأون الحربَ الثانية بأشدّ من الأولى و أعنف؛ بادر الداغستانيون بأنفسهم إلى مُهاجمة القوات الرُّوسية في بلادهم، و ارتأى سيفُ الإسلام خطَّاب و شامل باساييف و مَن معهما مِن القادة في الشيشان أن

يُعاوِنوا إخوانهم، ذاك رغم أنَّ خطَّابًا كان مُعارِضًا لذلك التوقيت الذي شنَّ فيها الـمُجاهِدون الداغستانيون الهجوم على الرُّوس، و سنأتي لاحِقا -إن شاء الله- على دِراسة هذه الخطوة الجريئة التي خطاها خطَّاب و رفاقُه مِن الزاوية العسكرية، و ذلك حتى نتبيَّن شرعيتَها و الفوائد الـمُحقَّقة عنها.

إنَّ مُبتغايَ مِـمَّـا سبق ذِكرُه هو بيانُ شرعية جِهاد القائد خطَّاب و صِحَّتَه بعد أن رأيتُ جـملةً مِن أدعياء العِلم يطعنون فيه و يتَّهمونه بالإرهاب و الـخُروج و الفوضوية و الانحراف عن الـمنهج السَّلفي! أي و الله لقد اتَّهموه بهذا و هم الذين يدينون بدين الإسلام! و لا شكَّ أنَّ هؤلاء مِن جملة أولئك الذين سخَّرتهم الأنظمةُ العربية العميلة لتطويع نُصوص الشريعة حسب توجُّهاتها، و اتهام الـمُجاهِدين في سبيل الله بـ(الإرهاب) أو (التطرُّف) أو (الخروج) طاعةً لطواغيت الغرب الكفَـرَة ليس إلا!

بل دعونا نفترِض أنَّ خطَّابًا إرهابيٌّ كما يزعُمون.. أوَلَـمْ يقُل اللهُ تعالى: ﴿وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ أَعْدَاءَ اللهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، و يقُل النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» (٤٤)؟! أوَليس في تلك الآية و هذا الحديث دليلٌ على وُجوب إرهاب الكُفَّار و زرع الرهبة في نُفوسِهم بما شرَعه اللهُ تعالى مِن وسائل الإرهاب؟! أوَلَيس مِن أهم أعمال الـمُجاهِدين على مرِّ التاريخ الإسلامي أن يُرهبوا أعداء الله الـمُعتدين و يُرعِبوهم إعلاميًّا و نفسيًّا و عسكريًّا في خِضم الصِّراع معهم؟!.. فإذا كان مقصودُ أولئك الطَّاعِنين في خطَّاب مِن اتهامه بالإرهاب هو معناهُ الشَّرعي ذاك فوالله إنَّهم

(٤٤) صحيح البخاري (٣٢٨)، صحيح مسلم (٥٢١).

لأضلُّ مِن الدواب، و إذا كان مقصودُهم مِنه هو ما حدَّدته لهم الأممُ المُتحدة فو الله إنَّهم لأخونُ الناس للدين والأمة!

إنَّ سيفَ الإسلام خطَّاب مِن أكبر مُجاهدي الإسلام في زمنِنا المُعاصر، و هو يُعدُّ -في جهاده على العُموم- مِن طينة الأمير عبد القادر، و عمر المختار، و عبد الكريم الخطَّابي، و عز الدين القسَّام، و عبد الله عزَّام، و أمثالِهم، بل و يُعدُّ مِن طينة مُجاهدي السلف الأوائل بلا أدنى مُبالغة، و و الذي نفسي بيده ما رأيتُ في العقود الثلاثة الأخيرة مِن مُجاهدي الأمة أسلمَ عقيدةً، و أقومَ منهجًا، و أعدلَ تعامُلاً، و أوضحَ رؤيةً، و أحذقَ تخطيطًا، و أمهرَ سياسةً و إدارةً، و أشجع نفسًا، و أحرصَ على وِحدة الصف، و أقوى إضرارًا بالعدو؛ مِن اثنين: الشيخ عزَّام و القائد خطَّاب! نحسبُهُما كذلك و اللهُ حسيبُهُما، و لا نُزكي على الله أحدا.. فنعوذ بالله مِن الجهل و الضلال.

الصفات و الميزات القيادية الخاصة

إننا نرى الكثيرَ مِن الصِّفات و الـمزايا القيادية التي تـمتَّع ببعضِها القائدُ خطَّاب منفرِدًا عن غيره مِن قادة الجهاد الشيشاني الكِبار، بينما وُجِدَ بعضُها الآخر فيهم جميعًا و لكنَّه لم يبرُز و لم يتجلَّ كما برزَ و تجلَّى في سيرة خطَّاب، سواء على مستوى العسكرية أو الدعوة، و لعلَّ مِن أهمِّ ما نذكُرُه مِنها مع إبراز شاهِدٍ مِن الشَّواهِدِ عليها:

1- الحزم و الصرامة: عندما دخل خطَّاب أرضَ الشيشان كان أوَّلُ ما عمل عليه هو إنشاء مُعسكره التدريبي الخاص، و كان بين يديه ساعتئذ أكثرُ مِن ٨٠ مُـجاهِدًا شابًّا أكثرُهم مِن أبناء الشيشان، و لكنَّ حزمَ القائد و حِرصَه على الانضباط أدَّيا إلى نزول ذلك العدد إلى ما بين ٦٠ و ٧٠ بعد مُغادرة حوالي ٣٠ فردًا في الأيام الأولى فقط مِن بدء البرنامج التدريبي!.. ففي إحدى الليالي طلب القائد مِن أحد الـحَرَس أن يُوقِظَه قبل وقت الفجر، فلما نهض خطَّاب لم يجِد أحدًا مِن أولئك الـحَرَس واقِفا في مكانه يؤدي مُهِمَّته، و كان الجوُّ شديدَ البُرودة حتى أنَّ العُشب على الأرض أضحى كالـمسامير لفرط تصلُّبه مِن البرد، بل و كان الـمرْءُ إذا وضع رِجلَه على حجرٍ ما التصق به، فنادى القائدُ في الجميع و أخذهم إلى حيث يوجد مجرًى للماء، ثم أمرهم قائلاً: «ادْخُلُوا هُنَا! ادْخُلُوا هُنَا»، فغضبوا كثيرًا و أعرضوا عن أمرِه، و أراد أكثرُهُم أن يُغادِر الـمُعسكر، فشغَّل القائدُ إحدى السَّيارات و قال لهم و هو يُشيرُ إليها: «الذي يُرِيدُ أنْ يخرُجَ مِنَ الـمُعَسْكَرِ فليَخْرُج»، فبعضُهُم قال له: «لِـمَاذَا تُعَاقِبُنا جَـمِيعًا وَ لَا تُعَاقِبُ الـمَجْمُوعَةَ التي أخْطَأَتْ؟ نَحِن مَا هُوَ ذنبُنا؟»، و بعضُهُم ذهب تفكيرُه بعيدًا و قال مُستنكِرًا: «مَن هَذَا الَّذِي جَاءَ إلَى أرْضِنَا وَ يُرِيدُ مُعَاقَبَتَنا؟!». و رغم أنَّ القائد كان

يُدرِك جيدًا الحمِيَّةَ التي عُرِف بها الشيشانيون، و هو الذي يذكُرُ عنهم بأنَّه عندما يُطرَد منهم أحدٌ مِن الـمُعسكر تنصُرُه الـمجموعةُ كُلُّها و يقولون: «كُلُّنا نخرُجْ!». فرغم ذلك بقي القائدُ على حزمه و صرامته، و هو الذي يعلمُ بأنَّ ثمرةُ التفريط النَّدامةُ و ثمرةُ الحزم السَّلامةُ، فطرد مِن مُعسكره حوالي ٣٠ فردًا بسبب مُخالفَتِهم أوامِرَه أو اعتراضِهم عليها، و بقي بين يديه ٦٠ آخرون أو ما يزيد بقليل، و كان هدفُه مِن ذلك أنْ يُبيِّن للجميع بأنَّ التدريب على السِّلاح -بل و على كافة أنواعِه- قد يكفيه أسبوعٌ واحِدٌ فقط، و هو ما كانوا يسعَون إليه وحدَه، و إنما هنالك ما هو أهمُّ مِن مجرد تعلُّم استعمال السِّلاح؛ و هو تعلُّم النِّظام و الانضباط!. و قد أقنعَهم بوجهة نظَرِه لـمَّا قال لهم: «أنا أخبِرُكُم لِمَاذَا عَاقَبتُ الجمِيعَ؛ لَوْ جَاءَ الرُّوسُ و الـمُنَافِقُونَ -وَ كَانُوا مَوْجُودِينَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ فَالرُّوسُ قَرِيبُون مِن الجِبالِ وَ الـمُنافِقُونَ كُثُرٌ- فَلَوْ جَاءُوا فِي اللَّيْلِ هَلْ سَيقتُلُونَ الـمَجْمُوعَةَ التي أخطَأتْ فَقَطْ أم سَيقتُلُون الجمِيعَ؟!»، فقالوا: «بل سَيقتُلونَ الجمِيعَ!». ثم رجع الجميعُ إلى الـمُعسكر و استأنفوا التدريبات.

2- الجدية و العزيمة: لو أنه طُلِب مني اختصارُ العقلية القيادية للقائد خطَّاب في عِبارة واحدة لاختصرتُها في هتين الكلمتين الـمهمَّتين: الـجِدِّية و العَزِيمَة! فخطَّاب كان يُدرِكُ أنَّ شهادات الفِعال أبلغُ و أهمُّ مِن شهادات الرِّجال، و أنَّ الحركة تتبعُها البركة، و الذي يظهر لنا مِن سيرته أنَّ جُلَّ وقته -بعد قُدومه إلى الشيشان- كان يمضي في العمل و التدريب و الدعوة و العِبادة بلا كَلَلٍ أو مَلَلٍ، و أكثرُ ما يتطلَّبُه هذا الأمر هو وُجود الـجِدية لدى الـمرء، و هي التي تدفعُه للعمل الدَّؤوب الـمُتواصِل ليبلُغ هدفَه الـمنشودَ و يُحقِّق مقصودَه الـمأمولَ على أكملِ وجه، فلا وقتَ عنده للتَّفاهات و سفاسِف الأمور.. و مِن الشَّواهِد على ذلك -و قد سبق و أن ذكرناه- أنَّ القائد أقام مُناوراتٍ عسكريةٍ كبيرةٍ في إحدى الليالي، فهلع النَّاسُ مِن حول مكان تواجُد الـمعسكر الجبلي و ظنُّوا أنَّ القوات الرُّوسية شنَّت هُجومًا عليه، فما هو إلا أن

صعدوا إلى ذلك المكان حتَّى تفاجأوا بالحقيقة، و استطرفوا الأمرَ كثيرًا، و منهم من انفجر ضاحِكا بسبب ذلك. و هذا إن دلَّ على شيء فإنما يدُلُّ على الجِدية و العزيمة الكبيرتين اللَّتين اتَّصف بهما القائدُ خطَّاب، و إلا فما الذي يدفعُه إلى تنظيم مُناورات عسكرية في ذلك الليل و النَّاسُ نِيام؟! و أن تكون بذلك الحجم؟!

3- إمامة الصف: إنَّ مِن أعظم صِفات القائد العسكري الضرورية أن يكون في طليعة صَفِّ الذين يقودُهُم، و أن يتقدَّمَهم في كُلِّ وقت و مكان، في السَّراء و الضَّراء، في المَنشط و المَكره، فإنه إذا صلُحَت العينُ صلُحت سواقيها، و قد قال الإمام الأديب البشير الإبراهيمي شِعرًا: «لا نَرتَضِي إمَامَنا في الصَّفِّ، ما لم يكُن أمامَنا في الصَّفِّ!».. و قد تجسَّد ذلك المعنى على الدَّوام في حياة القائد خطَّاب؛ فهو الذي كان يؤمُّ رِجالَ مُعسكره في الصلاة، و هو الذي كان يقودُهم في المعارِكِ و يبرُز أمامَهم، و هو الذي كان يتقدَّمُهم في تحرُّكاته و سَيْرِه، و هو الذي كان يحرِصُ على أن يكون أوَّلَ مَن يتحلَّى بما يطلُبُ مِن أصحابِه أن يتحلَّوا به، و عندما أقام مُعسكره في فيدنو كان أوَّلُ ما صرَّح به للشباب أنْ قال لهم و هو يُحدِّثُهم عن البرنامج و العمليات العسكرية: «إذَا لَمْ تَجِدُونَا أمَامَكُمْ في هَذِهِ العَمَلِيَّاتِ فَارْمُونَا بِالرَّصَاصِ وَ قُولُوا مَا تُرِيدُونَ!!»، فتأمَّل هذا الموقِف! و الذي يُشاهِدُ المقاطِع المرئية التي سجَّلها خطَّاب خلال أدائه للعمليات العسكرية و غيرها سيُدرِك الحِسَّ القيادي لدى هذا الرَّجل الفذ، و أنه دائمًا ما كان هو الأوَّل أمام رِجال مُعسكره. و قد حكى المُجاهد أبو عمر النَّجدي مُتحدِّثا عن عملية الانحياز مِن غروزوني، فقال: «قامَ القائِدُ خَطَّاب -حفِظه اللهُ- برَصْدِ الطَّرِيقِ بِنفْسِه لضَمَانِ سَلامَةِ الطَّرِيقِ، وَ سَهِرَ اللَّيالي الطِّوَال المُتواليَات يُفكِّرُ في أمْرِ الجرْحَى و المَرْضَى و الأصِحَّاء عَلَى حدٍّ سَوَاء»، و يقول في موضع آخر: «كَانَ القَائِدُ العَامُّ -حفظه الله- يَبْحَثُ لنَا عَنْ طَرِيقٍ سَهْلٍ عَلَينَا نُحافِظُ فِيهِ عَلَى قِوَانا و طَاقَتِنَا، فَعَرَّضَ نَفْسَه للخَطَرِ أكثر مِنْ أربعِ مرَّاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ حَتَّى يُجنِّبنا الإرْهَاقَ، وَ ذلِكَ

بصُعُودِ جَبَلٍ شَاهِقٍ كَان يَعرِفُ أنه سيُنهِكُ قِوَانا لَوْ سَلَكْنَاه أوَّلاً، فَحَاوَلَ الاسْتِبقَاءَ عَلى قِوَانا و لَكِنْ دُونَ جَدْوَى، فأمَرنا أخيرًا بعد الـمُحَاوَلات -مُضطرًّا- الصُّعُودَ إلى الجبَلِ الَّذي تجنَّبه أولاً».

4- الشعور بالـمسؤولية: كان خطَّاب على نمطٍ فَـذٍ مِن الإحساس الـمُرهف بثِقَل الـمسؤولية، و إدراكِه لِواجباتِه قبل حُقوقه، و هذه الـميزة -بلا مُبالغة- لم نعهدها إلا في سِيَر مُـجاهدين السلف الـمُتقدِّمين و بعضِ الـمُتأخرين.. فلقد تعلَّم رحمه الله مِن قصة الجِهاد الأفغاني درسًا في تحمُّل الـمسؤولية على الـمستوى الفردي أولاً، و أنَّ على الـمرء أن يتحمَّل مسؤولية وُجودِه على أرض الجِهاد و لا يُحمِّلها للآخرين، و لذلك نجِدُه قد تولَّى بنفسه التخطيط للانتقال إلى بلاد الطَّاجيك مع بعض رِفاق دربه ثم قادهم إليها، و تولَّى بنفسه -أيضا- التخطيط للانتقال مِن تلك البلاد إلى بلاد الشيشان رفقة نفس الـمجموعة النَّاصِرة، و في الشيشان تولى إنشاء مُعسكره و النُّهوض به و استقبال الـمُتطوِّعين مِن مختلف الجِهات، و تدريبهم و تكوينهم و تصحيح عقيدتهم، و أسَّس معهد القوقاز لإعداد الدُّعاة، و كان يُوَجِّه و يُخطِّط و يقود العمليات العسكرية بنفسه ، كُلُّ تلك الـمسؤوليات تحمَّلها بنفسه قبل غيرِه!.. بل إنَّ مِن أوضح الشَّواهِد -زيادةً على ما سبق- ما ذكره أبو الوليد في معرض حديثه عن أسباب عدم أخْذِ خطَّاب -كما يلزم- بكلام أصحابه حينما كانوا يُحذِّرونَه مِن العَمِيلَيْن؛ بأنَّ خطَّابًا كان حريصًا على مُتابعة الأمور بنفسه نظرًا للأمانة الـمُلقاة على عاتِقه، و أنَّ الـمسؤول إذا لم يكُن كذلك فإنَّ العملَ لا يسيرُ على الوجه الـمطلوب! فهذا يدُلُّك على درجة يقظة القائد و حِرصه الشَّديد على تحمُّل مسؤولياته كما ينبغي أن يكون.

5- القدرة على الإقناع: عُرِف خطَّاب بأنه كان على استطاعةٍ و تـمكُّنٍ عجيبَيْنِ مِن إقناع الآخرين برأيه و نظرته، و هذا راجِعٌ إلى خِبرته بالحرب و قوة شخصيته مِن جهة، و إلى قوة يقينِه و صِدق لهجته و إخلاصِه لربِّ العالـمين مِن جهة أخرى، و قد

قال أحدُ رِفاقه عنه: «لَوْ قَالَ خَطَّابٌ عَنْ كَأْسِ اللَّبَنِ أَنَّه مَاءٌ لصدَّقتُهُ!».. و مِن الشَّواهِد التي نسوقُها هنا على ذلك أنَّه استطاع إقناع الـمُعترِضين على جِهاده إلى جانب مَن انحرفت عقيدتُهم مِن أهل الشيشان بأنَّهم حديثو عهدٍ بكُفْرٍ و إلحادٍ، و أنه لا ينبغي مُعاداتُهم و نبذُهُم على الإطلاق، و إنما الواجِبُ هو دعوتُهم بالرِّفق و الهدوء، و لذلك لم يُعرَف وُقوعُ صِراعٍ واحِدٍ داخل معسكر خطَّاب أو خارِجه كان هو طرفًا فيه.. و مِنها تـمكُّنُه مِن إقناع الـمُنخرِطين الأوائل في برنامجه التدريبي بفيدنو بضرورة تحمُّل الـمسؤولية الجماعية كما أسلفنا سابقا.. و مِنها إقناعُه لشامل باساييف بغلط رأيه خلال الانسحاب البطولي مِن فيدنو بعد انفجار الحرب الثانية.

6- وضوح الرؤية: لم يكُن خطَّاب -مُذ أن ارتقى ليكون قائدًا و مسؤولاً- مُشوَّش الفِكر، قاصِر الرؤية، بل كان بالعكس مِن ذلك، فعقيدتُه السلفية الصحيحة جعلته يُدرِك حقيقةَ الصِّراع الكُبرى بين الحق و الباطل على هذه الأرض، و يعرِفُ أصناف النَّاس و مناهِجَهم و طرائق تفكيرهم، و يعلمُ واقِع الدُّول العادية الـمُهيمِنة و أهدافِها و غاياتها مِن حروبها على الإسلام و أهله، و لذلك لم نعهده مُداهِنًا ولا مُقصِّرًا في الانتصار لقضايا أمته الإسلامية، و لم نجِدْه يُناقِض نفسَه في ذلك قط، و إنما كان واضِح الرؤية، و مُركِّزًا غاياته مِن الجهاد على ثلاثة أمور أساسية: صدُّ عدوان الرُّوس على بلاد الـمسلمين، الدعوة إلى الله بالطُّرق الـمُناسبة، السعي لإقامة الشريعة و تحكيمها.. لذا فقد كان يتجنَّب -قدرَ الإمكانِ- خوضَ الـمعارِك الجانبية الـمُشتِّتة لئلا يُخطئ طريقَه أو يُعطِّل سيرَه في سبيل تحقيق تلك الأمور الأساسية الثلاث.

7- معرفة معادن الرِّجال: كان القائد خطَّاب على دِراية تامَّة بمعادِن الرِّجال و الـمسؤولين النَّافِذين مِن حوله، فقد عرف عن قُرب حقيقةَ الـمُجاهدين العامِلين في القضية الأفغانية ثم القضية الطَّاجيكية ثم القضية الشيشانية، و عاشَرَهم لسنوات طِوال.. ففي أفغانستان التقى بأسامة بن لادن مؤسِّس قاعِدة الجِهاد فيها، و لـمَّا اتُّهِم

أسامة بتدبير تفجيرات الحادي عشر سبتمبر نفى خطَّاب عنه ذلك، و أكَّد أنَّ حرب الأمريكان على أفغانستان الكبيرة لا يمكن أن يكون سببُها شخصًا واحِدًا.. و في طاجيكستان تعرَّف على عبد الله النُّوري زعيم الـمُعارضة فيها، و وصفه بالأخ و بالأستاذ، و جاهد تحت قيادته لأكثر مِن سنة.. و في الشيشان تعرَّف على زعيمها الأول جوهر دودابيف، و تأكَّد مِن غيرته على الدِّين و عمله الدَّؤوب في سبيل تحقيق استقلال بلاده و أسلمتِها بعد أن كان يظُنُّه رجلاً شيوعيًّا! و قال عنه بالحرف الواحِد: «لَعلَّ اللهَ ﷻ أكرَمَ شُعُوبَ القُوقَازِ بمِثْلِ هَذَا الرَّجُل». ثم تعرَّف خطَّاب على القائد شامل باساييف، و توطَّدت علاقتُه به للغاية، و لم يكُن يذكُر اسمَه إلا و يُرفقه -غالِبًا- بكلمة (أخي)، و قد سبق لشامل و أن انخرط في أحد برامِج خطَّاب التدريبية بفيدنو. و كذلك عرف خطَّاب أصلان مسخادوف و سلمـان رادوييف و رسلان جلاييف و سليم ياماديف و غيرهم مِن أسود الشيشان، و رأى تفانيهم في الجهاد و إخلاصَهم لقضيتهم، و حُبِّهم للإسلام و أهله. و قبل كُلِّ أولئك كان خطَّاب قد تعرَّف على صاحبِه و رفيق دربِه و خلفِه مِن بعده، أبي الوليد الغامدي، فأحبَّه و قرَّبه مِنه، و أوكل إليه مهمَّـات عديدة تدُلُّ على إدراكِه لقُدُراته و إمكاناته.. و الحاصِل أنَّ خطَّاب لم يكُن يمدح أحدًا أو يُثني عليه أو يستعملُه إلا بعد أن يتيقَّن مِن صِدقه في عمله و قُربِه مِن هدي الإسلام.

8- إدراك حقيقة العدو: حينمـا خاض القائد خطَّاب تجربته الجِهادية في أفغانستان بانت له العديدُ مِن الحقائق؛ و من أبرزها حقيقةُ العدو الرُّوسي، و طريقة تفكيرِه، و رؤيته للإسلام و الـمسلمين الـمُقاوِمين، فتوسَّعت مدارِكُه حول ذلك العدو، و استطاع بناء صورة كامِلةٍ حقيقيةٍ عنه مكَّنته مِن اتخاذ أفضل القرارات بشأنه بعد قُدومه إلى الشيشان.. و يكفينا فقط للدلالة على ذلك تيقُّن خطَّاب مِن سعي الرُّوس

لإشعال الحرب مُجدَّدًا بعد انتهاء الحرب الأولى، و إدراكُه أنَّهم قومٌ لا عهد لهم و لا أمان، و أنَّهم ما خرجوا مِن الشيشان بعد الحرب الأولى إلا و هم يُخطِّطون لدُخولها مرةً أخرى، و هذا الذي حدث حقيقةً عكس ما كان يظُنه الكثيرون. كما أنَّه كان مُتمسِّكا بالحل العسكري بالدرجة الأولى، كارِهًا للحلول السلمية و المفاوضات و ربطها بالقوانين الدُّولية و ما إلى ذلك، و هذا نظرًا لإدراكِه حقيقةَ المؤامرة العالمية ضد أمة الإسلام، فكان مُقتنِعا بأنَّ ما أخِذ بالقوة لا يُستَرَدُّ إلا بالقوة!

9- الحفاظ على الوحدة: لعلَّ مِن أكثر ما كان يؤلِمُ الرُّوسَ و هُم ينظُرون إلى نجاح المُقاومة الشيشانية في تكبيدها إيَّاهُم الهزائمَ و الخسائرَ خلال مُجمَلِ زَمَنِ الحربَيْن هو وِحدة الصف التي تجمَّلت بها تلك المُقاومة، و غياب التشاحنات و التنازعات بين أقطابها و أركانها، و مِن ثمة آتت تلك الوِحدة الرائعة ثِمارها اليانِعة العظيمة ضدَّ العدو، على أنَّ الفضل في ذلك -بعد الله تعالى- يعودُ للقائد خطَّاب الذي كان حريصًا غايةَ الحِرص على نبذ الفُرقة و التنازُع داخِل البيت الجِهادي الشيشاني، و سدِّ ثغرات الاختلاف بين أرباب ذلك البيت دومًا.. فإنه لمَّا حاول المُنافِقون و غُلاة الصوفية في الشيشان الإيقاع بين الرئيس أصلان مسخادوف و القائدَيْن باساييف و خطَّاب -حين وقع الخلاف حول عمليات داغستان- بادر ذاك الأخير إلى إماتة تلك المُحاولة القذِرة في مهدِها، و أكَّد على أنَّ مثل تلك الخِلافات هي مِن طبيعة البشر، و لا ينبغي أن تؤدِّي إلى تصدُّع صف المُقاومة، و حذَّر -مِن جهة مُقابِلة- باساييف مِن مغبَّة تصعيد ذلك الخِلاف مع الرئيس أصلان، و قال عن هذا الأخير: «أَصْلانْ مِسْخَادوفْ هُوَ رَئيسُ الجمْهُوريَّةِ الشِّيشَانيَّةِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، أَمَّا عَنْ وُجودِ خِلَافاتٍ فلا يَخْلو قومٌ مِنهَا، و هَذِه مِن طَبيعةِ البَشَرِ، و لكنَّ المُهِمَّ أنَّ الجميعَ على يَدٍ واحِدةٍ و على قرارٍ واحِدٍ في مُواصَلَة الجِهادِ ضدَّ الجيش الرُّوسي الغاشِم حتى نِهايَته».

خطاب مجتمعا ببعض رفاقه المجاهدين

10- الحرص على تصحيح عقيدة المجاهدين: و أما هذه المزية فقد انفرد بها خطَّاب مُطلقًا في الشيشان، و لم نعلم أحدًا -و اللهُ تعالى أعلم- مِن قادة الجِهاد الشيشاني منذ بدء الغزو الرُّوسي سنة ١٩٩٤م حَرِصَ على تصحيح عقيدة الشباب المُجاهِد المُتطوِّع سِواه، على أنَّ هذا الأمرَ عادِيٌّ و مُتوقَّعٌ بالنَّظر إلى البيئة الإسلامية التي يغلُب عليها التصوُّف في بلاد العجم عمومًا، و بلاد القوقاز خصوصًا، و هذا التصوُّف غالِبًا ما يكونُ مُشوبًا بكثيرٍ مِن البِدَع و المُنكرات و الشَّطحات الشِّركية، و هي على درجات متفاوتة في عين الشَّرْعِ طبعًا، و إذا علِمنا أنَّ موطِن خطَّاب الأصلي هو أرض التي تُعتبر مركز السلفية في العالم الإسلامي اليوم، و مُلتقى أكابِر علمائها و دُعاتها، أدركنا طبيعة تلك المُهمَّة العظيمة التي تولَّى مسؤوليتها رحمه الله بعد قُدومه إلى الشيشان، و قد كان يُدرك أنَّ مِن كمالِ جِهاد المُجاهِد صِحَّةُ عقيدته و سلامةُ توحيده، مع العلِم بأنَّ خطَّابًا كان حذِرا للغاية مِن إثارة الصِّراعات العقدية بين المُجاهِدين في طاجيكستان و الشيشان لئلا يختلَّ جِهادُهم، فيفرح أعداؤهم الرُّوس بذلك و يستغلوه، و هذا عينُ الحِكمة و العقلانية. و في الأخير أورِدُ تصريحَ الخائن

الشيشاني الأكبر، و عميل الرُّوس الأول، و الغالي في تصوُّفِه، أحمد قديروف حين قال: «نَحْنُ عِنْدَنَا مَذْهَبُ الصُّوفية منذُ أنْ اعتنقْنَا الإسْلَامَ، و بالتالي هَلْ جَـمِيعُنا مُشْرِكُونَ عَلَى مَدَى الأجْيَالِ قَبْلَ أنْ يَأتي عِنْدَنا أبو عُمَرَ و عبدُ الرَّحمان و خَطَّابُ و غيرُهم؟!».. فتأمَّل جيدًا هذا القول الـمُتضمِّن لأكبر صُوَر الجهل و التعصُّب للهوى، و أبصِر معركة العقيدة الصحيحة و الـمنهج التي كان يخوضُها خطَّاب و أصحابُه الـمُجاهِدون الدُّعاة ضد غُلاة الصوفية في الشيشان!

فتلك عشرةٌ كامِلةٌ مِن صِفات و مزايا خطَّاب القيادية.

الميزات العسكرية العامة

لدى القائد خطَّاب مجموعةٌ مِن المزايا العسكرية العامة، و لا غِنى لأيِّ عسكريٍّ مُقاتِلٍ مسلمٍ عن أكثرِها مهما تواضعت رُتبته العسكرية، سواء كان قائدًا رئيسًا أو جنديًّا مرؤوسًا، و بإمكانِنا تلخيصُ بعضِها كالتالي:

1- التدريب الجيد: فالتدريب هو اللَّبِنة الأساسية الأولى في كُلِّ بِنَى الجيوش النِّظامية و غير النِّظامية، و هو على أقسام عِدَّة؛ نذكُر منها: التدريب البدني الحُر، التدريب على استعمال السِّلاح، التدريب على الفروسية، التدريب على السِّباحة، التدريب على تحمُّل الجوع و العطش، إلخ.. و كُلُّ هذه الأقسام وصل القائد خطَّاب فيها إلى أعلى المستويات و هو في عنفوان شبابِه، فصنعت منه عسكريًّا عظيمًا مُتكامِلاً يندر وُجودُه في العصر الحديث.

القائد خطاب في إحدى حصص السباحة

2- اللياقة البدنية العالية: لقد ذكرنا بأنَّ والِدَ خطَّاب كان حريصًا على أخذ جميعِ أولادِه إلى المواقِع الجبلة الوعِرة، و ذلك كي يكتسبوا القوة البدنية و الشِّدَّة، و هذا ما كان له

أثرٌ لا بأس به في فترة شباب خطَّاب، فلمَّا حلَّ هذا الأخيرُ بأفغانستان بدأ التدريب البدني في أعلى مستوياته داخل مراكز التدريب هناك، ثم واصل تدريبَه في طاجيكستان و الشيشان كأشقِّ ما يكون، فصار على قوةٍ بدنيةٍ كبيرةٍ مكَّنته مِن تنفيذ الكثير مِن العمليات و الإغارات على العدو في زمنٍ قصيرٍ وجيزٍ خلال بعض الفترات، و يكفينا -فقط- للدَّلالة على قوته البدنية الرُّجوعُ إلى قصة انسحابه و مجموعته مِن منطقة فيدنو في بداية الحرب الثانية، ففيها تظهر لنا تلك المزية بوضوح.

صور من تدريبات القائد خطاب و أصحابه على بعض أنواع الصواريخ المحمولة على الكتف

3- إجادة استعمال الأسلحة: استطاع خطَّاب معرفة كافة أنواع الأسلحة الموجودة بأفغانستان، بأسمائها و كيفيات استعمالاتها، و جودة كُلِّ نوعٍ منها و محاسِنه و مساوئه، و خصوصا منها الأسلحة الرُّوسية التي كان يغتنمُها المُجاهِدون مِن العدو الرُّوسي، و قد ظهر خطَّاب في كثيرٍ مِن المقاطِع المرئية و هو يستعمِل السلاحَ الرشاش، و الصَّاروخ المحمول على الكتِف، و كذلك القنابل اليدوية، و غير ذلك.

4- إجادة استعمال الآليات العسكرية و الوسائل الإعلامية: فأما الآليات العسكرية مِن سيَّارات و شاحِنات و غيرها فقد كان خطَّاب على إتقانٍ و إجادةٍ لها كلها، و عادةً ما كان يقود إحداها كما يظهر في بعض مقاطِعه المرئية. و أما الوسائل الإعلامية فنجِدُه يحمل الهاتِفَ اللاسِلكي بصفة دائمة لضرورته و أهميته القصوى، و كذلك كان يحرص على توفير آلات التصوير لتوثيق تحرُّكاته و عملياته.

القائد خطاب أثناء قيادته لإحدى الشاحنات

5- النفسية الثابتة: و هذه مِن أهم العوامِل الضرورية التي ينبغي أن يحوزَها المُقاتِل العسكري، و قد كان خطَّاب ذا نفسية قوية لا تتغيَّر بتغيُّر الظروف قَطُّ، في السراء و الضراء، في الحرب و السِّلم، عند النَّصر و عند الانكسار، و كان في ذلك مَرجعًا متينًا لأصحابه إن تغيَّرت نفوسُهم و تبدَّلت، فيرونَه على حالٍ واحِدٍ في شديد الظُّروف و رخاوتها على حدٍّ سواء، فتتقوَّى نُفوسُهم و ترتفِعُ معنوياتهم.

6- احترام القيادات: فالعسكريُّ الذي لا يحترم قيادته سيخسر الكثير، خاصَّةً إذا كان عدمُ احترامه نابِعًا عن تكبُّرٍ أو غُرورٍ أو احتقارٍ لتلك القيادة، و رغم أنَّ خطَّابًا كان قائدًا مرموقَ المكانة، رفيعَ المنزِلة، نافِذَ الكلمة، و يُشار إليه بالبنان، بيد أنَّه لم يغفل عن واجِبه تجاه بقية القادة، و هو مُقابلتهم بالاحترام و التوقير، و قُبول النُّصح و

الإرشاد مِنهم و لو كان يرى عكس ما نُصِح به و أُرشِدَ إليه، و نرى ذلك جليًّا في علاقاته بجوهر دوداييف أو أصلان مسخادوف أو شامل باساييف.

7- **الشحنة الإيمانية المرتفعة:** عبر التاريخ الإسلامي كان الإيمان هو العامِلُ الأكبر في انتصارِ الجيوش الإسلامية المُجاهِدة على أعدائها مهما كان فارِق الإمكانات البشرية و المادية بين الطَّرفين، و في الشيشان كان خطَّاب لِوَحدِه كُتلةً هائلةً مِن الإيمان، و مُفعمًا بالمعنويات العالية التي يدُرُّها عليه ذلك الإيمان، و هذا العامِل (السِّحري) ينفردُ به العسكريُّون المسلمون، فلا وُجود له إلا عندهم. و هنالك أمورٌ عِدَّةٌ تُساهِم في رفع الإيمان لدى المُجاهِدين سنذكُرُ بعضَها في النقطة العاشرة، و كُلُّها تنبثِق مِن أصل التعبُّد لله تعالى.

8- **الصبر على المكاره:** إنَّ الحروب ضد القِوى الكُبرى تتطلَّبُ مُقاتِلين أشِدَّاء ذوي نُفوس فولاذية تتصبَّر أمام كُلِّ ما قد يتعرَّضون له مِن صنوف الأذية و المكارِه، و هذا العنصُر تميَّز به المُجاهِدون في بلاد الأفغان و الشيشان على الخصوص في هذا العصر، و قد ضرب القائد خطَّاب أروع الصُّوَر في ذلك لـمَّا فَقَدَ إصبعين مِن أصابِع يده اليُمنى في طاجيكستان، و لكنَّه عالجها صابِرًا مُحتسِبًا أجرَها عند الله، ثم واصل جِهادَه ضد الرُّوس و واجه كثيرًا الحِصارَ الشَّديد منهم، و تعرَّض مِرارًا للإصابات و الجِراح، و لكنَّه دائمًا ما كان ثابِت الجِنان، قويَّ النفس، فلم يجزع قطُّ و لم يهِن.

9- **الروح الجماعية:** و هذا العنصر المهم لا يظهر إلا بعد أن تبلغ جماعةُ المُقاتلين مبلغًا عاليًا مِن الثقة و المحبة و الأخوة المُتبادلة فيما بينهم، و إلا فكيف يُرجى النَّصر و أفراد الجماعة غيرُ مُتحابِّين و لا متآخين، أو قلوبُ بعضهم تحمل غِلاًّ تجاه البعض الآخر؟! و لطالما كان خطَّاب عارِفًا بوسائل تعزيز روح الجماعة في مُعسكره و نفي الفوارِق العِرقية عن علاقات أفرادها مع بعضهم البعض، و منها أنه كان يُمازِحُهم و يُضاحِكُهم، و يصنع لحظات الطُّرَف و الفُكاهة، و لم يكُن يستعلي

عنهم أو يتكبَّر قيد أنملةٍ، بل كان دائمَ التواضع لهم، و يشكُر مَن أحسن مِنهم عملاً و يُصحِّح للمُخطئ بالهدوء و حُسن الكلمة، و كان يُشارِكهم آلامَهم و مصائبَهم كما يُشارِكُهم أفراحَهم و مباهِجَهم، فكانت روحُ المجموعة الخطَّابية عظيمةً حقًّا.

10- إقامة الشعائر التعبدية لله: قد قُلنا بأنَّ مِن ما أعظم يرفعُ الإيمان لدى المُجاهد - و محلُّه القلبُ- هو حُسن عِبادته اللهَ تعالى بالجوارِح، و قد كان القائد خطَّاب يُظهِرُ عظيمَ العِبادة لله تعالى؛ بالصلاة و الدُّعاء و قراءة القرآن، و إقامة كثيرٍ مِن السُّنن النبوية في ذلك الباب، و تتضاعف مظاهِرُ التعبُّد هذه في شهر رمضان المُبارك في كُلِّ عامٍ، فكان جِهادُ الرَّجل موصولاً بحبل العِبادة المتين مِن السماء، و لا ننسى أنَّ الجِهاد في حدِّ ذاته عِبادةٌ، و أيُّ عِبادة!

11- طلب العلم الشرعي و اكتسابه: عندما أنشأ القائدُ (معهد القوقاز لإعداد الدُّعاة) بعد الحرب الأولى رأى الآثار الباهِرة لهذا المعهد، و لاحظ الفوارِق الكبيرة التي بدَت على المُجاهِدين بعد انقضاء كُلِّ دورةٍ تعليمية، و أدرك أنَّ العِلم الشَّرعي -و على رأسه دراسة القرآن الكريم- سِلاحٌ ضروريٌّ جِدًّا، و مِن آثاره أنَّه يضبِطُ سلوكَ المُجاهِد لئلا يرتكِب الأخطاء و المحظورات مثل قتل مَن لا يجوزُ قتلُه، و يزيدُ جِهادَه -أي جهادَ المُجاهِد- بركةً و قَبولاً لدى الله، و غير ذلك الكثير مِن الآثار العظيمة التي لا تُحصى عددًا، ولا تُحصَرُ كثرةً.

12- التزام الضوابط الشرعية في الحرب: و هذا الالتزام لا يكتمِل و لا يتِمُّ على الوجه المطلوب إلا بعد انخراط العسكري المُجاهِد في برنامجٍ عِلمي-دعوي كالذي ذكرناه في النقطة الفارِطة.. و معلومٌ أنَّ الإسلامَ وضع شُروطًا و ضوابِطَ للحروب، و أوجب على أهله أن يلتزِموا بها و يخضعوا لها، و التاريخُ شاهِدٌ حيٌّ على ما بلغته حُروب المسلمين مِن الرقي الخُلُقي وسط كُلِّ معركةٍ، مع أنَّ المعارِك يسودُها القتل و الجرح و التنكيل و سيلان الدِّماء! و لازال الحاضِر يشهدُ على ذلك؛ فنحن لم

نعرِف -البتة- عن العمليات التي قادها خطَّاب ضد الرُّوس أنه قتل فيها طِفلاً أو امرأةً أو شيخًا كبيرًا مِن غير الـمُقاتِلين، أو أنه غدر و نقض مُعاهدةً ما أبرِمَت، أو أنه أفسد في الأرض و حرَّق و خرَّب مِن دون أن يكون في ذلك ضرورة ما، أو أنه أساء لأسيرٍ واحِدٍ بما لا يجوزُ شرعًا فضلاً عن تعذيبه أو قتله، أو أنه مثل بجُثث الرُّوس الهالِكين، و غير ذلك مما لا يمُت للأخلاق الإسلامية بصِلة.

استراتيجيات حاسمة

و الآن دعونا نتعرَّف على بعضِ أهمِّ الاستراتيجيات التي تبنَّاها القائد سيف الإسلام خطَّاب على المستوى العسكري و السياسي و الإعلامي خلال السنوات السَّبع التي قضاها مُجاهدا ضد الجحافِل الرُّوسية بالشيشان.. و هي استراتيجياتٌ تُثبِت عبقريةَ ذلك الرَّجل و عظيمَ فِكره، و على أنه كان -حقًّا- مدرسةً جِهاديةً كُبرى تمشي على قدمَيْن.

1- عسكريا:

- **انعدام وجود المنشآت الاستراتيجية:** علِمَ خطَّاب بأنَّ مِن أسباب تحقيق النَّصر الملموسة على الجيش الرُّوسي و إرباكِه خُلُوُّ الشيشان مِن أي منشآت حيوية و طاقوية و استراتيجية حسَّاسة، أو مقرَّات ثابتة يستقِرُّ بها المُجاهِدون و قادتُهم، و ذلك بعد أن رأى الرُّوسَ و قد دخلوا حربَهم الثانية باستراتيجيات مُختلفة، و مِنها أنهم صاروا يضربون عن بُعد و يتجنَّبون الاشتباكَ المُباشر مع المُجاهِدين. يقول خطَّاب -رحمه الله- مُوضِّحًا: «عَدَدُ القوَّاتِ الرُّوسِيَّة في داخِلِ جمهُورِية الشِّيشَانِ تضَاعَفَ مِن ٥٠,٠٠٠ إلى ما يقرُبُ مِن ٢٠٠,٠٠٠ جُنْدِي، وَ هَذا العَدَدُ الضَّخْمُ ضِدَّ قُوَّات المُجاهِدين القلِيلَة نِسبيًّا لا شَكَّ أنهُ يَفْرِضُ نَفْسَه في واقِعِ التكتِيكِ المَيْدَاني، و مَعَ هَذا العَدَدِ الكَبِيرِ إلَّا أنَّ القُوَّاتَ الرُّوسِيَّة استَخْدمَت تكتيكَاتٍ كَانَتْ تعتقِدُ أنها سَوْفَ تُنجِيهَا مِنَ الفَشَلِ الَّذي لحِق بها في الحَرْبِ الأولَى، و هو الضَّربُ مِن بُعد كَمَا فعلَتْ قُوَّاتُ الأطلَسِي في يُوغُسْلَافيا، و مُحاولةُ تجنُّب الاشْتِبَاكِ القَرِيبِ مَعَ المُجاهِدِينَ، إلَّا أنَّ هذا التكتِيكَ كَانَ فِيهِ سُوءُ تَقْدِيرٍ؛ فَنَحْنُ لا نُشبِهُ الحكُومَةَ اليُوغُسْلافِية مِن حَيْثُ أننَا نَعْتَمِدُ على مُنْشَآتٍ حَيوِيَّةٍ وَ مَواقِعَ اسْتَرَاتِيجيَّة لإدَارَةِ

الحرْبِ، وَ لَكِنَّنا في الشِّيشَانِ نَعْتَمِدُ -أوَّلاً- عَلَى اللهِ في إدَارَةِ الحرْب، ثم لدينا طُرُقٌ أخرى لا تعتمِدُ على مرافِقَ و لا مُنشآتٍ حيويةٍ أو حَتَّى ترتبِطُ بمُدُنٍ مُعيَّنةٍ، فهذه التَّقدِيرَاتُ الخاطِئةُ التي اعْتَمَدَتْ عَلَيْها القوَّاتُ الرُّوسِيةُ في وَضْعِ خُطَّتِهَا العَسْكَرِية سَبَّبت لها إحْرَاجًا شَدِيدًا، و هي الآن تُقرِّرُ -مُضطرَّةً- استخدامَ أسَالِيبَ حَرْبِ الـمُشَاةِ و الاشْتِبَاك في مَيَادِينِ القِتَالِ، و لهذا بدَأَتْ بتهيئة الرَّأيِ العَامِّ الرُّوسي لاستقبالِ أعدادٍ كبيرةٍ مِن الجنُودِ».. و بعد ذلك اعتُبِرَ خطَّابٌ و أصحابُه نجومًا في سماء ما يُسمى بـ(حُروب العِصابات)، و استحقَّت تحرُّكاتُهم و تنقُّلاتُهم السريعة أن تُدرَس و تُدرَّس، بل إنَّ بعض الخبراء العسكريين الرُّوس شُدِهَ و دُهِشَ لتمكُّن القائد خطَّاب مِن إخفاء مجموعاته في أثناء تحرُّكاتها رغم أنَّ بلاد الشيشان مكشوفةٌ نِسبيا و مفتوحةٌ أمام الآلة العسكرية الرُّوسية!

- **الضرب المفاجئ و المبادرة بالهجوم:** بعد انتهاء الحرب الأولى كان خطَّاب يُدرِكُ على وجه اليقين أنَّ القوات الرُّوسية ما خرجت مِن الشيشان إلا و هي تُفكِّر في العودة إليها مُجددا متى ما سنحت لها الفُرصةُ بذلك، و مِن أجل هذا فقد كان يُعِدُّ العُدَّة لِتعجيل الهجوم على العدو قبل أن يحدُث العكس، ورغم أنَّ توقيت حُدوث الاشتباكات بداغستان قد رآه خطَّاب مُبكِّرا غيرَ مُناسِبٍ عنده، إلا أنَّه في الأخير كان عازِمًا على مُفاجأة الرُّوس بهجومٍ ساحِقٍ ما في تلك الفترة عامَّةً، و قد قال رحمه الله مُوصِيًا: «قاتِل عدُوَّكَ قبل أنْ يَغزُوكَ، فلا ننتظِرْهُ حتى يغْزُونا ثم نصيحُ كما تصيحُ النِّساءُ، بل متى مَا رَأَيْنَا أنه قَدْ همَّ بِنا، فإنْ كَانَ لَنَا قُدرةٌ أوقَفْنَاهُ حَتَّى لا يَتَجرَّأ على بَقِيَّة بِلاد الـمُسلِمِينَ»، و قال أيضا: «إلى مَتَى وَ نَحْنُ الدُّعَاةُ نَجْلِسُ نَنْتظِرُ العَدُوَّ؟! وَ نَعْلمُ أنَّهُ يُجهِّزُ العُدَّة لإبادَتِنَا حَتَّى يَغْزُونَا وَ يُهلِكَنا، فنَقِفَ عَلَى الـمَنَابِرِ نَشْكُو هَتْكَ الأعْرَاضِ، و قَتْلَ الأنفُسِ، و احْتِلَالَ البُلدَانْ؟!».. و قد أدرك الذين اعترضوا على خطَّاب حينما هاجم -هو و شامِل و أصحابُهما- القوات الرُّوسية بداغِستان، و اتهموه بالعجلة و

رمي الشيشان إلى التهلُكة، أدركوا فيما بعد صِحَّة ما ذهب إليه خطَّاب، و أنَّ الرُّوسَ كانوا -فِعلاً- يتربَّصون الدَّوائر و يُبيِّتون النية لغزو الشيشان مُجدَّدًا، و أنَّ مُهاجمتهم قد أحدثت أثرًا سيئا فيهم و أربَكتهم و خلطت حِساباتهم. و الحقيقةُ أنَّ تلك الخطوة الجريئة التي خطاها القائد العربي سيف الإسلام خطَّاب لتُذكِّرُنا بالقائد المملوكي الشهير سيف الدين قطز الذي كان حاكِما على البلاد المصرية بعد سقوط العاصمة العبَّاسية بغداد بأيدي التتار سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م؛ فلقد كان قطز مُتيقِّنا بأنَّ القوات التترية ستُواصِل زحفها نحو باقي بلاد الإسلام غربًا لتُبيد أهلها و تُفسِد فيها الفسادَ العظيم، و لذلك بادر إلى إعلان الحرب على التتار بتقيطعه رؤوسَ رُسُلهم الأربعة إليه، ثم قرَّر الخُروج مِن مصر لمُواجهتهم بفلسطين عوضًا عن انتظار مجيئهم إلى مصر، و هنا اعترض عليه بعضُ الأمراء كما اعتُرِض على خطَّاب تماما، و أرادوه أن يبقى في مصر ليُدافِع عنها و يتجنَّب القتال مع وُحوش التتار، و أن يحقِن الدِّماء و يحفظ الأنفُس و لا يرميهم إلى التهلكة، و لكنَّ القائد قطز تشبَّث بموقفه و أوضح للمُعترِضين دوافِع ذلك القرار الجريء، ثم ما لبِثت الأحداثُ أن بيَّنت صِحة رأي قطز و صوابَه إثر معركة عين جالوت الخالِدة، و لولا تلك الخطوة القُطُزية لاحتلَّ التتارُ جميع الشمال الإفريقي الإسلامي على الأرجح!

- **توسيع رقعة القتال:** معروفٌ أنَّ الشيشان بلادٌ صغيرةٌ جُغرافيًّا و تكاد لا تظهر على خريطة العالم، بينما كانت روسيا الاتحادية واسِعةً و مُترامِيةَ الأطراف، فلما كان القائد خطَّاب عازِمًا على مُهاجمة الرُّوس بعد انقضاء الحرب الأولى بسنة أو ما يزيد، و لمَّا وقعت أحداثُ داغستان و اقتحمها خطَّاب لمُناصرة المُجاهدين هناك، كان مِن أهدافه مِن ذلك أن يوصِلَ داغستان بالشيشان و يربط بينهما، و أن يجعلهما ساحةً قِتاليةً واحِدةً مُوسَّعةً، و هذه الخطوة صعَّبت مهمة الرُّوس و عقَّدتها، فجعلتهم يُقاتِلون على جبهتين اثنتين بدلاً عن جبهة واحدة فقط هي الشيشان؛ و الرُّوسُ لم

يكونوا يُخطِّطون لفتح جبهة قِتالية أخرى، فهم يُدرِكون خطورة ذلك الأمر، و لكنَّ القائد خطَّاب أجبرَهم على ذلك و دفعهم إليه دفعًا. و لا شك أنَّ روسيا كانت تخافُ مِن تكرار سيناريو هزيمتهم قبل ذلك بأكثر مِن مائة عام على يد شامل الداغستاني حينما كانت بلاد القوقاز بأكملها مُوَحَّدة غير مُقسَّمة، خصوصا و أنَّ بعض الصُّحف العالمية -على غِرار صحيفة لوس أنجلس تايمز- أكَّدت أن أكثر ما تخشاه روسيا هو ظُهور قائد مِن طراز الإمام شامل الداغستاني!.. و في الحرب الشيشانية الثانية ظهرت آثارُ اتصال الشيشان بداغستان و توسُّع دائرة القِتال في إطار حدودهما معا، فاشتدَّت الأزمة لدى الرُّوس على المستوى العسكري، و تزايدت احتياجاتُهم لتمويل الحرب و دَعْمِها ماديا و بشريا أكثر مِن أيِّ وقتٍ مضى، و في المُقابل خفَّت -و لو قليلاً- وطأةُ الحرب على المُجاهِدين الذين انضمَّ إليهم المزيدُ مِن المُتطوِّعين الداغستانيين، و صار وضعُهُم أحسن و أفضل بفضل الله.

- استنزاف قدرات العدو: اعتقد الرُّوسُ في بداية حربهم على الشيشان أنَّ كثافة عدد جُنودها و ضخامة ترسانتها العسكرية يفِيان بتحقيق النَّصر و التفوُّق، غير أنَّها مُنِيت بالخسائر و الانهزامات المتوالية على يد المجموعات المُجاهِدة بقيادة خطَّاب و باساييف، خاصة خلال الحرب الثانية التي انتهج فيها المُجاهِدون ما يُسمى بـ(حرب العِصابات) بشكلٍ تامٍّ، و مِن أهم الاستراتيجيات التي طبَّقوها خلال ذلك استنزاف طاقات و قُدُرات القوات الرُّوسية الضخمة، و هذا بتنويع أساليب الهجوم و تكثيفها، و عدم المكوث في مكان واحِد أو إطالته فيه، فنتج عن هذه الاستراتيجية ارتباكُ القادة العسكريين الرُّوس و وُقوعهم في حيرةٍ شديدةٍ، و لم يستطيعوا شلَّ حركة القائد خطَّاب و مَن معه و إيقافهم، بل إنهم قد غرقوا -كما ذكرنا مِرارًا- في مستنقع الخسائر و الهزائم مع استطالة زمن الحرب و امتدادِه، رغم فارِق الإمكانيات البشرية و المادية الهائلة، و رغم سيطرتهم في ذلك الوقت على مُعظم مناطِق البلاد و مُدُنها، و

يُشير القائدُ خطَّاب إلى أمرٍ متعلِّقٍ بتلك الاستراتيجية فيقول: «أَوَدُّ أنْ أبيِّنَ أمرًا يَغْفَلُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِن الـمُطَّلعينَ على الحرب الآن، و هو أنَّ سُقوطَ الـمُدن الشيشانية أو حتى العاصمة لا يُشكِّلُ هزيمةً للـمُجاهِدين، و لا يُشكِّلُ كذلك انتصارًا للقُوات الرُّوسية، بل -في تقديري- أنَّ سُقوطَ الـمُدُنِ في أيدِيهِمْ يُشكِّلُ عِبئًا عَلَيْهِم، فهُم سيُحوِّلُونَ تكتيكاتِهم مِن الـهُجومِ إلى الدِّفَاعِ و الـمُحَافَظةِ على الـمَناطِقِ التي سقطَت، و الـمُتابِعُ لأحداثِ الحرب الأولى يعرِفُ أنَّ سُقُوطَ الـمُدُنِ لم يُشكِّلْ هزيمةً للـمُجاهِدين ولا نَصْرًا لعدوِّهِم، فقد سقطت في الحرب الأولى -تقريبًا- كُلُّ جمهورية الشيشان في أيدي القوَّات الرُّوسية، و مع ذلك لم تستطِعْ الصُّمود أمام قوات الـمُجاهِدين أكثر مِن عشرين شهرًا، لاسيَّما أنَّ وَضْعَ الـمُجاهِدين في هذه الحرب أقوى مِن وَضْعِهِم في السَّابِق، و كذلك وَضْعُ القوات الرُّوسيةِ أضعفُ مِن وَضْعِهِم في السَّابِق.. فمهما كان فإنَّ التقديرات الـمادِّية و العسكرية لا يُمكِنُ أن نعتمِد عليها؛ فنحنُ نعتمِدُ على تقدِيرَاتِ رَبِّ العَالَـمِينَ».

2- سياسيا:

- تجنب استعداء الدول العربية: معلومٌ أنَّ مُعظم الدول العربية اليوم -إن لم يكُن كُلُّها- تسيرُ في فلك النِّظام الدولي وِفق الرؤية الأمريكية الـمُهيمِنة، و ازدادت هذه التبعية العمياء وُضوحًا و جلاءً بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م و شنِّ الحرب العالـمية على كُلِّ مَن رفع رايةَ الجِهاد في ربوع العالم الإسلامي، و حلَّ مصطلح (الإرهاب) مكان (الجِهاد)، أو الأحرى أنَّ الجِهادَ أضحى إرهابًا في نظر الـمجتمع الدّولي الـمنافق، فكانت كثيرٌ مِن الأنظِمةُ العربية جزءً مِن تلك الحرب للأسف الشديد، و إذا كانت الحربُ قد اشتدَّت على أسامة بن لادن و أتباعِه، و هو الذي نُسِبَت إليه بعضُ العمليات التفجيرية في بعض البلاد العربية، فإنَّها كانت أقلَّ شِدَّةً على سيف الإسلام خطَّاب بفضل سياسته الحكيمة بتجنُّب إلحاق أدنى ضَرَرٍ بالأنظِمة العربية إلى الحدِّ

الـمُمكِن، و لم يتعرَّض قَطُّ لـمسألة تكفير مَن على رأس تلك الأنظمة التي لا تحكُم بشرع الله، و لعلَّ هذا هو الذي جعل هذه الأنظمة تتجنَّب -هي الأخرى- إلحاقَ الأذى بالـمُجاهِدين في الشيشان رغم خِذلانها التاريخي لهم، و رفضت مُشاركةَ روسيا حربَها عليهم و معاونتها بأدنى قرار أو خطوة ملموسة، و كان الـمسلمون في بعض البلاد العربية يجمعون مختلف أنواع التبرُّعات لصالح الـمُجاهدين في الشيشان بلا منعٍ مِن الأنظِمة أو تضييقٍ.

- **رفض الحل السلمي:** مِن الحقائق الثابتة التي يؤكِّدُها التاريخُ البشريُّ أنَّ الفصل في النِّزاعات و الخِلافات الكبيرة بين الدُّول دائما ما يكون بمنطق القوة و الهيمنة في الـمقام الأول، و أنَّ الحلول السِّلمية -بالتفاوُض و غيره- عادةً ما يكون مفعولُها مؤقتا غير دائم، و هي لا تُرضي طرفا -أو أطراف- النِّزاع بالكِفاية.. و في هذا العصر تزداد تلك الحقائق وُضوحًا، و قد كان القائد خطَّاب أكثرَ قادة الجِهاد الشيشاني اقتناعًا و تسليمًا بها، و ما كان راضِيا بشيءٍ رِضاهُ بمواصلة الجِهاد و الـمُواجهة الـمُسلَّحة، و عندما سئل عن إمكانية حدوث التفاوُض مع الرُّوس قال حاسِمًا: «لَـمْ نُناقِشْ هَذَا السُّؤالَ أبدًا، و لَيْسَ لدَيْنا وَقْتٌ له، وَ لا يُفكِّرُ الـمُجاهِدُونَ في الـمُفاوَضَاتِ كَمَا قَالَ شَامِل. سَوْفَ يَكُونُ كُلُّ شَيءٍ طِبقًا للشَّرِيعَةِ، و أيُّ شَيءٍ يَكُونُ هَكَذَا سيسْتَقبِلُه الـمُجاهِدُونَ، و أيُّ شيءٍ ضِدَّه لن يُقْبَل، إذا غادَرَتْ جُيوشُهم فَذَلِكَ مُـمْكِنٌ، لَكِنْ بينَمَا تَكُونُ جُيوشُهُم هُنَا -حتى عَلَى مِترٍ واحِدٍ مِن هَذِهِ الأرْضِ- فالحربُ لَنْ تَنْتَهِي». و قال أيضًا: «لقد حاوَلَ القادَةُ الـميدانيُّونَ مِن قَبْلُ حلَّ القضية بِطُرُقٍ الـمُفاوضات طِبقًا لشُرُوطٍ دُوَليةٍ، و النَّتِيجةُ أنَّ الحرْبَ كانَتْ مُستمِرَّةً بشَكْلٍ آخَرَ ضدَّ الشَّعْبِ الشِّيشَاني و شَبَابِ القُوقَازِ الـمُسْلِمِ في داغستان و قرتشاي و أنغوشيا و سائر الجمهوريات، و كما قال أخي شامِل باساييف -حفِظَه الله- أنَّ الجمِيعَ عَلَى قَنَاعَةٍ تَامَّةٍ أنهُ لا يُوجَدُ حَلٌّ إلَّا بتطْبِيقِ الشَّرِيعَةِ الإسْلامِيَّة و مُحاكَمَةِ رُوسْيا و مُجرِمي الحرْبِ فِيهَا

و لَوْ بعدَ حِينٍ».. و كذلك لـمَّـا سئل خطَّاب عن قُدرة الـمُقاوِمين على الصُّمود في الحرب و موعِد نهايتها، قال: «لَوْ لَـمْ تَـكُنْ عِنْدَنَا القُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ لـمَـا دَخَلْنَا دَاغِسْتَانَ لِنَجْدَةِ إِخْوَانِنَا فِي مَنَاطِقِ إِقْلِيمَيْ بُوتْلِيخ وَ كْرَامَاخِي لِقِتَالِ الجَيْشِ الرُّوسِي الـمَرِيضِ، الذِي أَوْقَفَ الحرْبَ فِي سَنَةِ ١٩٩٦م بَعْدَ دُخُولِ الـمُجَاهِدِينَ غرُوزُنِي للمرَّةِ الثَّالِثةِ، و حِصَارِ القوَّاتِ الرُّوسِية فِيهَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَ ضَرْبِ قَوَافِلِهم عِدَّة مرَّاتٍ، وَ هَذَا السُّؤالُ الأَحْرَى أن يُوَجَّه إلى قِيَادَة الجيْشِ الرُّوسي الـمُتهَالِكِ: هَلْ عِنْدهم القُدْرَةُ على مُواصَلَةِ القِتَالِ ضِدَّ الـمُجَاهِدينَ أَمْ لَا؟.. أَمَّا إلى مَتَى هذِه الحرْبُ؛ فَنَحْنُ نَقُولُ: حَتَّى يُبادَ الجيشُ الرُّوسِيُّ فِي القُوقَازِ، وَ مَا ذَلِكَ عَلَى الله بعَزِيزٍ».

- تلافي تدويل القضية الشيشانية: كان خطَّاب أعرفَ قادة الجِهاد الشيشاني و أبصرَهم بحقيقة الـمؤامرة العالـمية على الإسلام و أهله، و أنَّ الهيئات الدولية -و على رأسها هيئة الأمم الـمُتحدة- ما هي إلا وسائل بيد القوة الأمريكية الصليبية الـمُهيمِنة، فإن كان دعمُ قضايا الـمسلمين في مصلحة هذه القوة فمرحبا به، و إن كان غير ذلك فلا مرحبا به. و كَم مِن قضية إسلامية تمَّ حلُّها بغير ما في مصلحة الـمسلمين بسبب الاحتكام إلى قوانين الأمم الـمتحدة، و بعضُها مازالت قائمةً إلى اليوم بلا حلٍّ لأنَّ الغرب لا يُبالي كثيرًا بمصالِح الـمُسلمين، و قد كان خطَّاب شاهِدًا على توقيع اتفاقية (دايتون) التي انتهت على إثرها الحربُ البوسنية -و هي التي ساهم فيها خطَّاب- و خرج مُسلمو البوسنة منها بأقلِّ الـمكاسِب السياسية الـمُستحقَّة.. و لذلك كُلِّه كان -رحمه الله- غيرَ مُقتنعٍ بأيِّ مُحاولةٍ للفصل في القضية الشيشانية داخل أروقة الأمم الـمتحدة بالطُّرُق السلمية الـمعروفة، و إن كان لابُدَّ مِن حلِّها بتلك الصورة فالأَوْلَى أن يكون ذلك تحت إشراف الدول الإسلامية الأكثرَ استقلاليةً و حريةً و الأقلَّ تبعيةً للغرب، لا تحت إشراف الدول الكافِرة الباحِثة عن مصالحها الـمحضة فقط، و قد قال خطَّاب: «الـحَرْبُ ضِدَّ الإِسْلامِ بَدَأَتْ مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ، لَـكِن الآن هِيَ -ببسَاطَةٍ-

حَرْبٌ عَلَنِيةٌ، بالإضَافَةِ إلى ذَلِكَ يُرِيدُونَ أنْ يُدمِّرُوا الإسْلَامَ باستِعْمَالِ أيدِي مُسْلِمَةٍ، و يُسَمُّوننا إرهَابِيِّينَ لِتَبريرِ قَتْلِهِمْ، و يَعْرِفُ العَالَمُ بالكَامِلِ مَنْ الإرهَابِيُّونَ الحقيقيُّونَ، لكنَّ الجميعَ صامِتٌ لأنَّ ذلك في مَصْلَحَتِهِمْ!».

- **توحيد جبهتي الشيشان و داغستان:** و قد ذكرنا هذه الخطوة في جانبها الجِهادي العسكري سابقا، و أما في جانبها السياسي فلم تَقِلَّ أثرًا عن الجانب العسكري، فقد تغيَّرت الكثير مِن القناعات لدى الشعوب القوقازية المسلمة التي قسَّمتها الحدود الجغرافية، و مِن بين تلك القناعات أنَّ قضية الشعب الشيشاني هي قضية تلك الشُّعوب كلها، و أنَّ الإسلامَ -على وجه التحقيق- هو المُستهدَف مِن روسيا لا الشيشان فقط، و أنَّ تهديدَ الشيشان في هويتها و عقيدتها هو تهديدٌ لجيرانها كُلِّهم. و نتيجةً لكُلِّ ذلك تمَّ توحيد الجبهتين الشيشانية و الداغستانية على المستوى السياسي، و تأسَّست (حركة الأمة الإسلامية)، و عُقِدَ مؤتمرٌ مُوَحَّد بالعاصمة الشيشانية غروزني أدَّى لانتخابِ مجلِسٍ لعلماء الشَّرع مِن كِلا البلدَيْن، و الذي نؤكِّدُه أنَّ القائد الميداني في الشيشان سيف الإسلام خطَّاب كان له أثرٌ بالِغٌ في توحيد الشيشان و داغستان، كيف لا و هو أوَّلُ مَن وحَّدهما و وَصَلَهُما و ربط بينهما عبر مُعسكره التدريبي الذي لم يُفرِّق بين عربي و أعجمي، ولا بين شيشاني و داغستاني و طاجيكي و إشكيري و تتاري، فكانت هذه هي اللبنة الأولى و الأساسية التي وضعها خطَّاب. و إذا كان الأمر كما سبق فلا غرابة في أن يخاف الرُّوس و يخشون مِن جهود توحيد الشعوب القوقازية، و قد صرَّح الرئيس الرُّوسي بوريس يلتسن بملئ فيه قائلاً: «إنَّ ما يُثيرُ قَلَقنَا هو العلاقةُ مع الشِّيشانِ، فقد انعقد مؤتمرٌ قوقازِيٌّ أصوليٌّ لتوحِيد شعوب القوقاز»! بل و كتبت صحيفة لوس أنجلس تايمز بالحرف الواحِد: «إنَّ ظُهورَ

الاتجاهات الـمُتطرِّفة في الشيشان يُسبِّبُ مَخاوِف جديدةٍ للـمُعتدِلين[٤٥] بسبب دعوتِـهِا للـمُسلمين في داغستان للانضمـام إلى حركة وحيدةٍ مُوَحَّدةٍ»!!

- **جعل القيادة العسكرية بيد أصحاب الأرض:** عندما قدِمَ خطَّاب إلى الشيشان ناصِرًا لأهلِها ضد العدوان الرُّوسي، سرعان ما نال إعجاب الزعيم الـمُجاهد جوهر دوداييف، و الذي تساءل بصِدق مُشيرًا إلى خطَّاب: «لِـمَـاذَا لَا يَأْتِـي أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ كَثِيـرًا؟!»، و هذا في أوَّلِ لقاءٍ جمع بينهمـا. وما هي إلا بِضعة أسابيع حتى احتلَّ خطَّاب مكانةً مرموقةً بين قادة الجِهاد الشيشاني، و بات يُنظَر إليه نظرةً خاصَّةً، فلمَّـا كانت الحرب الشيشانية الأولى رأى الجميعُ معدنَه النفيس جِدًّا بعد أن أوجع الرُّوسَ بخُطَطِه و عملياته، ثم قامت الحربُ الثانيةُ فكان أثرُ خطَّاب فيها أعظمَ و أخطرَ مِن أثرِه في الحرب الأولى، و وُضِع اسمُه في صدارة قائمة الـمُجاهِدين الـمطلوبين للتصفية لدى الرُّوس، و كان هو الرَّجل الثالث في صفوف الـمقاومة الشيشانية خلف الرئيس أصلان مسخادوف، و تساويًا مع القائد شامل باساييف.. و لكنَّ العجيبَ فِعلاً هو أنَّ القائد خطَّاب -رغم مكانته تلك و أثرِه البليغ في الـمُقاومة- لم يشغَل منصِبًا قياديًّا يليقُ بتلك الـمكانة التي وصل إليها، فالذي يُطالِع مسيرتَه في الشيشان لا يراه إلا أهلاً لكي يكون الـمسؤول القيادي العسكري الأول و الأعلى في الـمُقاومة، و هو أجدرُ القادة الـمُجاهِدين بذلك و أحقُّهم مُطلقًا! و لكنَّ عَجَبَنا يزولُ حين نُدرِك هذه الاستراتيجية الحكيمة التي تبنَّاها الرجلُ؛ ألا و هي جعل القيادة العسكرية العُليا بيد الشيشانيين، فهو يُدرِكُ جيدًا أنَّه لو طالبَ بأن تكون القيادة العليا تلك له -و هو الذي يستحقِّها عن جدارةٍ- لتسبَّب ذلك في زعزعة بيت الـمُقاومة الشيشانية، و

(٤٥) قاعِدة احفظها أخي القارئ: إذا رأيتَ أعداء الإسلام يتلفظون بعبارة (مسلمين معتدلين) أو ما أشبه ذلك، فاعلم أنَّهم يقصِدون بها أولئك الـمسلمين الـمُميَّعين الذين لا يفقهون عقيدة الولاء و البراء، و لا يجِدون حرجًا في موالاة الكافِر الـمُعتدي، و الـمقصود مِن ذلك في كلام تلك الصحيفة الأمريكية هو غُلاة الـمتصوِّفة الشيشانيين الذين كانوا يعملون لصالح روسيا و يخدِمونها ضد الـمُجاهِدين و الـمُقاومة، و كان على رأسهم آنذاك أحمد قديروف، عاملَه الله بعدله.

لأحدَثَ وساوِسَ خطيرةً في صدور بعض الشيشانيين الذين لم يكونوا -إلى حدٍّ ما- قد استوعبوا قُدومَ شخصٍ عربيٍّ غير قوقازيٍّ ليكون قائدًا عليهم و هم أصحابُ الأرض و أبناؤها، و قد كان خطَّاب على دِرايةٍ كامِلةٍ بالحمية و العصبية اللتين كانتا تسودان المجتمع الشيشاني، فآثر -رحمه الله- أن يُجاهِد و يُقاوِم مِن دون أن يلتَفِتَ -قيد أنملةٍ- إلى أحقيته بالقيادة العسكرية، فكان حريصًا غاية الحِرص -كما سبق و أن ذكرنا- على وِحدة صفِّ المقاومة و حمايته مِن حدوث أدنى شِقاق أو نِزاع قد يستغِلُّه العدو الرُّوسي لصالِحه، و كُلُّ ذلك إنما هو نابِعٌ مِن إخلاصه المُطلق الكامِل لله تعالى و للقضية الشيشانية.

3- إعلاميا:

- **توثيق العمليات و الأحداث:** أوْلَى القائد خطَّاب الجانِبَ الإعلامي مِن جِهادِه اهتمامًا كبيرًا وعِنايةً جادَّة، و كان يعتبِرُه نوعًا مِن أنواع الجِهاد الشرعي و وسيلةً مِن وسائله، فكان غالِبًا ما يُصوِّر تحرُّكاته بين المناطِق و عملياته العسكرية ضد الرُّوس، و غايتُه مِن ذلك دَحْضُ الرِّوايات الإعلامية الرُّوسية المغلوطة التي كانت -على سبيل المِثال لا الحصر- تُبالِغ في إحصاء عدد القتلى في صف المُقاومة الشيشانية، و في المُقابل تُقلِّل مِن عدد قتلى القوات الرُّوسية و جرحاها، و ذات الأمر بالنسبة لخسائرها في العتاد و الآليات العسكرية المختلفة، أو أنها كانت تنشر معلومات مغلوطة عن واقِع المُقاومة الشيشانية و رِجالِها، فيأتيها الرَّد بالشرائط الخطَّابية المُصوَّرة ليُفتضَح كذِبُ الإعلام الرُّوسي و تلفيقُه. و قد نُقِل عن خطَّاب قولُه: «إنَّ اللهَ أمرَنَا بمُجَاهَدَةِ الكَافِرِينَ وَ قِتالِهِمْ بِمِثْلِ مَا يُقاتِلُونَنَا بِهِ، وَ هَا هُمْ يُقاتِلُونَنا بالدِّعَايةِ و الإعْلَامِ، لِذَلِكَ فَيَجِبُ عَلَيْنَا أيْضًا مُقَاتلَتُهُمْ بإعْلَامِنَا». و تذكُر المصادِرُ أنَّ الشرائط المُصوَّرة التي وثَّق عبره خطَّاب جزءً كبيرًا مِن مسيرته تبلُغ المئات عددًا، أقلُّها صُوِّر في أفغانستان و طاجيكستان، و أكثرُها صُوِّر في الشيشان.

- الظهور الإعلامي الخارجي: كانت قناة الجزيرة هي الجهة الإعلامية العربية الحكومية الوحيدة التي تناولَت القضيةَ الشيشانية و اهتمَّت بها كما يجِب، و قد حرِصت في بعض الفترات على ربط الاتصال المُباشر بقادة المُقاومة في الشيشان. و في يوم الأربعاء ٠٥/ ٠٧/ ٢٠٠٠م جرى اتصالٌ على المُباشِر مِن قِبَل القناة مع القائد خطَّاب الذي حرص على الظُّهور التلفزي رغم خطورة الأمر؛ لأنَّ احتمالية رصد الاستخبارات الرُّوسية لخط الاتصال و تعقُّبِه كانت قائمةً، فكانت مُدة الاتصال تزيد عن عشرين دقيقة مِن تقديم الإعلامي القدير المشهور أحمد منصور، و قد أجاب خطَّاب عن أسئلة أحمد كُلِّها، و صحَّح بعض المُغالطات الشائعة في ذلك الحين، و ذكر حقيقة الوضع آنذاك حول المُقاومة و القوات الرُّوسية على السواء. و قبلها بأسابيع قليلةٍ كانت الجزيرةُ قد أجرت مُقابلةً -للمرة الأولى- مع خطَّاب داخِل الشِّيشان، فبثَّتها على شاشتها كامِلةً، و كان مُحاوِرُه فيها هو المُراسِل الإعلامي السُّوري أكرم حزام.

- إنشاء المواقع و المنتديات الالكترونية: عرفت فترة الحرب الشيشانية الثانية بُروزَ بعض المواقِع و المنتديات الالكترونية النَّشِطة على الشبكة العنكبوتية؛ مثل موقع (صوت القوقاز) الذي كان لِسانَ حالِ المُقاومة الشيشانية باللغة العربية، و موقع (الجِهاد أون لاين)، و موقع (وا إسلاماه)، و موقع (مفكرة الإسلام)، و كُلُّها كانت بديلاً قويًّا عن القنوات الفضائية العربية -الخاذِلة للقضية الشيشانية- بنقلها لأحداث القضية و أخبارها المُتجدِّدة ساعةً بساعة، و إظهارِها بطولات المُجاهدين و عملياتهم للمُسلمين الزَّائرين لها، و كذلك كان بعضُ العلماء -على غِرار الشيخ المُجاهِد يوسف العُيري- يكتبون الدِّراسات الشَّرعية و يُزوِّدون بها موقِعَ صوت القوقاز لتصِلَ إلى قادة المُجاهِدين في الأخير، و على رأسهم القائد خطَّاب. و مِن جانب آخر إذا علِمنا أنَّ موقع صوت القوقاز تم إنشاؤه مِن داخل أرض الشيشان على

أيدي بعض رِفاق خطَّاب الذين كانوا يحترِفون التصميم الالكتروني و يُجيدونَه إجادةً فائقةً، فإننا لا نعلم شيئا عن باقي المواقِع المذكورة سِوى اهتمامِها الشديد بالقضية الشيشانية و رِجالها، و لعلَّها هي الأخرى قد أنشِئت داخل الشيشان، و الله أعلم.

الوصايا التسع

بعد استشهاد القائد خطَّاب كشف أخوه (منصور بن صالح السويلم) عن وصية عامَّة كتبها و تركها القائدُ تحتوي على تِسع وصايا خاصَّة في الشأن الجِهادي العام، و ها نحن نوردُ جميعَها مع التحليل البسيط لكُلِّ واحدة مِنها على حِدة:

1- الذي لا تكسبه صديقا لا تكسبه عدوا: و هذا ضَبطٌ مهمٌّ تفطَّن له القائد خطَّاب رحمه الله و تبنَّاه في مسيرته، فلقد كان كثيرٌ مِن الطُّغاة عبر التاريخ لا يؤمِنون إلا بمنطِق: (إذا لم تكُن صديقي فأنت عدوي!)، مثل طاغِيَتَيْ التتار: جنكيز خان و حفيده هولاكو في الماضي، و مثل طُغاة أمريكا في الحاضِر، بل إنَّ مقصودَ هؤلاء الطُّغاة مِن كلمة (صديق) غالِبا ما يُراد به التَّابِعُ المُستعبَد لا الحليف المُستقِل!.. و لكن في حالة عظماء الإسلام فالأمرُ مختلِف تماما، فنحن أمة الحق و العدل التي تعدِل مع الكافِر كما تعدل مع المؤمن، و لا تغدِر بمن غدر بها، و لا تجحد فضائلَ مَن جحد فضائلَها، و هذا أمرٌ ربَّاني إلهي قبل أن يكون سياسةً أو جريًا وراء مصلحةٍ أو ما أشبه ذلك. وقد كان خطَّاب يُدرِكُ أنَّ خِذلانَ الأنظِمة العربية -مثلاً- للجِهاد الشيشاني لا يعني أن يتخِذها عدوا ينبغي مُحاربته كما تُحارب روسيا، بل ينبغي العدل و التوازُن و الاعتدال في كُلِّ وقت و حين؛ فمن حاربه يجِبُ مُحاربته، و مَن لم يُحارِبه فلا أقلَّ مِن أن يُحفظَ السِّلْمَ معه، و مَن أعانه و أيَّده فجزاؤه عند الله و أجرُه عليه، و تجِبُ له كلمةُ الشُّكر و الاعترافُ بالفضل.

2- عدم التدخل في القضايا الداخلية للناس: فهذا أمْرٌ مُهِمٌّ جِدًّا، و تزدادُ أهميتُه حينما يكون هنالك جِهادٌ و مُقاومةٌ و عملٌ حاسِمٌ مثل ما كان في الشيشان، و لطالما حذَّر خطَّاب أصحابَه و أبناء مُعسكره مِن التدخُّل في شؤون الآخرين و قضاياهم

الداخلية؛ لأنَّ ذلك مِن شأنه أن يُدخِلَ الـمُجاهدين في بحرٍ مِن الـمشاكِل هُم في غِنًى عنها خلال تلك الفترة الحسَّاسة، و يجعلَ تركيزَهم يتشتَّت و يضيع في غير ما طائل. على أنَّ ذلك ليس محصورًا في الإطار الفردي فحسب، بل هو مبدأٌ مِن مبادئ أكثرِ الدُّول الـمُعاصِرة التي تُحاوِلُ كُلُّ واحدة منها جاهِدةً تجنُّب التدخُّل في دولة ما أخرى، و تُستثنى منها الدُّول الطَّاغية التي لها نُفوذٌ واسِع في العالم اليوم؛ فتجدِهُا -انطلاقًا مِن نفوذِها- تتدخَّل في شؤون الدُّول الضعيفة التَّابِعة لها للأسف.

3- القتال دائما مع الكفر البواح: لعلَّ مِن أسوأ و أخطر ما تعرَّض له الـمسلمون في بعضِ دول الإسلام اليوم هو ظُهور أفراد كُـثُرٍ غلَوْا في مسألة التكفير، و جعلوا مُصيبةَ تحييد شريعة الله عن الـحُكم مِن قِبَل أكثرِ الأنظمة العربية الـمُعاصِرة قاعِدةً بنوا عليها فِكْرَهُم التكفيري الخطير بلا حق، و وضعوا طوائف واسِعةً مِن الـمُسلمين في خانة التكفير عن جهلٍ و غُلو، فسُفِكت الدِّماء الـمسلمة جراء ذلك، و انتُهِكت الأعراض، و أطلَّت فتنةٌ عظيمةٌ بقرنَيْهَا على بعض بلاد الإسلام مثل الجزائر و سوريا الشام.. و لكن بالنسبة للقائد خطَّاب فالأمر يختلف، و هو الذي كان على صِلةٍ وثيقةٍ ببعض كِبار علماء الإسلام الثقات على غِرار ابن باز و ابن عثيمين، و لذلك نجده يُفرِّقُ بين حربِ دولةٍ عادِيةٍ و كافِرةٍ الكُفرَ البواح مثل روسيا، نِظامًا و شعبًا، و بين دولةٍ مُسلمةٍ في أصلِها لكن يحكُمُها -جَبْرًا- عُملاءٌ يسيرون في فلك النِّظام الدُّولي و يَرَون في التحكيم الكامِل للشريعة خطرًا على وُجودِهم و مصالِح أسيادِهم، و لذلك فكُفر أولئك العملاء الـحُكَّام و عمالتهم للأعداء لا يعني -لدى خطَّاب- بالضرورة أن يُقاتَلوا و يُرفَع السِّلاحُ ضِدَّهم في هذه الفترة الصعبة، و هذه مسألةٌ شرعيةٌ شائكةٌ -إلى حدٍّ ما- لا يفصِلُ فيها إلا آحادُ العلماء الفقهاء باعتبار قاعِدة تحقُّق الـمَصالِح و درأ الـمَفاسِد، والله تعالى أعلم.

4- لا تُقدِم الجهاد في مكان إلا إذا تبناه أهله: أي لا تفعل ذلك في بلدٍ مسلمٍ ما -و لو كانت أسبابُه قائمةً- مادام أصحابُ ذلك البلد لم يتبنَّوه و لم يحملوا رايتَه، خصوصا إذا كان هذا البلد غيرَ بلدك الأصلي الذي تعرِفُه حقَّ المعرِفة، فلو أنَّك أقمتَ الجِهادَ وحدَك أو مع طائفةٍ صغيرةٍ في ذاك البلد لظهرت مفسدةٌ -على الأرجح- هي أخطرُ و أكبرُ مِن تلك المفسدة التي لأجلها قامت أسبابُ الجِهاد الشرعي، فأنت هنا لست مُكلَّفا أصلاً بإقامة الجِهاد. و كي يتَّضِحَ الأمرُ فلنضرِب مثالا عنه؛ فتصوَّر أنَّ بلدًا مسلمًا يبلغ عددُ المسلمين فيه مائة ألف مسلم، ثم احتلَّ هذا البلدَ عدوٌّ كافِرٌ لا يُشَكُّ في كُفره، فضلاً عن عدوانه، فإذا رأيتَ أنَّ أكثرَ أصحابِ ذلك البلد أو رِجال الحل و العقد فيه -مِن علماء و عسكريين و سياسيين- قد أعلنوا قيامَ الجِهاد ضد العدو، وزادوا على ذلك إعلانَهم الاحتياج إلى غيرهم مِن أهل الإسلام، فهنا لك أن تنصُرهم و تُشارِكَهم جِهادَهم، و لكن إذا رأيتَهم قد سكنوا و لم يُقيموا الجِهاد و لم يتبنَّوه، فأنت لستَ مُكلَّفا في هذه الحال بأن تُقيمَه وحدَك، و الله أعلم.. و لذلك لم نجِدُ القائدَ خطَّاب مُفجِّرًا للحرب الشيشانية الثانية مِن داغستان إلا بعد أن رأى أهلَ هذا البلد قد تهيَّأوا نفسيًّا و أعدُّوا عسكريًّا -إلى حدٍّ ما- لقتال روسيا و طَرْدِها مِن على أرضهم، فكان له هنا أن يُوحِّد داغستان مع أختها الشيشان ليتلاحَم الشعبان و يتَّحد جِهادُهُما.

5- استشارة العلماء الأفاضل و أهل الحكمة و الخبرة بشكل دائم، و الابتعاد عن الاجتهاد الشخصي قبل أي عمل: و هذا مِصداق قول الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]، وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنهُمْ لَعَلِمَه الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَه مِنْهُمْ﴾ [النساء/ ٨٣]، فالجِهادُ ليس مجرَّد خوضٍ للمعارك و اقتتالٍ مع العدو، بل هو -قبل ذلك- شعيرةٌ دينيةٌ عظيمةٌ، و فريضةٌ واجِبةٌ على الدَّوامِ لنُصرة الدين و إقامة شرع ربِّ العالمين و القضاء على طُغيان المجرمين، و لذلك فهو مُحاطٌ بسياجٍ مِن الضوابِط و الشُّروط لا يُحيطُ بها إلا أهلُ العلم، و لن تجِدَ في التاريخ حركةً جِهاديةً كان لها أثرٌ ما في واقِع الأمة إلا و قد كان علماءُ الشَّرع هم ركيزتُها الأساسية و قوتُها الدَّافِعة، و مِن

هنا تأتي ضرورةُ استشارة القادة الـمُجاهِدين للعُلمـاء في كُلِّ صغيرةٍ و كبيرةٍ، و هذه الاستشارة لا تعني أن يكون القرار بيد العلمـاء وحدهم دون القادة، و إنمـا هي مِن باب تحقيق التكامُل في الحركة الجِهادية بين الجانب العسكري و الجانب الشَّرعي؛ فالقائد يقودُ و يُخطِّطُ بفِكره العسكري، و العالِـمُ يُصوِّب و يُقيمُ بعِلمه الشَّرعي، و لا يحدُث الخللُ في أحد الطَّرفين إلا و تتضرَّرُ الحركةُ الجِهادية بقدر ذلك الخلل، و يضيعُ التوازُن بينهمـا.. و أما القائد العسكري -و قبله السياسي- الذين يستبِدُّ بالرأي و لا يلتفِتُ كثيرًا إلى العلمـاء الرَّبانيين قبل كُلِّ قرار أو إجراء، أو يجعلهم تبعًا لهواه؛ فيقبل مِنهم القولَ الذي يُوافِقُه هواه، و ينبذُ القولَ الذي يُخالِفُه، فذلك يجعله مِن الخاسِرين كثيرًا، و سيبتعِد عنه التوفيقُ و السَّداد، و يتيهُ بعيدًا عن الحق و الـهُدى، و لن يحصُل له الـمجدُ و النجاحُ إلا باستشارته للعلمـاء الرَّبانيين و استنصاحِهم. و قد جاء في الآية الأولى بعد السبعين مِن سورة النساء قولُه تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكُم فانفروا ثُبَاتًا أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء:٧١]. قال العلَّامة عبد العزيز الطريفي في تفسيره أحكامَ تلك الآية: «وفي هَذَا دليلٌ على وُجُوبِ حِراسةِ الشَّرِيعَةِ مِن داخِلها بالعُلَمـاء؛ كوُجُوب حِمايتِهَا مِن خارِجِهَا بالـمُجَاهِدين، فلِوَسَطِ بُلْدانِ الـمُسلِمِينَ ثُغورٌ في عَقَائِدِهِم و دينِهِم يجِبُ أن تُحمْى، كمَـا في أطْرَافِها مِن ثغورِ الرِّباطِ و الـمُجاهَدَةِ للأعداء، و بِحِمَـايتِهَا تُحمَى الأمَّةُ؛ مِن داخِلِها: بالعِلمِ و الأمْرِ بالـمعروفِ و النَّهي عن الـمُنكَر، و مِن خارِجِها بالجِهاد و السِّلاحِ، فيُحْمَى دِينُها و عِرضُها و دَمُها و مالُـها و أرضُها»[٤٦].

6- اقرأ عدوك و لا تستهن به، و اختبر رد فعله أولا: مِن أبرز عوامِل تحقيق النَّصر الضرورية في الـجِهاد أن يُدرَس العدو جيِّدا مِن كافة الجوانب السياسية و العسكرية و الاقتصادية، و أن يُعلَم عنه أكبرُ قدرٍ مِن الـمعلومات و الأخبار، و أن تُعرَف لُغته و

(٤٦) التفسير و البيان؛ عبد العزيز الطريفي (٢/ ٨٧١).

أساليب تفكيره و طرائق تعامُله مع مختلف الكيانات و الدُّول، فإذا كانت دولةٌ كبيرةٌ مثل روسيا صعبةُ المِراس و التعامُل، و عسيرٌ أن تُحارَب مِن قِبَل دولة أخرى و لو كانت تُساويها في الإمكانيات و المادية و البشرية، و أنَّ قراءتها و استجلاب المعلومات عنها ضرورةٌ قصوى لدى تلك الدولة الأخرى، فما بالُك بجماعةٍ جِهاديةٌ أغلبُها مِن الشباب المُتطوِّع، و لا تملِكُ في رصيدِها إلا قليلاً مِن الخِبرة و التجربة، و لا تحوزُ إلا على أقلِّ الإمكانيات المادية و البشرية، و ليس لها حليفٌ واحِدٌ يدعمها و يؤيِّدُها و يُموِّلُها؟! و هذا ما يوجِبُ بذل أقصى المجهودات في سبيل البحث عن سُبُل التفوُّق على العدو.. و كذلك فإنَّ اختبار ردَّ فِعل ذلك العدو مِن الضَّروريات هو الآخر، فإنَّه لو تلقَّى ضربةً عسكريةً قويةً مِن قِبَل المُجاهدين كلَّفته خسائر كبيرة في العتاد و عدد الجنود، فإنَّ ردَّه على هذه الضربة سيعكِس حالةَ نفسيته و طريقةَ تفكيرِه بصورةٍ واضِحةٍ، مما سيُتيحُ للمُجاهِدين فُرصة دراسته بمنتهى الدِقَّة، و مِن ثمة تتمُّ خطواتُهم و عملياتُهم التالية بناءً على تلك الدراسة، فتُحِقِّقُ النجاح المطلوب و الهدف الاستراتيجي المُخطَّط له.

7- استخدم عنصر المفاجأة، و استغل نقاط ضعف عدوك: و لعلَّنا نستبينُ أهمية عنصر المفاجأة هذا مِن حديث النبي ﷺ: «الْحَرْبُ خَدْعَةٌ» (٤٧)، و مِنه جوازُ استعمال الخِداع و المكر و الحيلة لإلحاق الضرر بالعدو، على أنَّ الأمرَ ليس على إطلاقِه؛ لأنَّ ذلك سيكون غيرَ جائزٍ إذا ما أدَّى إلى نقض عهدٍ أو اتفاقٍ ما أبرِمَ و عُقِدَ. و مهما يكُن؛ قد أدرك كِبارُ العسكريين في التاريخ منذ القديم أهمية ذلك العنصر، و أثرُه في إرباك العدو، و إحداث الصَّدمة بين صفوفه، و خلطِ أوراقه، و إبطال خُطَطِه، و بالتالي تحقيق الانتصار عليه، و هذا ما فعله خطَّاب و باساييف و مَن معهما حينما فاجأوا روسيا بتفجير الحرب الثانية و شنِّ الهجمات المتتالية على قُواتها في داغستان

(٤٧) صحيح البخاري (٣٠٣٠)، صحيح مسلم (١٧٣٩).

ثم في الشيشان.. و أما استغلالُ نِقاط ضعفه فهو ضروريٌّ لا غِنى عنه في أيِّ حرب تُخاض، و لابُدَّ مِن وُجود نقاط الضُّعف تلك -قلَّت أم كَثُرَت- لدى أيِّ جيش مهما بلغت قوته، و كُلُّ قائد عسكريٍّ أوتي قدرًا مُعتبرًا مِن الذَّكاء يُمكنه إدراكُها ثم ضربُ العدو مِن خلالِها.

8- استعن بأهل الكفاءة ثم الأصدقاء بعد الإعداد المتقن: بعد كُلِّ تجهيزٍ و إعدادٍ لعمليةٍ ما يصِلُ القائدُ إلى مرحلة انتقاء ذوي الكفاءة و القُدرة على أداء مهمَّتهم على الوجه الذي ينبغي، و عنصر الكفاءة مشروطٌ لأنَّه لو غاب و لم يُسْتَوْفى لكانت احتماليةُ نجاح المهمة ضئيلةً جِدًّا، بل هو مشروطٌ في كُلِّ المجالات العملية و ليس في الجهاد فقط، و أهلُ الكفاءة هم أساسُ نجاح كُلِّ عمل، كما أنَّ الذين لا يتمتَّعون بها هُم أساسُ الفشل دائما.

9- الابتعاد عن الحزب و نبذ الفرقة، و اتباع السنة، و البعد عن الترف، و العمل لنصرة هذا الدين: فأما التحزُّب فهو مِن أخطر الأدواء التي أصابت أمتنا كلها في هذا العصر و تسبَّبت في تقهقُرِنا، و بُعدِنا عن النَّصر الإلهي، و حدوث الشَّلل في حركتنا و مَسيرتنا، و لطالما استغلَّ أعداؤنا فُرقتنا لصالِحهم أكثر مِن أيِّ شيء آخر.. و أما السُّنة فإنَّ في اتِّباعها و التمسُّك بها النجاةُ و العِزة و العلو، و في نبذِها و البُعد عنها الهلاكُ و الذِلة و الانحطاطُ، و كُلُّ ما خالفها إنما هو مِن أمر الجاهِلية، و هو نذيرُ شؤمٍ على الأمة و واقِعها.. و أما التَّرفُ فهو مُخدِّرٌ خطيرٌ يُخدِّرُ المسلمين و يُلقيهم في وادي السُّبات، و يُغرِقُهم في مستنقع الشهوات و الملذات الدنيوية الزائلة، و يُبعِدُهم عن أسباب النهضة و الارتقاء بأمتهم إلى قمة السيادة و القيادة العالمية، فيبيتون على هامِش الواقِع بعيدين كُلَّ البُعد عن واجِبِ تأدية رسالتهم الخالِدة، و نُصرة دينهم الحنيف بالجِهاد و الدعوة و غيرهما مِن سُبُل النُّصرة، و إنا لله و إنا إليه راجِعون.

فرحمة الله على أسد الشيشان و ناصِر قضيتها سيف الإسلام خطَّاب، و تقبَّله عنده في الأنبياء و الصديقين و الشُّهداء والصالِحين، و بعث في الأمة مَن هو خيرٌ منه عملاً و نُصرةً للدين و الأمة، إنه وليُّ ذلك و مولاه.

في معسكر فيدنو

ذكرنا في ما سبق أنَّ القائد خطَّاب طلب مِن الشيخ فتحي منحَه خريطةً ليُحدِّد عليا موقِع مُعسكره التدريبي، فأنشأه بعدها بمنطقة فيدنو الجبلية جنوب العاصمة الشيشانية غروزني، و على الحدود مع داغستان، و كان ذلك مباشرةً عَقِبَ قُدومه إلى الشيشان في ربيع ١٩٩٥م.

كان أوَّلُ ما حدث داخل معسكر فيدنو هو أنَّ جميعَ الفوارِق العِرقية و الجغرافية بين عناصرَه البشرية قد انصهر في بوتقة الجِهاد الإسلامي؛ فقد قدِم إلى فيدنو مُجاهدون و مُتطوِّعون مِن العرب و العجم؛ مِن الحجاز و نجد و اليمن و العراق و الشام و المغرب و السودان، و مِن بلاد المالايو و الأفغان و التركستان الكبرى و غيرها، و اجتمع جمعُهُم على أساس الدِّين الأوحد، ثم جعل القائد خطَّاب منهم كتلةً بشريةً متينةً لا يقسِّمُها الأصلُ العِرقيُّ أو حدودُ سايكس-بيكو، و لا تُفرِّقُها النِّزاعات و الأهواء، فكانت يداً واحِدةً ضرب اللهُ بها طواغيت روسيا و صناديدها.. و بعد أن اطمأنَّ القائدُ إلى اجتماع المُجاهدين في المعسكر و انعقاد روابِط الوِحدة بينهم راح يقودُ سَيْرَ مجموعته على برنامجٍ تدريبيٍّ متينٍ؛ يقومُ على عِدَّة قواعِد خُلُقية، و ضوابط سلوكية، إضافةً إلى التشديد على القيام بجملةٍ مِن الأعمال التعبُّدية و الإيمانية الضرورية بصفة يومية.. و يُمكننا إيجاز الحديث عن كُلِّ ذلك في النقاط التالية:

1- التزام الطاعة و تنفيذ الأوامر القيادية: و هذا هو الأساس الذي بُني عليه البرنامج التدريبي الخطَّابي، و قد كان القائدُ حازِما و صارِما في هذا الأمر غير متهاوِنٍ ولا ليِّنٍ، و مَن خالف أوامِره العسكرية أو عصاها عِنادًا فمصيرُه الطَّردُ مِن المعسكر غالِبًا، و مِن الشواهِد على ذلك ما ذكرناه سابقا بأنّه رحمه الله قام بطرد حوال ٣٠

شخصا شيشانيا مِن أصل ٩٠ أو أكثر إثر تضامُنهم مع بعض أصحابِهم الذين طُرِدوا ابتداءً، و قد أسلفنا القولَ بأنَّ لدى الشيشانين حميةً كبيرةً لبعضهم البعض، خصوصا و أنَّهم تـحت قيادة عربية لا شيشانية.

2- أداء الصلوات الخمس في أوقاتها: كان أوَّلُ ما ألزمَ به خطَّاب رِجالَ معسكره بعد إنشائه مُباشرةً أن يؤدوا الصلوات الخمس اليومية في أوقاتها الـمعلومة، و هذا أمرٌ لا شك في وُجوبه و ضرورته، فالصلاةُ هي رُكن الإسلام الثاني و عِمادُه، و هي أول ما يُحاسَب عليه الـمُسلمُ بعد الـممـات، و إذا ضيَّع صلاتَه في دُنياه كان أضيعَ لِـمَـا دونها مِن الأركان و الفرائض، فضلاً عن السُّنن و النوافِل. و إنَّ أثر الصلاة يزدادُ في الجماعة الـمُجاهدة في سبيل الله، و أفرادُها -أي الجماعة الـمُجاهدة- هم أحوجُ إلى الحِفاظ على علاقتهم بربِّهم في أوجِها، و على روحهم الإيمانية في قمتها، و على معنوياتهم في أقصى ارتفاعها.

3- حفظ و قراءة القرآن: كان واجِبا على تلاميذ مدرسة خطَّاب الـجِهادية أن يقرأوا قدرًا مِن القرآن الكريم في كُلِّ يوم، و ذات الشأن بالنسبة للحِفظ. و القرآن له مفعولٌ عجيبٌ غيرُ ملموسٍ على النفس البشرية؛ فهو يملؤها سعادةً و طمأنينةً و لو كانت مُحاطةً بعوامِل الكآبة و القلق، و يملؤها تفاؤلا و استبشارًا و لو كانت ترزأ تحت نير الحروب و الـمآسي.

4- صوم رمضان: و هو الرُّكن الرابع مِن أركان الإسلام، و إذا كان الصَّومُ -على وجه العموم- له قُدرةٌ عجيبةٌ على تهذيب النَّفس و تنقيتها و كَبْحِ جِـماح شهواتها و أهوائها، فما بالُك به -على وجه الـخُصوص- إذا كان في شهرٍ كامِلٍ! و إنَّ الـمُجاهِدين ليتذوَّقون حلاوة الصِّيام تذوُّقا خلال جِهادهم و رِباطهم.

5- التدريب و الاستعداد الدائم للمعارك: و إلى جانب التدريب الرُّوحي و الإيماني.. اجتهد القائد خطَّاب منذ البداية في تربية رِجال مُعسكره على أصعب أنواع التدريب العسكري و أشدِّها، خصوصا وسط الجو البارِد الذي تشتهِر به منطقةُ القوقاز كُلها، و كُلَّما زاد ارتفاعُ الأرض مُقارنةً بسطح الماء زادت درجةُ البرودة، و هذا يعني أنَّ خطَّاب و أصحابُه المُتمركِزين في جبال فيدنو كانوا يتدرَّبون في أكبر درجة برودة كانت تعرفها القوقاز يومئذ، و هي عِدة أرقام تحت الصِّفر!.. على أنَّ كُره الشباب لبرنامج خطَّاب و استصعابُهم إياه في بادئ الأمر سُرعان ما اختفى، فقد تأقلموا معه و اعتادوا عليه مع مُرور الأسابيع، و لذلك فلا عجب أن يتخرَّج منهم العشرات الذين أصبحوا فيما بعدُ قادةَ المجموعات الشيشانية المُجاهِدة في مناطِق البلاد الأخرى، و التي لطالما أوجعت القوات الرُّوسية و دوَّختها، ولا شكَّ أنَّ أولئك القادة هم مِن حسنات القائد الحكيم العملاق سيف الإسلام خطَّاب.

6- الانعزال عن مواقع التجمعات السكانية الحضرية: منع القائد خطَّاب رِجالَ مجموعته مِن النُّزول إلى المناطِق الحَضَرية و الذهاب إلى مواقع تجمُّع الناس و اختلاط بعضهم ببعض، و على رأسها الأسواق؛ فقد كان خطَّاب يخشى -إن تواجد عددٌ كبيرٌ مِن مجموعته في أحدها- أن يتعرَّضوا لأذى المُنافقين و غُلاة الصوفية هناك، و أن يتشاجروا معه و يتضاربوا و تُثار المشاكِل معهم، و خطَّاب نفسه يذكُر أنَّه ما دخل العاصمة غروزني -و فيها تقع المقرَّات الحكومة- إلا مرةً واحِدة على مضض؛ و ذلك إثر إقامة حفل تكريمٍ خاصٍّ لقادة المقاومة بعد انتهاء الحرب الأولى، و أما غير تلك المرَّة فلم يُغادِر مُعسكره إلا للجهاد و شنِّ العمليات العسكرية ضد العدو، و ذات الأمر بالنسبة لباقي المجموعة، و لذلك نجِده يكتفي بتكليف رجلٍ أو اثنين فقط مِن المُجاهِدين إلى السوق لقضاء حوائج البقية و شراء ما يلزمُهم و يُعينهم على جِهادهم و رِباطهم.

7- تجنب الجدال حول العقائد و المناهج: حذَّر خطَّاب مجموعته مِن الخوض في الـمسائل العقدية و الـمنهجية، و إثارة الجدل و النقاش حولها، رغم أنَّه كان يُدرِك ما يشوب عقيدة بعض الـمُجاهِدين الأعاجِم مِن الشركيات و الشَّطحات، و ما يعتقدونه مِن بِدَع و مُحدثات في دينهم لم ينزِّل الله بها مِن سلطان، و لكنَّه كان يُدرك -مِن جهة أخرى- ضرورة ترتيب الأولويات؛ فإنَّ تصحيح عقيدة أولئك الـمُجاهِدين له مكانُه الخاص و ظرفُه الـمُناسب، و أما أن يقع الجِدال الفوضوي و يظهر بينهم التعصُّب فهذا سيخلق فرصةً للشيطان كي ينفث العداوة و الشحناء بينهم، و سيُخِلُّ بمتانة الصف و تـماسُكه و وِحدته، و بالتالي فسيستغل الرُّوس و الـمُنافقون ذلك لصالـحهم، و لذلك نجِد القائد يقول لهم: «أَنتُمْ مَسْؤُولُونَ أمامَ الله بِالشَّيْءِ الَّذِي تَعْتقِدُونَ بِه، وَ أنا الَّذِي يهُمُّني أنْ تُصَلِّي خَـمْسَ مرَّاتٍ في اليَوْمِ، وَ تَصُومَ شَهْرَ رَمَضَانٍ، وَ حِفْظِ وَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ، وَ العَمَلِ وَ التدْرِيبِ لِلْمَعْرَكَةِ.. هَذَا أهَمُّ شَيْءٍ عِنْدِي في البَرْنَامَجِ»، و هذا كان في بداية نشأة الـمعسكر.

هذا؛ و قد كانت مدة كُلِّ دورة تدريبية في معسكر القائد خطَّاب ٢٥ يوما، ثم تُستأنَف دورةٌ أخرى، و هكذا حتى انتهاء الحرب الأولى.

و تعزيزًا لبرنامـجه التدريبي الـمتين؛ أنشأ القائد خطَّاب (معهد القوقاز للدَّعوة و إعداد الدُّعاة) بعد انقضاء الحرب الأولى، و مِن الـمؤسف أننا لا نحوز القدرَ الكافي مِن الـمعلومات التفصيلية حول ذلك الـمعهد سِوى ما في كتاب (تجربة الأنصار العرب)، و هي معلومات لا تُـمكِّـنُنا مِن إدراك الحجم الحقيقي لذلك الـمعهد، رغم تيقُّننا مِن كِبَـرِه و عِظَم أثره على الـمُقاومة.

و لقد كان الـمَعهدُ يُنظِّم دورات تدريبية و تعليمية مُتتابعة، و كُـلُّ دورةٍ فيها ٤٠٠ مِن الشباب الوافِدين الـجُدُد، و هو عددٌ كبيرٌ لا شك؛ فقد ذاع صيتُ القائد خطَّاب و

اشتهر اشتهارًا عظيمًا في مختلف الرُّبوع القوقازية، و بلغ النَّاس أخبارُه، و عرفوا مجهوداته الكبيرة و دورَه في دحر الرُّوس، فأقبل الشَّبابُ مِنهم بالمئات قاصِدين المُعسكر الخطَّابي، و هذا ما أقلق الرُّوس كثيرًا و أرعبهم، فزاد إصرارُهم على التخلُّص من القائد بعد ذلك.. و مِما أنشِئ في ذلك المعهد دارٌ لتحفيظ القرآن الكريم؛ فزاد عددُ المُجاهِدين الحافِظين لكتاب الله كلِّه، أو الحافِظين لأجزاء كبيرة منه على الأقل. و كذلك أقام خطَّاب و مَن معه مِن القادة في المعسكر برنامجًا خاصًّا لإعداد الدُّعاة، ثم دورات لرفع المستوى فيه، و أقاموا أيضا مُحاضرات دعوية في مختلف القُرى الشيشانية المُحيطة بفيدنو و غيرها، مما كان له أبلغُ الأثر في إحداث صحوةٍ جِهاديةٍ غير مسبوقةٍ على مستوى الشعب الشيشاني.. و أما التدريب العسكري فقد أقاموا دورات متتالية كثيرة خاصَّة.

ثم لنا أن نتساءل: ما أهمية الدُّعوة في العمل الجِهادي؟!

يُجيبُنا القائد خطَّاب بنفسه: «وَ أَقُولُ أمرًا مَا اسْتَفَدْنَاهُ إلَّا بَعْدَ القِتَالِ؛ أَهَمُّ شَيْءٍ المَعْهَدُ وَ الدَّعْوَةُ؛ فَهِيَ -وَ الله- أَهَمُّ مِن المُعَسْكَرَاتِ وَ أهمُّ مِن العمَلِ العَسْكَرِيِّ بحَدِّ ذاتِه! و هَذَا حَقِيقَةً مَا فَهِمْنَاهُ إلَّا بَعْدَ القِتَالِ، وَ بَعْدَ أنْ أَسَّسْنَا مَعْهَدَ القُوقَازِ للدَّعْوَة وَ إعْدَادِ الدُّعَاةِ، فخَرَجَتْ شَخْصِيَّات عَجِيبَة بعدَ أنْ تَعلَّمَ النَّاسُ دينَ الله ﷻ، وَ فَهِمُوا القرآنَ وَ فَهِمُوا الحَدِيثَ وَ فَهِمُوا الجِهادَ، ثم بعد أن أرْسَلْناهُمْ لِمُعَسْكَرَاتِ التدْرِيبِ تَفجَّرَت الطَّاقَاتُ، وَ الله ضَرَبُوا أرْوَعَ الأمثِلَةِ في قِتَالِهِمْ ضِدَّ الرُّوسِ».

و بالرغم مِن العوائق التي واجهت القائد خطَّاب؛ و على رأسها العوائق الاقتصادية و المالية، بيد أنَّ مجهوداته و رِفاقه لم تذهَب سُدًى، و آتت أكُلَها خلال الحرب الشيشانية الثانية، و ساهمت في تحقيق التفوُّق العسكري على الرُّوس في السنوات الأولى مِن تلك الحرب، حتى نُقِشت أسماءُ خطَّاب و باساييف و رادوييف و برابيف و أمثالهم في ذاكرة التاريخ المُعاصِر بحروف مِن نور، و ذلك بعد أن لقَّنوا

القوات الرُّوسية دروسا عظيمة في فن الجهاد الإسلامي الأصيل، و أذاقوها الويلات و المصائب، فلم يكُن مِن أمر الرُّوس إلا أن خصَّصوا مُكافآت مالية ضخمة لكل مَن يُفلِح في الإيقاع بأحد أولئك المُجاهِدين العمالِقة و شلِّ تحرُّكاته!

20 درسا و عبرة

هذه عشرونَ مِن الدُّروس و العِبر المُستفادة مِن سيرة القائد سيف الإسلام خطَّاب؛ ارتأيتُ أن أُجمِلَها و أعرِضها في هذا الموضِع ليحصُلَ النَّفعُ لدى القارئ الكريم إن شاء الله؛ فهي الزُّبدة و العصارة و الخُلاصة:

٠١- تربية النشء على قوة البدن و شِدَّة السَّواعِد بالرِّياضة له آثارُه البعيدة التي ستصُبُّ في صالح الأمة، و لا شكَّ أنَّ هذا مِمَّا يدخُل في عموم قوله تعالى: ﴿وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ..﴾ [الأنفال:٦٠]، و عصرُنا اليوم هو عصرُ القوة وحدها؛ فينبغي أن تُعَدَّ القوةُ على مستوى الأفراد كما تُعَدُّ على مستوى الدُّول.

٠٢- إذا كان عصرُنا قد اجتمعت فيه كُلُّ أدواء جاهليات الأمم الماضية، و صار الإسلامُ فيه غريبا و يُحارَب حربا شعواء؛ فهذا يُلزِمنا بتربية أبنائنا تربيةً إسلاميةً أصيلةً، و حماية عقيدتهم و صونها في وجه المذاهِب الفِكرية و العقدية الهدَّامة، و تلقينهم عقيدة الولاء و البراء على وجه الخصوص، و توعيتهم بضرورة قيام الأمة بالجهاد في سبيل الله و الحذر مِن الرُّكون إلى الأمم الكافِرة و لو كانت أشدَّ أقوةً و أنفذ قرارًا و أكثر أموالاً.

٠٣- الجِهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، و شعيرةٌ مِن أعظم شعائر الدِّين، و النُّصوص الشَّرعية الثابتة التي تدُلُّ على وُجوبه تُعدُّ و لا تكاد تُحصى، و محاولات أعدائنا تشويهَ صورة الجِهاد و المُجاهِدين لا ينبغي أن تنطلي علينا، فالجِهادُ سيظلُّ قائمًا إلى قيام الساعة شاء مَن شاء و أبى مَن أبى، و لن تبلُغَ الأمةُ عِزَّها و تسترجع مجدها إلا به، و قد قال أبو بكر الصديق في خطبته المشهورة بعد استخلافه: «لاَ

يَدَعُ قَوْمٌ الـجِهَادَ في سبيلِ الله إلَّا خذلَهُم اللهُ بالذُّلِّ».. و الحمد لله أن جعلننا مِـمَّن عاصر تـمكينَ الله للشَّعب الأفغاني و تحرُّره مِن الاحتلال الأمريكي الصليبي بسبب الجِهاد.

٠٤- إنَّ الشباب الـمسلم مُـجاهِدٌ بفطرته، و ما نشهده اليوم مِن حربِ الأنظمة العميلة على الدِّينِ في بلاد الإسلام و تضييقها مساحةَ الحريات الـمشروعة قد نتج عنه زحفُ كثيرٍ مِن الشَّباب إلى أحضان الحركات القتالية التكفيرية التي اتَّصفت بصفات الخوارِج و أساءت للإسلام تبعًا لذلك، و أعظم حلٍّ يُمكن أن يحصل هو أن تُستثمر الطَّاقات الشبابية تلك لـخِدمة الدين و الحق، و جهاد الباطِل و أهله، و لن نرى مِن الغرب الـمُهيمِن -إن واصلنا مسيرةَ التبعية له- إلا ما يُناقِضُ ديننا و هويتنا الإسلامية، و يزيدُنا ذلاًّ فوق ذُلٍّ، و ينزع عنَّا مهابتنا و هيبتنا.

٠٥- ينبغي مُناصرة قضايا الـمسلمين مهما اختلفت جنسياتهم و ألوانهم، فلا اعتبار في الإسلام إلا للعقيدة و الدِّين، و لابُدَّ أن تكون الـمُناصرة بحسب الاستطاعة؛ فمَن عجز عن أن يُناصِرها بيده فليُـناصِرها بلسانه أو قلمه، و إلا فلا أقل مِن أن يُناصِرها بقلبه، و هذا أضعفُ الإيمان، و مَن لم يـجِد في قلبه أدنى تضامُنٍ مع إخوانه الـمظلومين في الأرض فليُراجِع إيمانه.

٠٦- بعضُ قضايا الشعوب الـمسلمة لابُـدَّ أن تتعرَّض للتشويه عن طريق الترسانة الإعلامية العالـمية الضَّخمة، و التي غالِبا ما تتبعُها الترسانة الإعلامية العربية في بثِّ باطلها، و الواجِب على الـمسلمين اليوم أن يُـحسِنوا الظنَّ في إخوانهم و يُسيئوه في أعدائهم، و أن ينزلوا تحت الأمر الإلـهي القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُـمْ فَاسِقٌ بِنبأٍ فتبيَّنوا أَنْ تُصِيبُوا قَـوْمًا بِجَهَالَةٍ فتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٠٦]، و إذا كان اللهُ تعالى يأمُرنا بأن نتثبَّت في خبر الفاسق ليُحتاط له، فما بالُنا بخبر الكافِر

الـمُعادي و الـمُحارب لنا؟! و الحمد لله أن أتاح وُجودُ الإنترنت و مواقع التواصل الاجتماعي مِساحةً جيدةً للإعلام البديل الموثوق كي يعرِف الـمسلمون أخبار إخوانهم ساعةً بساعةٍ مهما كانت الـمسافة بينهما بعيدةً.

٠٧- ينبغي على الشباب الـمسلم أن يُدرِك أبديةَ الصِّراع بين الحق و الباطِل، بين حزب الله و حزب الشَّيطان، بين الـمؤمنين و الكافِرين، و أنَّ التاريخ لـم يعرِف عصرًا حورِبَت فيه عقيدةُ الإسلام و أصحابُها أشدَّ مِن عصرنا هذا، و أنَّ الغرب الصليبي و الشَّرق الـمُلحد لا يكُفَّانِ عن تدبير الـمؤامرات ضد الأمة لإبقائها ذليلةً تابِعةً خاضِعةً لأحدهما أو كِليهما.

٠٨- الأمةُ اليوم أحوج ما تكون إلى القادة الصِّادِقين الـمُخلصين الذين يُؤْثِرون الدِّين على أنفسهم و أهليهم و أموالِهم، و يُجاهِدون في سبيل الله حقَّ الـجِهاد، مُتسلِّحين بالعِلم الشَّرعي الكافي و الوعي السياسي العميق، و ليس بالضرورة أن يكون كُلُّ مُجاهِدٍ مُقاتِلاً؛ فقد يكون الـمُجاهِدُ عالِـمًا ربَّانيا يأمُر بالـمعروف و ينهى عن الـمُنكر و ينصح الأمة، و قد يكونُ زعيمًا سياسيًّا خبيرًا بواقِع الحال و سُبُل نُصرة الدِّين، و قد يكون اقتصاديًّا بارِعًا يُقدِّمُ الحلول الاقتصادية للخُروج مِن مستنقع الرِّبا الذي أدخلتنا فيه الـمنظومةُ الاقتصاديةُ العالـمية التي يُسيِّرُها الغربُ الكافِر، و قد يكون كاتِبًا أديبًا مثقَّفًا يبُثُّ كلمة الحق و يشحن النَّاس بالوعي الشَّرعي، و قد يكون غير ذلك.

٠٩- مِن الصُّور النمطية التي ارتسمَت في مـخيِّلتنا اليوم أنَّ القادة العسكريين في دُوَلنا هم أبعدُ النَّاس عن الإسلام و الشَّرع، و هذا -و إن كان غير صحيحٍ على الـمُطلَق- إلا أنه يُعطينا إشارةً إلى ندرة العسكريين الغيُّورين على الدِّين و الأمة، و العامِلين على نهضتها و قيامها، و هم يكادوا لا يظهرون وسط هذه الـمؤسسات

العسكرية العربية التي نخرها سرطانا العلمانية و الوطنية و خرَّبا منظومتها الفِكرية، و فصلَاها عن الإسلام و عقيدته، و لا حول ولا قوة إلا بالله.

١٠- مِمَّا يُطيلُ زمنَ ضُعف الأمة و هوانها عجزُ المُسلمين عن صُنع السِّلاح بأيديهم، و اعتمادُهم على استيرادِه مِن الدُّول الكافِرة المُحاربة لدينهم، و التفريطُ في الأدمغة الذكية التي بإمكانها أن تبتكِر أنواعا مِن السِّلاح قد تكون أقوى و أشدُّ و أتقن مِمَّا عند أمريكا و روسيا.

١١- الفِكر العسكري لدى المسلمين يجب ألا ينفصِل عن عقيدة الإسلام و أحكامه، فالعسكرية الإسلامية لها خصائصها و ميزاتها التي ليست عند الأمم الأخرى، و هي مرتبطةٌ الارتباطَ الوثيق بعقيدة الولاء و البراء، و هي أداةُ نصرة الدِّين و خدمة الحقِّ و أهله،كما أنها أداةُ جِهادِ الكُفَّار المُحاربين و الطُّغاة المُجرمين و مُقارعتهم.

١٢- الوِحدة هي أساسُ نجاح الجِهاد و المُقاومة ضد الدُّول العادية، و ليست الجنسيات و الأعراق و الألوان هي مَن تُسبِّب الانقسامات و الفُرقة، فلا فرق بين عربي ولا أعجمي، ولا بين أسود ولا أبيض ولا أحمر، و إنما ما يُسبِّبُها هو اختلافُ الأهواء و الميولات، و إتاحة المَجال للمُنافقين و العملاء و الموتورين، و الواجِب هو تفادي وقوع هذه الأسباب، و ضربُ المُنافقين و عملاء العدو بيدٍ مِن حديدٍ، و عدم تمكينهم قيدَ أنملة مِن التغلغُل داخل الصف الإسلامي المُقاوِم قطعًا لشرِّهم.

١٣- القائد العسكري المسلم الناجِح هو الذي جمع بين جملةٍ مِن الأساسيات، على رأسها: حيازة الزَّاد الشرعي الكافي مِن الكتاب و السُنة و أقوال الصحابة و التابعين و أهل العلم، و التديُّن الحقيقي، و الغيرة على الإسلام، و إدراك حقيقة

الصِّراع بين الحق و الباطل و مؤامرات الأعداء على الأمة، و التمكُّن مِن مُختلف العلوم العسكرية و أبجدياتها، و الوعي و الإحاطة بسياسات الدُّول النَّافِذة المُهيمنة و خلفياتها العقدية و الفِكرية، و الجِهاد في سبيل الله تعالى.

١٤- بقدر ما يكون القادة المُجاهِدون على ارتباطٍ وثيقٍ بعلماء و فقهاء الشَّرع الرَّبانيين يكونُ مسارُ جِهادِهم صحيحًا، و بقدر ما يكونون على بُعدٍ عن أولئك العلماء و الفقهاء يكون مسارُ جهادِهم مُنحرفًا.

١٥- الغرب اليوم يُريد وضع المُجاهدين الحقيقيين في سبيل الله في نفس خانة الخوارِج و التكفيريين الذين شوَّهوا الدينَ و قاتلوا المسلمين و الكُفَّار معًا، و فرض تعميمَ وصفِ (الإرهاب) على الكُلِّ، و رغم أنَّ مصطلح الإرهاب ينبغي -ابتداءً- أن نفهمه نحن وِفق الكتاب و السُنة لا وِفق الغرب، و أن نُصنِّف الخوارج و التكفيريين تصنيفهم الذي يستحقُّونَه وِفق أدلَّة الشَّرع لا وِفق أهواء الغرب و المُنافِقين؛ إلا أنه قد انساقت طائفةٌ واسِعةٌ جدًّا مِن المسلمين -مع الأسف- وراء تلك الدِّعاية الغربية الباطِلة، و صار المُجاهِد في سبيل الله عندهم إرهابيًّا و تكفيريًّا خطيرًا، و لا شكَّ أنَّ تشويه الجِهاد و قيامُ الحربِ على أهله مِن علامات السَّاعة.

١٦- مِن عجائب هذا العصر أنَّ الشعب الأفغاني -و هو مِن أفقر الشُّعوب العالمية- دحرَ أعظم قوتين عسكريتين في العالم؛ روسيا و أمريكا، و أنَّ الشعب الشيشاني -و هو مِن أقلِّ الشُّعوب العالمية عددًا- قهرَ الجيش الرُّوسي العرمرم!

١٧- تقريبًا كُل قضايا الشُّعوب المُسلمة المظلومة بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م تعرَّضت للظُّلم و الطَّمس الإعلامي و الخِذلان مِن قِبَل الدول المُهيمنة عموما، و الأنظمة العربية خصوصا؛ و على رأسها: القضية الفلسطينية، القضية الأفغانية، القضية البوسنية، القضية التركستانية (إخواننا الأويغور)، القضية البورمية (إخواننا

الرُّوهينغا)، القضية الشيشانية، القضية السُّورية، و ذات الأمر بالنسبة للقضية الطَّاجيكية قبل أحداث سبتمبر.

١٨- السعي لتحكيم شريعة الإسلام باتَ مِن أولويات الأمة القصوى في هذا العصر؛ فلأول مرةٍ في تاريخ الإسلام يشهدُ واقِعُ المسلمين فصلاً تامًّا للشريعة عن الحُكم و السياسة و الاقتصاد و القضاء داخل ديارهم هم، بل و تبديلاً لها بتحليل ما حرَّم اللهُ و تحريم ما حلَّلَ، و استيراد كُلِّ نظامٍ وضعيٍّ بشريٍّ الباطِلُ فيه أكثر مِن الحق ليحتكِم إليه المسلمون بعيدًا عن شريعة دينهم.

١٩- تحرُّر بعضِ الشعوب الإسلامية مِن الاحتلال الأجنبي الكافِر، و تخلُّص بعضها الآخر مِن الأنظمة الوظيفية العميلة التي لا تحكُم بشرع الله؛ هو أوَّلُ طريق تحرير الأراضي الفلسطينية مِن الصهاينة إن شاء الله، و زوالُ هؤلاء الصهاينة بزوال مَن يحميهم و يرعى وُجودَهم.

٢٠- إنَّ موتَ القادة و الزُّعماء المُجاهِدين الكِبار لا يعني توقُّف الجِهاد و موت الحق بموتهم، و مِن الضَّروري للغاية أن يتم إعدادُ الكوادِر القيادية و تهيئتهم مُسبقًا ليكونوا هم القادة فيما بعد.

ختاما

إلى هنا نكون قد انتهينا إلى آخر رحلتنا في تاريخ القائد المُجاهد سيف الإسلام خطَّاب، قدَّس الله روحَه و أنار ضريحَه، وأرجو مِنه ﷻ أن يكتُب لهذا العمل المتواضع القَبول و الاستحسان لدى أهل الإسلام و الإيمان، و أن يجعله خالِصا لوجهه الكريم، فيجزل لي المثوبة جزاءً لي على صبري على إتمامه؛ فإنني قد ترددتُ كثيرا قبل شروعي بتسطير هذه السطور في سير القائد خطَّاب؛ ذاك أنَّ إبراز مثل هذه الموضوعات في هذه الحقبة الزمنية الحرِجة مِن عمر الأمة، وفي بلاد العرب و المسلمين المُتغلَّب عليهم، قد يتسبَّبُ -على الأرجح- في قيام الخطر على كاتبها، بل إنَّ كثيرا مِن الأفاضل الخواص و الأقارب الخُلَّص ممن عرضتُ عليهم مشروع هذا الكتاب قد قتلوني تخويفا مِن بطش النظام الذي يربطه وطيدُ العلاقات مع النظام الرُّوسي الاتحادي، ونصحوني بتلافي نشره، وتفادي ترويجه، وتعليقه إلى أَجَلٍ غيرِ مُسمّى.

على أنَّ الله تعالى قد جعلني ممن لا يُداهنون أهل الباطل، ولا يتوانون عند الصَّدع بالحق، فأسأل الله الثبات على تلك الطريق التي أحسب أني مِن سالِكيها، وإنَّما حجبتُ اسميَ الحقيقي الكامِل على واجهة الكتاب اتقاءً لِمَا لا طائل مِن مواجهته مِن ظلم الحكومة و بطشها و تضييقها على المرء، و زهدًا في أن أؤثر الاستبقاء على هذا العمل مع حفظ اسمي كامِلاً على أن أنشره مع إغفال الاسم، وطمعًا في مزيد أجرِ الله و ثوابه إن شاء تعالى، وإلا فإنَّني صاحِبُ مطامِح و مآرِبٍ عاليةٍ في التأريخ و الفِكر، وأسعى جاهِدا لطرق أبواب مِن التأليف و التصنيف في ذينك المَيْدانَيْن لم

يطرقها أحدٌ قبلي. وأما إذا ابتُليتُ بالسجن و الأسر فإنَّ هذا سيحرمني الشيءَ الكثير، ويدفعني عن إخراج ما أصبو إلى إفادة القُرَّاء و الشباب به، وهذا ليس جُبنًا ولا خوفًا، فلو كان كذلك لَـمَا صنَّفتُ هذا الكتاب ولا نشرتُه، وإنما هو مِن باب دفعِ الـمفسدة بما لا يمنعُ جَلْبَ الـمصلحة؛ فإنَّ نشريَ الكتابَ مع اسمي الكامِل هو جلبٌ للمفسدة الـمتمثِّلة في السجن، ودرأٌ للمصلحة الـمتمثَّلة في وصول هذا الكتاب إلى القُرَّاء، وربُّك الـمُستعان.

هذا، وثمة عِدَّة أمور أودُّ الإشارة إليها ضرورةً في الختام:

- إنَّ الـمجهودات الـمتواضعة التي بُذِلَت إلى غاية وضعِنا نقطةَ نهاية هذا الكتاب ما هي إلا جزءٌ يسيرٌ مِـن الكُلِّ الذي يَنبغي أن يُبذَلَ لتصدير اسمِ القائد خطَّاب بدلاً عن الأسماء الـمُجرمة و التافِهة و الـمُنحطَّة، و لَفْتِ أنظار أهل الإسلام إليه و إلى مسيرته الجِهادية البطولية، و كَسْرِ حاجِز (الإرهاب) الذي أقامَه أعداؤنا و حماهُ بنو جلدتنا بغية فصلِنا عن عظماء الأمة الـمُجاهِدين في هذه العقود الأخيرة و تشويههم في أعيننا، و جعلهم بذات منزلة الـمُجرمين الـمحسوبين على أمتنا. وما حواه هذا الكتاب إنما هو محاولةٌ أوليةٌ عامَّةٌ لتأريخ رجلٍ مسلمٍ عظيمٍ لا يقِلُّ شأنا أبدا عن أبطال الأمة السَّابِقين مـمَّن كُتِبَ لـهم واسِعُ الشُّهرة و ذياعُ الصِّيت، و الذي أتـمنَّى إدراكَه في الزمن الـمستقبل -إن طال بنا العُمُر- هو قيامُ أحد الخبراء العسكريين الـمسلمين مِن ذوي الدِّين و النخوة بدراسة سيرة القائد خطَّاب العسكرية دِراسةً تحليليةً مُفصَّلةً وافِيةً، و إنَّ ما ذُكِر تحت الفصل الرَّابع و الأخير مِن ذلك في هذا الكتاب ما هو إلا خطوطٌ عريضةٌ موجزةٌ لا تُبرِزُ العبقرية العسكرية و السياسية و الفِكرية لدى القائد بما يكفي.

- قد بقيت جملةٌ مِن الحقائق المجهولة لم تُذكَر في هذا الكتاب، و بانت لي رؤوسُ بعضٍ منها مِن دون أن أتعرَّفَ على تفاصيلِها؛ إما لعدم وُجود المصادِر العربية الكافية إلى الآن، و إما لتقصيري في الوُصول إلى تلك المصادِر في حالة وُجودِها، و إما لعجزي عن الوصول إلى المصادِر الرُّوسية و الشيشانية الموجودة و الغير مُترجمَة إلى العربية.. و مِن تلك الحقائق: علاقة القائد خطَّاب بمؤسِّس قاعدة الجهاد بأفغانستان أسامة بن لادن و المُراسلات بينهما، و تفاصيل إدارة القائد أموالَ المُتبرِّعين الأغنياء مِن بلاد الخليج و غيرها خلال الحرب الشيشانية الثانية، و مخطَّطاتُه لضرب المصالح الصّهيونية في روسيا باعتبار ذلك بديلاً ناجِعًا عن ضربها في فلسطين المُحتلة لصعوبة هذا الأمر، و دورُ العميل الشيشاني أحمد قديروف -والِد العميل الحالي رمضان- في الحرب الشيشانية الثانية، و الإحصاءات المضبوطة لعدد المُجاهِدين الإجمالي خلال الحرب الثانية، و حجم العتاد و الأسلحة العسكرية التي كانت بحوزة مجموعة القائد الخطَّاب.. و كذلك تجدُر الإشارة على وجه الخصوص إلى أنني لم أورد أحداث انحياز المُجاهِدين مِن غروزني خلال الحرب الشيشانية الثانية عن قصدٍ؛ وهذا نظرا لغياب المعلومات الكافية عنها؛ فالذي أعلمُه أنَّ تلك الأحداث قد دوَّنها أبو عمر النَّجدي عبر مقالات متتابعة مطلع الألفية النصرانية الثانية، ولكنَّ هذه المقالات -إلى حدِّ جُهدي في البحث عنها- ليست مُتاحةً على الشبكة العنكبوتية ولا في أي جهة أخرى، و إنما هنالك قِطَع قليلة فقط منقولة في بعض مصادِر سيرة القائد خطَّاب.

- مِمَّا لا بُدَّ منه في الأجل القريب أن يُتَرْجَمَ ما كتبه -إلى حدِّ الآن- الباحِثون و المؤرِّخون الرُّوس حول فترة انهيار الاتحاد السوفييتي، و الحرب الأفغانية، و الحرب الطَّاجيكية، و الحربين الشيشانيتين، وما يتَّصل بكل ذلك، إلى العربية حتى يتسنَّ للباحِثين العرب الاطِّلاعُ عليها و الاستعانة بها للكِتابة في تلك المواضيع المهمة، و

مأموريةُ القيام بتلك الترجمة تقع على عاتِق أساتذِة الأمة الذين يُجيدون اللغةَ الرُّوسية و يُتقِنونَها، و يحمِلون همَّ الأمة و يعملون لـها.. و الذي أعتقدُه أنَّ القائد خطَّاب و عملياته ضدَّ الرُّوس قد نالت مساحةً واسِعةً مِن كتابات الرُّوس و تدويناتهم عن الحربين الشيشانيتين، و لذلك ينبغي تتبُّـعُـها و تدقيقُ البحث عنها قدر الـمُستطاع، و هذا لا يقدِر عليه إلا مَن يُتقِنون اللغةَ الرُّوسيةَ و يعرِفون جيدا الـمواقِع الثقافية و التاريـخية الرُّوسية التي مِن الـمُحتمَل أن تتواجد بها تلك الكِتابات، و الله تعالى أعلم.

- بعد ظهور فترة الرَّبيع العربي اتَّسعت مساحةُ حرية التعبير في العالم العربي مِـمَّـا أدَّى بكثيرٍ مِن الكُتَّاب و الـمؤرِّخين و الإعلاميين للكشف عن جملةٍ مِن الحقائق و الـمعلومات التي خشوا مِن إذاعتها قبل تلك الفترة لأسباب أمنية، فلمَّـا تم إزهاقُ مُعظم ثورات ذلك الربيع العربي عادت مساحة حرية التعبير لتضيق و تنحصِر مُـجدَّدا -و لكن أشدَّ مِن أيِّ وقتٍ مضى- بسبب ظهور طبقةٍ جديدةٍ مِن الطُّغاة الـمُجرمين بحُكمهم الجبري.. و الـمقصودُ هو أنَّ كمًّـا هائلاً مِن الحقائق لازال بحوزة كثيرٍ مِن الإعلاميين و الكُتَّاب الذين دوَّنوا عن فترة التسعينات ثم أحداث الحادي عشر سبتمبر و ما خلَّفته مِن آثار سلبية على واقِع القضايا الإسلامية في أفغانستان و الشيشان و البوسنة و العِراق و غيرها، ولا شكَّ أنَّها مادَّةٌ تاريـخيةٌ مهمَّةٌ جِدًّا -سواء كانت مُذكرات أو يوميات أو غيرها- ليس أمامنا سِوى انتظار بُروزها إلى العلن.

- و أخيرا.. فقد جاء هذا الكتاب ليكون انطلاقَةَ تدوينِ سلسلةٍ في تأريـخ رجالات الأمة الـمؤثِّرين -بغضِّ الـنَّظَر عن ماهية تأثيرهم على واقِع الأمة و تضارُب الآراء حول أحدٍ منهم- خلال العقود الأخيرة؛ سواء على الصعيد السياسي أو العسكري-الجهادي، و إنَّ هنالك جمًّا غفيرًا مِنهم تنتظِرُ سِيَـرُهم إفرادَها في كُتب، وإماطة اللثامِ عنهم بتأريخ أخبارهم و توثيقها، مع توخِّي الإنصاف و العدل معهم

اتِّقاءً للظلم و الإجحاف، و إبراز المآخِذ التي سُجِّلت عليهم شرطَ التقيُّد بالأسلوب المُهذَّب و الاستدلال العلمي الصحيح حتى تستفيد الأجيالُ مِن ذلك؛ فلا تُكرِّر ما سُجِّلَ عن أولئك الأعلام مِن الأخطاء، وتتفادى الوُقوعَ في نفس ما وقعوا فيه مِن السقطات. وإنَّ قراءة تاريخِ الأعلام و الأمم و الدُّول تمنع ذلك كُلّه، و تجعل الإنسانَ بصيرًا بواقِعه حينما يعي أنَّ (اليوم شبيهٌ بالبارحة) على قول العرب، أو أنَّ (التاريخ يُعيدُ نفسَه) على قول الإنكليز، و العاقِلُ مَن اعتبر.

و نسأل الله تعالى أن يُعِزَّ الإسلامَ و المُسلمين.. و آخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

تم الانتهاء مِن الكتاب بحمد الله يوم:
الخميس؛ ٢٠ رمضان ١٤٤٣هـ / ٢١ أبريل ٢٠٢٢م

المصادر و المراجع

الكتب:

* تفسير القرآن العظيم؛ لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدِّمشقي، تحقيق: سامي بن محمد السَّلامة، دار طيبة للنشر و التوزيع-الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

* التفسير و البيان لأحكام القرآن؛ لعبد العزيز بن مرزوق الطريفي، مكتبة دار المنهاج للنشر و التوزيع-الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ.

* صحيح البخاري؛ لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البُخاري، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، دار الحضارة للنشر و التوزيع-الرياض، الطبعة الثالثة ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

* صحيح مسلم؛ لأبي عبد الله مسلم بن الحجَّاج بن مسلم القشيري النِّيسابوري، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، دار الحضارة للنشر و التوزيع-الرياض، الطبعة الثانية ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

* سنن أبي داود؛ لسليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السّجستاني، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، دار الحضارة للنشر و التوزيع-الرياض، الطبعة الثانية ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

* سنن الترمذي؛ لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى ابن الضحَّاك الترمذي، تحقيق: رائد بن صبري بن أبي علفة، دار الحضارة للنشر و التوزيع-الرياض، الطبعة الثانية ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

* سلسلة الأحاديث الصحيحة؛ لناصر الدين الألباني، مكتبة المعارِف للنشر و التوزيع-الرياض، طبعة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

* مجموع الفتاوى و الرسائل؛ لمحمد بن صالح العثيمين، جمع و ترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الثُّريا للنشر و التوزيع-الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

* الجواهر الحِسان في تغريدات العلوان؛ لسليمان بن ناصر العلوان، دار العلوان، الطبعة الثانية.

* سطور من النقل و العقل و الفكر؛ تقييدات و ملفوظات عبد العزيز بن مرزوق الطريفي، جمع و ترتيب: عزام بن محمد المحيسني، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥.

* الجهاد الأفغاني و دلالته؛ لمحمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة-جدة، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

* تاريخ أفغانستان و تطورها السياسي؛ لصالح عبود العامري، دار العربي للنشر و التوزيع-القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.

* آيات الرحمان في جهاد الأفغان؛ لعبد الله عزام، دار المجتمع، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

* ملحمة الجهاد الأفغاني؛ لعدنان علي رضا النحوي، دار النحوي للنشر و التوزيع-الرياض، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

* تاريخ القوقاز..نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي؛ لمحمود عبد الرحمان، دار النفائس-بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

* الشيشان..السياسة و الواقع؛ لزليم خا يندربي، ترجمه إلى العربية: سليمان الماجد، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

* الحرب الشيشانية بين التزييف و التأليف؛ لـمحمد يوسف علس، دار الـمختار الإسلامي-القاهرة.

* الشيشان و الاستعمار الرُّوسي (١٨٥٩-١٩٩١م)؛ لسعيد بينو، مطابع صفوة، ١٩٩٧م.

* التحول الديمقراطي في روسيا من يلتسن إلى بوتين؛ لـهاني شادي، دار العين للنشر-القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

* يوسف العُييري.. شموخٌ في زمن الهوان؛ لعيسى بن سعد آل عوشن، منبر التوحيد و الجهاد (منشور الكترونيا).

* تـجربة الأنصار العرب في الشيشان..خواطر و مواقف للقائد خطَّاب؛ تفريغ شريط: مؤسَّسة التَّحايا قِسم التفريغ و النَّشر ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م (منشور الكترونيا على موقع الـمكتبة الشَّامِلة).

* الثمر الـمستطاب في سيرة القائد خطَّاب؛ لـموقع كتائب النور (منشور الكترونيا فقط).

* و أخيرا ترجَّل الفارس خطَّاب؛ لـموقع مفكرة الإسلام، جمع و تنسيق: أبو أنس الطائفي (منشور الكترونيا فقط).

* الـمسلمون و الحضارة الغربية؛ لسفر بن عبد الرحمان الحوالي (منشور الكترونيا فقط).

* البلاء الشديد و الـميلاد الجديد؛ لفايز الكندري، مركز طروس للنشر و التوزيع-الكويت، الطبعة الثالثة ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢١م.

* Khattab; by: Muhammad al-Ubaydi, Editor: Nelly Lahoud, Combating Terrorism Center at West Point (PDF).

* Chechnya..Wahhabism and the invasion of dagestan; by: Emil Souleimanov (PDF).

المقالات و المنشورات على الشبكة العنكبوتية:

* الحرب الشيشانية..الهمجية الرُّوسية تودي بحياة مليون مسلم بين قتيل و مُهجَّر؛ عماد عدنان، نون بوست، نُشِرَ بتاريخ ١٦-٠٣-٢٠٢٠م.

* حروب روسيا عبر ربع قرن..هذه الدُّول التي تدخَّل فيها بوتين عسكريا؛ موقع الجزيرة، نُشِرَ بتاريخ ٢١-٠٢-٢٠٢٢م.

* شقيق خطَّاب يكشف عن وصية كتبها قبل وفاته؛ موقع الجزيرة، نُشِرَ بتاريخ ٠١-٠٥-٢٠٠٢م.

* تغريدات عن حياة المُجاهد خطَّاب و بعض عملياته الجهادية؛ موسى الغنَّامي، نُشِرت على موقع صيد الفوائد.

* قصة مقتل القائد خطَّاب؛ بقلم: القائد أبو الوليد الغامِدي (منشورة الكترونيا فقط).

* شامل باساييف؛ ويكيبيديا.

* شامل باساييف؛ موقع الجزيرة، نُشِرَ بتاريخ ١٠-٠٧-٢٠٠٦م.

* Chechnya..Wahhabism and the invasion of dagestan; by: Emil Souleimanov.

* Chechen warlord reported killed; CNN world, 25-April-2002 posted.

* Obituary..Chechen rebel Khattab; BBC world, April 2002.

المقاطع و الأفلام المرئية و المسموعة:

* الموسم الخامس؛ الحلقة السَّادِسة: القائد خطَّاب؛ لعبد الله الشريف، نشره عبر قناته الرسمية على اليوتيوب بتاريخ ١٧-٠٦-٢٠٢١م، و قد قام الأخ عبد الله -جزاه الله خيرا- بوضع رابط في أسفل الحلقة جُمِعَ فيه جُلَّ ما وُجِد على اليوتيوب مِن

مقاطِع و أفلام حول حياة القائد خطَّاب و مسيرته بالشيشان، فاستفدتُ مِن ذلك استفادةً كبيرةً في هذا الكتاب.

* حلقة مِن برنامج (بلا حدود) بحضور الرئيس الشيشاني زليم خان يندربابيف و رُبِط فيها الاتصال بالقائد خطَّاب، تقديم الإعلامي: أحمد منصور، نُشِرت على اليوتيوب بتاريخ ٠٢-٠٣-٢٠٢٢م عبر قناة أحمد منصور الرسمية.

* أكثر مِن ١٠٠ مقطع و فِلم مرئي حول الحربين الشيشانيتين و قادتها و أحداثها، منشورة على مختلف منصات التواصل الاجتماعي؛ يوتيوب، فيسبوك، تويتر، و المجموع الساعي لتلك المقاطِع يتجاوز ١٠ ساعات.

* مُجدِّد العصر.. المُجاهد خطَّاب، خطبة للشيخ محمد بن عبد الله الهبدان (جزءان)، نُشِرت على موقع طريق الإسلام بتاريخ ٠٩-٢٠-٢٠١٥م.

المواقع الالكترونية:

* الموقع الرَّسمي لفضيلة الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز.
* الموقع الرَّسمي لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين.
* موقع شبكة الجزيرة الإعلامية.
* موقع صيد الفوائد.
* موقع طريق الإسلام.
* موقع شبكة الجزيرة
* موقع قصة الإسلام.
* موقع ويكيبيديا.

و غيرها..

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

أَشِدَّاءُ عَلى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَينَهُمْ.....١٧، ٣٣

إنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغيِّرُوا مَا بأنفُسِهِمْ..... ١٥

فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ..... ٣٤، ٢١٥

هُمُ العَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ ١٧٦

وأعِدُّوا لَهُمْ ما استطَعْتُم.....١٨٤، ٢٢٦

وَإنْ تُطِيعُوا الَّذينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُم على أعْقابِكُم..... ١٦

ولو رَدُّوهُ إلى الرَّسُولِ وَ إلَى أولي الأمْرِ مِنهُمْ..... .. ٢١٥

ولينْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنْصُرُهُ..... ١٠

ويَقُولُونَ متى هُوَ ١٦

يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذَا جاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبأ فَتبيَّنُوا.....٢٢٧

يا أيُّها الذين آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُم فَانْفِرُوا ثُباتًا أو انفِرُوا جَمِيعًا..... ٢١٦

فهرس أطراف الأحاديث النبوية

إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ..... ١٨٢

إنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ.. ٨٠

إنَّك لن تدَعَ شَيْئا لله ﷻ إلَّا بدَّلكَ اللهُ به مَا هُوَ خَيرٌ لَكَ مِنهُ..... ٢٧

الحَرْبُ خَدْعَةٌ..... ٢١٧

مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ..... ٣١

مَن لم يشكُرِ النَّاسَ لم يشْكُرِ اللهَ... ..... ٥

انصُرْ أَخَاكَ ظالِمًا أوْ مَظْلُومًا..... ٢٩

نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَة شَهْرٍ..... ١٨٤

ونَصْرُ المَظْلومِ..... .. ٥١

فهرس الأعلام

النبي (رسول الله)ﷺ ..... ٥، ١١، ١٦، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٥١، ٨٠، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤، ٢١٧

أبو أيوبي العراقي ١٤٦

أبو بكر الصديق رضي الله عنه..... ٢٢٦

أبو بكر عقيدة..... ١١٤

أبو ذر الطَّائفي..... ١٣٦

أبو عمر السَّيف الخالِدي..... ٣٤

أبو عمر النجدي..... ١٨٨

أبو لؤلؤة المجوسي..... ١٥٩

أبو الوليد الغامدي..... ١٠٧، ١٣١، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧١، ١٧٥

أحمد قديروف..... ١٤٠، ١٩٤، ٢٣٥

أحمد منصور..... ٢١١

أسامة بن لادن..... ٥٦، ١٩٠، ٢٠٥، ٢٣٥

أصلان مسخادوف..... ٧، ١٠٦، ١٠٧، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٤٠، ١٤١، ١٧١، ١٧٥، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٩

أكرم حزام ٢١١

بابراك كارمل ..... ٣٧، ٣٨، ٤٠، ٤١

ابن باز..... ٣٤، ٤٧، ٢١٤

برهان الدين ربَّاني..... ٣٨، ٤٦

بوريس يلتسن.... ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨٢، ١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١١٣، ١١٤، ١١٩، ١٢٠، ١٤٠، ١٤١، ٢٠٨

بيكو..... ٢٢٠

بيل كلينتون..... ١٠٤

جمال ريان..... ١٦١

جميل الرحمان..... ٤٦

جنكيز خان..... ٢١٣

جوزيف ستالين..... ٧٢

جوهر دوداييف..... ٧، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٨١،٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٦، ١٢٢، ١٦٨، ١٧٠، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٩

جيلاني عزيز الله..... ٤٦

حبيب خان شاتول ٤٦

حبيب الرحمن المهندس..... ٤٦

حفيظ الله أمين.....٣٧، ٣٨، ٤٠

حمود العقلا..... ٣٤

دوكوزا ماخاييف..... ٩٥

ذبيح الله..... ٤٦
ذوكوزافجايف..... ٧٣
رسلان حمزة جلاييف..... ١٧١
رسمية بنت إسماعيل..... ٢٣، ٣٤
رمضان قديروف ٢٣٥
رضوان..... ٦٤
زوج خطَّاب الداغستانية..... ٢٤
زليم خان ياندربابيف..... ١٠٤، ١٠٥، ١١٤، ١٧١
سارة بنت خطَّاب السويلم ٢٤
ساجِدة بنت خطَّاب السويلم ٢٤
سايكس ٢٢٠
سلمان بن عبد العزيز آل سعود..... ٤٧
سلمان رادويف .... ١٠٦، ١٠٧، ١٧١، ٢٢٤
سيد أحمد..... ١٠٨
سيرجي ستيباشن..... ١٢٠
سيرجي كيريينكو..... ١٢٠
سيف الإسلام خطَّاب (ثامر السويلم، القائد خطَّاب، القائد)..... ٥، ٧، ١٠، ١٣، ١٦، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٤٤، ٤٦، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٧٢، ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٥٩، ١٦١، ١٦٣، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٦، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦
سيف الدين قطز ٢٠٣
شاليذي..... .... ٥٧
شامل باساييف..... ٧، ١١، ١٦، ٧٢، ٧٦، ٨٢، ٩٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٣، ١٦٨، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٨٣، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٧، ٢٢٤
شامل الداغستاني..... ١١٨، ١١٩، ٢٠٤
الشيخ فتحي.....٨٣، ٨٥، ٨٩، ٩٠، ٢٢٠
شي جيفارا..... ١٣، ١٤، ١٥

صالح بن عبد الله السويلم.....٢١، ٢٢، ٢٣، ١٩٥

صالح بن خطَّاب السويلم.....٢٤، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦

صدام حسين ١٦٤

عبد ربِّ الرسول سيَّاف..... ٣٨، ٤٦

عبد الرب خان..... ..... ٤٦

عربي برابيف ..... ١٠٧، ١٧٠، ٢٢٤

عبد الصمد ملَّا قربان..... ٦٢

عبد العزيز الطريفي.... ٤٢، ١٧٦، ١٨٠، ٢١٦

عبد القادر الجزائري (الأمير)..... ١٨٥

عبد الكريم الخطَّابي..... ١٨، ١٨٥

عبد الله السويلم..... .. ٢١

عبد الله عزَّام..... ١٦، ١٨، ٤٢، ٤٨، ٥٠، ٥١، ١٦٩، ١٨٥

عبد الله النوري..... ٧، ٥٩، ٦٣، ١٥٢، ١٨٢

عثمان بن عفان ﷺ..... .. ٥٧

عز الدِّين القسَّام..... ١٨، ١٨٥

عزيز الله لودين..... ٤٦

ابن عثيمين..... ٣٤، ٤٧، ٥٢، ١٢٦، ١٨١، ٢١٤

علي رحمان نابيف..... ٥٩

عمر افتورخانوف..... ٧٧

عمر بن الخطَّاب ﷺ..... ٢١، ٢٨، ٣٥، ١٥٩

عمر المختار..... ١٨، ١٨٥

عين جالوت..... . ٢٠٣

غلام محمد نيازي..... ٣٨

فلاديمير بوتين..... ١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٦١، ١٧٤

فيكتور تشيرنوميردين.....٩٤، ١٢٠

فهد بن عبد العزيز آل سعود..... . ٤٦

قلب الدين حكمتيار ..... ٣٨، ٣٩، ٤٦

ابن كثير ٣٣

كمال أتاتورك..... ٢٣

ليبيد (الجنرال).....١٠٦، ١٠٧، ١١٣

ماهر بن صالح السويلم..... ٢٣، ٢٩، ٣٢

محمد أمين (القاضي)..... ٤٦

محمد البشير الإبراهيمي..... ٥٥، ١٨٨

محمد داود..... ٣٧، ٣٩، ٤٠

محمد صديق سلجوقي..... ٤٦

محمد ظاهر شاه..... ٣٦، ٣٧، ٣٩

محمد ياسر..... .... ٤٦

محمود الغزنوي..... . ٥٠

منصور بن صالح السويلم.....٢٣، ٢٩، ٣١، ٢١٣

ميتران..... ٥٧

نجيب الله..... ٤١

نصر الله منصور..... ٤٦

نور محمد تراقي..... ... ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠

نيكولا باتريشوف..... ١٤٣
هولاكو..... ٢١٣
يفجيني بريماكوف..... ١٢٠
يوسف العييري..... ..... ٢١١

فهرس البلدان و الأماكن

الأردن..... ٢١

الاتحاد السوفييتي (الإمبراطورية السوفييتية).... ١١، ٢٥، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٨، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٧١، ٧٥، ١٤١، ١٦٤، ١٦٨، ١٧٢، ١٨٣، ٢٣٥

إستونيا..... ٧٣

أفغانستان (بلاد الأفغان)..... ٧، ٢٧، ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٦، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٦، ٧١، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٩٠، ١٤٦، ١٦٤، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٥، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٠، ١٩١، ١٩٦، ١٩٨، ٢١٠، ٢٣٥، ٢٣٦

إلستنجي..... ١٥٦

أمريكا (الولايات المتحدة الأمريكية)..... ١٤، ٢٥، ٢٧، ٣٦، ٣٧، ٤٨، ١١٨، ١٤١، ١٤٣، ١٥٨، ١٧٥، ٢١٣، ٢٢٩، ٢٣٠

أوزبكستان..... ٥٨

أوروبا..... ٩٢، ١١٨، ١٤١، ١٨٢

أوكرانيا..... ١٧٢

أنغوشيا..... ٢٠٦

باشكيريا..... ١٤١

باكستان..... ٤٧، ٥٢

بانج..... ٦٦

بخارى..... ٥٨

بروكلن..... ٤٨

بغداد..... ٢٠٣

بلاد الحرمين (السعودية) ..... ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٣، ٨٠

بلاد فارس..... ٥٧

بوتليخ..... ٢٠٧

بوديونوفسك..... ٩٤، ٩٥

البوسنة و الهرسك..... ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٧، ٢٣٦

بيشاور..... ٦٤، ٧٩

تارون..... ٧٣

تاوزني..... ١٣٧، ١٣٨

تتارستان..... ١٤١

ترقو..... ١٦٣

تركيا..... ٢٣

تركستان الغربية..... ٥٨

تركستان الشرقية..... ٥٨

تركمانستان..... ٥٨

تسافيدنو..... ١٥٧

الثقبة..... ٢٤

جاخي تشو..... ١٠٤

الجزائر..... ٥٩، ٢١٤

جلال آباد..... ٥٣، ١٤٦

الحجاز..... ٧، ٢١، ١٥٢، ٢٢٠

خاراتشوي..... ٧، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٣

خاسيا فورت.....١٠٧، ١١٣
الخليج..... ٥، ١٦٤، ٢٣٥
خوارزم..... ٥٨
خوست.....٧، ٥٣، ١٤٦
داغستان..... ٦٠، ٨٠، ٨١، ٨٥، ٨٧، ٩٤، ١٠٧، ١١٨، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٨، ١٤٠، ١٦٥، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٢، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٠
الدَّمام..... ٢٤
روسيا..... ١١، ٥٨، ٥٩، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٨٢، ٨٣، ٩٤، ٩٦، ٩٨، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢١، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨، ١٤١، ١٦١، ١٦٤، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٥
الرياض..... ٤٧
سرجنيورت.....٩٨، ٩٩، ١٠٠
سلوفينيا.....١٨٢
سوريا.....٢٣، ٢١٤
شاتوي..... ٧، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٩، ١٤٠
الشام..... .....٢٣، ٢١٤، ٢٢٠
الشيشان..... ٧، ١١، ٢١، ٢٤، ٣٠، ٥٥، ٦٠، ٦٦، ٦٧، ٧٢، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٨، ١٢٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٤، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٣٦
الصبيخة..... ٢٤
طاجيكستان (بلاد الطَّاجيك)..... ٧، ٣٠، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٥، ٦٧، ٧٩، ٨٠، ١٤٦، ١٥٢، ١٦٨، ١٧٣، ١٨٠، ١٨١، ١٨٩، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٨، ٢١٠
الطَّهران.....٢٥
طورخم.....٥٣
العراق.....١٧٥ ٢٢٠، ٢٣٦
عرعر..... ٧، ٢١، ٢٣، ٢٤
غروزني..... ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٨، ١٠٦، ١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٣٥
فلسطين.....٢٠٣،٥٩، ٢٣٥
فرغانة..... ٥٨
فرنسا..... ١٧٦
الفولجا.....١٤١
فيدنو..... ٧، ٨٥، ٨٧، ٨٨،

٨٩، ٩٥، ٩٨، ١٠١، ١٠٢، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٨،
١٨٨، ١٩٠، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤
قرتشاي..... ٢٠٦
القوقاز..... ٨٦، ٩١، ٩٣، ٩٩،
١٠٧، ١١٨، ١٤١، ١٤٧، ١٩١، ١٩٣، ١٩٩،
٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤
قيرغيزستان..... ٥٨
كابل..... ٥٣، ٥٤، ١٤٦
كازاخستان..... ٥٨، ٧٢
كراماخي..... ١٦٥، ٢٠٧
كولاب..... ٦٦
الكويت..... ٤٩
لوجر..... ٧، ٥٦
المالايو..... ٢٢٠
المدينة المنورة..... ١٥٩
مصر..... ٢٠٣
المغرب..... ٢٢٠
موسكو..... ١٠٥، ١٧٤
نجد..... ٢٢٠
ننكرهار..... ٥٣
نهر جيحون..... ٦٢
ياريش ماردي (يارِشْمَرْضي)..... ٧، ١٠١،
١٠٢، ١٦١
اليمن..... ٢٢٠
يوغسلافيا..... ١٨٢، ٢٠١

فهرس الموضوعات

شكر و اعتراف 05
القائد خطاب في سطور 07
قال القائد خطَّاب 10
أما بعد 13

الفصل الأول:
من الولادة إلى ما قبل الحرب الشيشانية

من هو سيف الإسلام خطَّاب؟ 21
مفاتيح شخصية خطَّاب 28
الـجهاد الأفغاني 36
الـمحطَّة الأفغانية 50
الـمحطَّة الطَّاجيكية 57

الفصل الثاني:
الحرب الشيشانية الأولى

بداية القصة 71
الطريق إلى الشيشان 79
معسكر فيدنو 85
بين الزعيم و القائد 98

عملية خاراتشوي..... 94
عملية سرجنيورت..... 98
عملية شاتوي.....101
نهاية الحرب الأولى. 104

الفصل الثالث:

الحرب الشيشانية الثانية

ما بعد الحرب الأولى.....113
اندلاع الحرب الثانية 122
خطَّاب و الانسحاب الأسطوري 128
بين خطَّاب و بوتين.....140
و حان وقت الرَّحيل.....146
أبو الوليد الغامدي في الواجهة 152
و مات خطَّاب 158
الوصية الأخيرة 163
بعض آثار رحيل القائد خطَّاب..... 168
لـمـاذا سقطت الشيشان؟..... 173

الفصل الرابع:

المدرسة الخطابية.. في العسكرية و السياسة و الدعوة

الجهاد الخطَّابي على ميزان الشَّرع.....180
الصفات و الـمزايا القيادية الخاصَّة 186

الـمزايا العسكرية العامَّة 195
استراتيجيات حاسمة..... 201
الوصايا التِّسع..... 213
في معسكر فيدنو..... 220
(٢٠) درسا و عبرة 226

خِتاما 233
الـمصادر و الـمراجع..... 238

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية..... 246
فهرس الأحاديث النبوية..... 247
فهرس الأعلام 248
فهرس البلدان و الأماكن 250
فهرس الـموضوعات..... 253